تعريف الخصوص

بمكامن الشرف المخصوص

عبد الغني العمري

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي خلق الإنسان على صورته ، ونفخ فيه من روحه وكساه حلة خلافته، فتصرف في الرعية وسار فيهم بسيرته ، فظهر شرف هذه النشأة الآدمية على كل خليقته ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد من جمع جميع الكمالات بحقيقته ، التي ظهر نورها على قمر بشريته ، فكان نورا على نور بتجلي محاسن غيبه على شهادته، وعلى آله الأئمة وعترته، وأصحابه النجوم الهداة بهدايته لجميع أمته.

أما بعد، فإن الوحي قد تضمن إحالات على الأسرار الشريفة الكامنة في الذات المحمدية، تعريفا بقدره صلى الله عليه وآله وسلم لدى الطالب لربه، السالك طريق أهل الله على الأدب والاتباع؛ رأينا أن نذكّر بها حتى يتخلص المريد لها من حجاب التقليد للعوام، ويزداد رغبة في الله ورسوله، كي يصلُح لقبول الإمداد الإلهي الذي يمتاز به المقربون. بل إن الوحي ما تكلم إلا عنه صلى الله عليه وآله وسلم، تفصيلا وإجمالا؛ ولكننا رفقنا بمن كان أجنبيا عن الحقائق،

فقلنا إنه تضمن إحالات؛ حتى يتهيأ لقبول الحق على قدر استعداده، فيحصل بذلك النفع – إن شاء الله– لكل طبقة من طبقات القلوب.

ولقد دعانا إلى هذا الكتاب، ما رأيناه من غفلة عامة المسلمين عن الاتصال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بما يليق بمرتبته السَّنية من جهة؛ وضرورة تحقيق ما يضمن سلامة الدين للمرء وحسن الاستمداد من جهة أخرى؛ وإلا فأي دين يبقى، إذا اكتفى الناس بما هو داخل في دائرة إدراكهم العليل القاصر، حتى وإن تمسكوا بصور له ظاهرة، يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئا.

وما يتفطن المساكين أن الأمم السابقة، قد وقعت فيما هم فيه؛ فانقطعوا بذلك عن أصل الدين، حتى جاءتهم الرسل من جديد يبعثون فيهم ما أماتوا، ويُحيونهم بالتذكير بعد أن كانوا قد ماتوا.

وحيث أنه لا رسول بعد رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم، فإن من يُصاب بداء الفتور والانقطاع الآن، ما عليه إلا أن يعمل على استعادة الاتصال، الذي لن يتحقق إلا بتجديد التعرف المُخرج عن التقليد الضار. وهذا هو ما نروم تحقيقه بإذن الله وعونه.

غير أنه لا بد أن ننبه إلى أن الكتاب مكتوب بلسان الخصوص، حتى لا يطمع في نيل ما فيه كل أحد؛ أو يظن أنه يستطيع أن يقيس علينا بما يبلغه علمه من يظن أنه من أهل العلم. ولعل أكثر من نرجو أن ينتفع بالكلام، من كان من أهل طريق السلوك؛ أما غيرهم من أهل التقليد، فإن وجدوا ما يصادم عقائدهم، فليسلِّموا قدر ما استطاعوا حتى لا يُحرموا بركة الكلام إن لم يبلغوا درجة الفهم. فإن من العلم ما لا يطيقه إلا من ربط الله على قلبه. والله المستعان.

دمشق في ١٨ جمادى الثانية ١٤٣٢ هـ\ ٢١- ٥ – ٢٠١١ م

تمهيد

يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب ٢١]. قد للتحقيق وكان للاستغراق. والأسوة : القدوة التي بها يتأسى الناس. ووصف الله للأسوة بالحُسن من نفس باب وصف الأسماء الإلهية به، وذلك للدلالة على الكمال التام الذي منه يكون الإمداد. ومعنى الاستغراق الذي ذكرنا، يكمن في كون هذه الأسوة غير مقيدة بزمان بل هي تنسحب على الخلق من أولهم إلى آخرهم ؛ فإن راعينا جنس الإنسان تكون من آدم عليه السلام إلى آخر فرد من الناس، بما في ذلك الأنبياء والأولياء والصالحون. ولا يحجبنك مثل قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام ٩٠] ، في إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام ، فإن ذلك من باب الحكمة ومراعاة السبق الزماني؛ فهو من باب فرعيٍّ بالمقارنة إلى الأصل الذي نتكلم عنه.

والأسوة التي نقصدها هنا، هي أسوة السلوك في حق المريدين؛ وأسوة التحقق للعارفين، وهما الصنفان المقصودان بقول الله تعالى:﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ ﴾. أما أسوة من كان يرجو اليوم الآخر فهي المتناولة من قبل الفقهاء الداعين إلى سبيل الله رضي الله عنهم. فإن كنت تعجب من هذا التصنيف، فاعلم أنه ما كل أحد ينهض إلى طلب الله. والعامة يخلطون بين هذين المعنيين لعدم ذوقهم معنى طلب الله؛ فهم معذورون ما لم ينكروا على من ذاقه. ويجب على الفقهاء الناصحين أن يبينوا ما ذكرناه وإن لم يذوقوه، استنادا إلى مجرد إيمانهم بما هو فوق

طورهم، أو استنادا إلى عقولهم التي تعطيهم أن ما لا يبلغه علمهم قد يدخل ضمن ما ذكرناه؛ وإلا فسيكونون محجوبين بجهلهم أو كبرهم، وهو ما نسأل الله أن يعافينا وإياهم منه.

أما أوجه التأسي، فتشمل الظاهر والباطن. فالظاهر تدخل تحته الأقوال والأفعال مما يعلمه أصحاب فقه السنن؛ والباطن يدخل ضمنه وجد بعض الأحوال الشريفة التي كان ينصبغ بها باطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بحسب ما يطيق المتأسي. وهذا الجانب الأخير، ما اعتنى به كما يليق إلا أصحاب السلوك والتحقيق. أما فقهاء الظاهر، فيكادون يهملونه إهمالا تاما. ولا ينفع فيه بعض تعرض من حيث العلم المجرد، فهذا غير ما عنيناه بالتأسي في مجال الباطن. والظاهر والباطن معا يصبان في الأخلاق. فإنها الغاية في المعاملة. وقد أشار الله في كتابه إلى ثمرة الأخلاق التي ينبغي أن تُطلب تعريفا بمرتبتها في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. والعظمة الموصوف بها الخُلق هنا، هي العظمة اللازمة للأخلاق الإلهية. فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جمع بين أخلاق الربوبية وأخلاق العبودية بما لا يطيقه أحد في المرتبتين، وهو ما عنيناه بالأخلاق الإلهية. فكان الآية الكبرى والبرزخ الأعم. واعلم أن الأخلاق الإلهية التي نتحدث عنها، لا يعلم مدلولها إلا الخلفاء، أما من عداهم، فلا علم له بحقيقتها، وإنما هو يظن ظنا عن بعد؛ أو هو يعلم بها علما مجردا.

ودلالة الله عباده على الأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو من باب الدلالة على نفسه سبحانه. وذلك لأن الوُصلة بالله لا تتحقق إلا بواسطته صلى الله عليه وآله وسلم. بهذه الدلالة يصوب الله العقول المفرطة في التنزيه التي تقعد بأصحابها في موطن الفرق الشركي. فمن سمع كلام الله وأطاع، فقد أصاب خيرا لا حد له؛ ومن انكفأ على نفسه يأخذ برأيها في مجال معاملة الله، فإنه يضل ضلالا بعيدا. ولو تتبع الناس الوصايا الإلهية في

القرآن بصفاء الفهم لظفروا بعلوم نفيسة وحكم جليلة. فإن الله لا يوصي عباده إلا بما لهم فيه الخير العميم. ولكن ما كل أحد صدق ربه في كل كلامه.

واعلم أن التأسي الجامع للجوانب التي ذكرناها، لا يكون إلا لأهل الله، بحسب وعاء كل منهم رضي الله عنهم، لا على وجه الإحاطة. فإن الإحاطة العلمية المجردة أو الإحاطة الذوقية برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممتنعة عن كل الخلق. والإمام في الطريق من غرف غرفة بيده من يده الشريفة. ووالله لو بَسط الكلامَ فيه صلى الله عليه وآله وسلم من غرف تلك الغرفة، لأدهش الأولين والآخرين فيه حتى يخرجهم عن حسهم. نقول هذا حتى تعلم العظمة التي يتصف بها صلى الله عليه وآله وسلم، وحتى تتأدب وتلزم العجز ببابه؛ فإن الأدب يأتي بما لا يأتي به غيره في حضرة المَلِك. فافهم عنا يرحمك الله، واعمل بما نشير عليك، فإنا لك من الناصحين.

واعلم أننا – إن شاء الله – في هذا الكتاب، سنسير بك بين مكامن الشرف، وبين ما يُطلب منك في مقابلها من تأس إن كانت مما يُتأسى فيه، وبين ما يُستدعى من أدب فيك تتخذه وسيلة إلى الحضرة المحمدية، على قدر وُسعنا وبحسب ما يسمح به الوقت.

واعلم أن الوحي كله ما جاء إلا ليدل على ذينك الوجهين: وجه التعرف، ووجه التشريع. فكن واعيا للكتاب والسنة بافتقارك إلى الله في السمع. فإنه لا يفهمك الوحي إلا صاحبه، ولا يؤتيك العلم إلا واهبه.

الفصل الأول

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]

قال المفسرون: إن العرب كانت تأخذ بعض أقوال أهل الكتاب وتأتي بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت الآية. والمقصود هنا الإضراب عن الأمثال المقولة والاكتفاء بمحض الحق الذي يليق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من منطلق السيادة التي له على جميع الخلق. فيكون معنى الآية كنهْي الله عباده عن ضرب المثل له في قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤]. وقد تولى الله بنص الآية رد المقولات فيه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحق، فكان أحسن تفسيرا من كل قول غيره.

واعلم أن كل الأقوال التي قالتها الأمم السابقة في أنبيائهم، هي أقوال في محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من حيث كونه صاحب المرتبة بالأصالة. وقد بينّا في كتبنا السابقة أن الأنبياء عليهم السلام، ما كانوا إلا نوابا في أممهم عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلذلك كانت كل العقائد السابقة في الأنبياء عائدة إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك تولى الله تصويبها بالحق. فيكون معنى قول الله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ [الفرقان: ٣٣]، هو: ما يقولون فيك من قول. ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي قلنا فيك ما يليق بك. ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي أولنا لك كلامهم على أحسن الوجوه. وذلك لأن كلام السابقين حق مخلوط بباطل. فالله ينفي الباطل ويثبت الحق منه؛ كما قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]. انظر هذه العناية الإلهية بالعبد

الأخص، وكيف تولى الله الكلام عنه. وفي هذا تنبيه إلى أن القول في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو قول في الله، في مرتبة أخرى. ولولا ذلك ما كان الله يعتني بهذا الأمر، على الوجه الذي ذكرنا. وهذا من مقام الجمع، وإن كانت الآية بلسان الفرق. والحكمة في خطاب الله نبيه بلسان الفرق في هذا الموضع، لتتمكن الغيرة من الظهور بحكمها. فالغيرة تقتضي المغايرة، وهي مشتقة من "غير". فكن عاقلا لمواقع الكلام! ولا شك أن الغيرة أكبر باعث على الرد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيعود تصويب العقائد المختلفة، بصواب الاعتقاد في الله. فانظر ما أبدع هذا النظام في الكلام!

ولنأخذ هنا كلام أقرب أهل الكتاب إلينا في رسولهم عليه السلام، حتى يكون مختصِرا لكل ما قيل في الأمم الأسبق، ومنبها إلى أصول هذه المسألة.

ولْننبه أولا إلى أن انصراف العامة عن أقوال النصارى من دون تدبر فيها، هو مما يليق بمقامهم، حتى لا تتشوش أذهانهم، فينشغلوا عن صالح العمل؛ أما خواص هذه الأمة، فلا ينبغي لهم ذلك، بل عليهم أن يعلموا لمَ قال النصارى ما قالوا، وما وجه الحق في أقوالهم، وما الباطل الذي دخل عليهم، ومن أين دخل. هذا لا بد منه لأهل القرآن، وإلا كيف سيكونون شهداء على الأمم؟ وهل تصح شهادة بغير علم؟ لا والله!

وقد حكى الله قول النصارى فقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة: ١٧]. مثل هذا القول عندنا، لا يصدر إلا عمن خالط أهل الحق فسمع بعض كلامهم ولم يكن منهم. فأراد أن يتشبه بهم بحكاية

أقوالهم، فظهر فهمه ومقامه بمجرد النطق بالألفاظ. ذلك أن أهل المعنى لهم علم بما وراء اللفظ، أما المقلدون فلا علم لهم إلا باللفظ. ومن هذه الحضرة يميز أهل الله بعضهم بعضا بمجرد سماع كلامهم؛ والناس لا يفطنون إلى ذلك.

لا شك أن النصارى ما قالوا مقولتهم حتى شاهدوا صفات الربوبية في عيسى عليه السلام، فعرفوا أن الله هو المتجلي في صورة عيسى. ولكنهم ما عرفوا نسبة الحق إلى الصورة، فجعلوا الحكم لها، وقيدوا الحق بها. وهذا مخالف للحقيقة! فكانوا كافرين من هذا الوجه. وعلامة كونهم على غير بصيرة في قولهم ذاك، هو نسبة المسيح عليه السلام بالبنوة إلى أمه، عند قولهم إنه الله. فهذا لا يستقيم، وصاحب هذا القول ليس من أهل الحق وإن ظن أنه يحكي أقوالهم. نقول هذا، حتى نستثني من الكفر طليعة النصارى (الحواريين ومن تبعهم) التي كانت على بينة من ربها فيما تقول. وقد صوب الله عقيدة هذه الطائفة، بتذكيرهم بقدرته سبحانه على إهلاك المسيح وأمه إن أراد. فما هما إلا صورتان من جملة الصور السماوية والأرضية والبينية. فالحكم للظاهر في الصورة، لا للصورة. وقصدنا بالحكم هنا هو حكم الألوهية لا سواها؛ فإن الأحكام التي دون الألوهية تكون للصورة. وهذا الخلط هو ما أوقع في الضلال كثيرا من الناس. وهذا هو ما كان عيسى عليه السلام يدل قومه عليه. وقد أثبت الله هذا من نفس السورة في قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]. فالشرك الذي حذر منه المسيح عليه السلام، هو الشرك بالصورة. فإنه من يقيد الله بصورة لا بد أن يميزه عن سواها، وهذا عين الشرك الذي ننبهك إليه. وبدعوته إلى عبادة الله ربه وربهم، فإنما كان يدعوهم إلى رب

كل الصور الواحد. والمقصود بالصورة هنا، ليس هو ما يُتعارف عليه بهذا اللفظ؛ وإنما هو ذات العبد المخلوق، المميزة له في العلم عن باقي المخلوقات. هذا، حتى لا تختلط المعاني؛ ويضيع الطالب.

أما المتأخرون من النصارى، فقد زاد بُعدهم عن الحقيقة، عندما أرادوا أن يجدوا تفسيرا فكريا، يحاولون فيه الجمع بين ما وجدوا عليه سلفهم وبين ما تقبله عقولهم. فقالوا بتجسد الله في المسيح، تعالى الله! فكان منهم شركا جليا، ما أبانوا فيه إلا عن جهلهم بالله ثم بعيسى عليه السلام. وقولهم هذا يدل على أنهم واقعون تحت تحكم الحس، لا يستطيعون منه انفكاكا. وجميع المجسمة من هذا الصنف.

فقارن الآن بين ما وقعت فيه هذه الطائفة من النصارى، وبين ما هم عليه أهل الله من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، إن كنت منهم؛ فإن لم تكن فتسلح بالتسليم. وتأمل قول الصّدّيق رضي الله عنه: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"[1]. وإياك أن تظن كما يظن الجاهلون أن أبا بكر لم يكن يشاهد الحق في صورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإلا فأين وجه التميز لديه رضي الله عنه عمن دونه. بل هو كان على علم بالمشهود وبنسبة الصورة المحمدية. فكان على بينة من ربه، وهداه الله ومن على قدمه صراطا مستقيما. فلا إفراط ولا تفريط. واعلم أن الله لو تقيد بصورة، لكانت صورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أولى من غيرها بهذا الشرف، ولكن الحقيقة تأبى الحصر. أما من بقي مع ظاهر كلام الصّدّيق رضي الله عنه، فهو ليس من أهل العلم الذين نخاطبهم هنا.

ثم يذكر الله عن النصارى قولهم أيضا: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ

[1] . أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، في كتاب المناقب.

أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]. يقصدون الآب والابن والروح القدس مما هو شائع من عقيدتهم. وهذا شرك واضح، أبانوا فيه عن جهلهم بالله وبنسبة الخلق إليه سبحانه. ولمثل هؤلاء يقول الله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٧]. ومن هنا علمنا أن الواحد ليس من العدد، بل هو أصله.

واعلم أن العامة عندنا، ليس من حقهم الاعتراض على النصارى وغيرهم، إلا باعتراض القرآن، وعلى الإجمال. وذلك لأنهم لا يدركون حقائق مقولاتهم ولا ما رد الله عليهم. وقد حذر الله عند مجادلة أهل الكتاب، أن لا تكون إلا بالتي هي أحسن. فقال عز وجل: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، سببها الحق الذي عندهم؛ أما استثناء الظالمين منهم، فالمقصود منهم الذين تجاوزوا الحق وغالوا في التنظير. وتذكير الله في آخر الآية بأنه سبحانه إله الجميع، لتراعى نسبته في الجميع. وهذا تحذير لمن ينظر إلى معتقدات أهل الكتاب كلها على أنها باطل، ويزعم أن ذلك من منطلق الغيرة على الدين. والشرع قد بيّن وقيّد، فكن ملتزما له تُكْفَ السوء.

فمن لم يعرف ما ادعته النصارى في عيسى، في (أي مِن) محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فما عرفه. ومن لم يميز بين المظهر والظاهر في محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ضل وكان من نصارانا، إن كان من المستشرفين. بل إن السالك على التحقيق يتطور في عقيدته حسب مشهده، فيمر بمعتقدات كل أهل الكتاب السابقين، من حيث اطلاعه عليها ذوقا. فإن شاء

الله له الكمال، التحق في النهاية بالمحمديين أهل الإطلاق عن كل مقام في عين كل مقام. يحدث له هذا كله في عين إسلامه، حتى لا يذهب بك الوهم بعيدا. وهذا من أخص الوجوه للدلالة على هيمنة الإسلام المحمدي على باقي الصور السابقة منه. ولقد حذر القرآن وحذرت السنة من اتباع الأمم السابقة في ضلالاتهم. والتحذير لا يكون إلا من محتَمَل الوقوع؛ بل وقوعه ثابت في حق بعض الأمة ولا ريب؛ وهذا من أصول افتراقها. فمن كان ذا نور ورجع إلى أقوال أئمة الفِرق، وجد الرابط الذي يربط كل فرقة بشبيهتها من الأمم السابقة. والكلام هنا يطول، وما قصدنا إلا التنبيه إلى مبادئه.

الفصل الثاني

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١]

الجمع بين الله ورسله بالواو، هو للدلالة على وحدة الوجود الحق. فالمسمى الله هو عينه الظاهر في صورة الرسول، كل رسول. وقد عد الله من يريدون التفريق بين الله ورسله، بحسب ما تعطيه عقولهم التي لم تتخلص من ظلمة طبعها، كافرين. الكفر هنا مقابل للمعرفة وليس للإيمان. بمعنى أن من شاهد الله ولم يشهد الرسول، فهو كافر للرسول؛ ومن شهد الرسول ولم يشهد الله، فهو كافر لله. وقولهم: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، أي نؤمن بأن مشهودنا هو إما الله بالنسبة إلى أهل الجذب، وإما الرسول بالنسبة إلى أهل السلوك. ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، حيث لا سبيل؛ أولئك هم الكافرون حقا، لأن الحق لا يتبعض. وإتيان الله بلفظ "ذلك" دون "ذينك" كما يقتضي السياق في العادة، هو للدلالة على هذه الحقيقة. ومن قال بالتبعيض، فقد قال بالجزء. وقد أنكر الله على هؤلاء في قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥].

وهذا المعنى الجمعي، يؤخذ على وجهي التخصيص والتعميم. فوجه التخصيص فيه، بسبب كون الرسل عليهم السلام، هم مظهر الاسم "الله"؛ ووجه التعميم، هو بسبب كون كل مخلوق وجها من وجوه الله؛ أي مظهرا لاسم من الأسماء الإلهية في الوقت. وبهذا المعنى

العام، فكل المخلوقات رسل الله. وما ينفي هذا أن يكون الرسول مبعوثا إلى رسول آخر، كما يرسَل رسول الملائكة إلى رسول الناس؛ بل ما في الوجود من حيث هذا المشهد، إلا رسل مبعوث بعضها إلى بعض؛ ليعرف البعض، وجه الله في البعض الآخر. وعلى هذا فلتأخذ قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣] . الخطاب لكل الناس، والمعنى ليس محصورا فيهم. وإنما ذلك لكونهم انحجبوا بأنفسهم عن الحق. من هنا جاء التخصيص. والخطاب جاء بنون الجمع إشارة إلى أن الأسماء المتعددة هي التي تولت خلق الناس من ذكر وأنثى. الذكر من حيث المعنى هو الحق، والأنثى هي الصورة. وجعل الناس شعوبا وقبائل، بسبب كونهم مظاهر للأسماء المتشعبة، وبسبب كون اجتماعهم وافتراقهم يعود إلى كون الأسماء إما من قبيل المتجانس، وإما من قبيل المخالف أو المضاد. كل هذا من أجل حصول المعرفة للبعض من البعض الآخر. وهذا نفسه ما عنينا بقولنا إن الكل رسل مبعوث بعضها إلى بعض. وبما أن الرسالة هنا معرفية على الخصوص، فإن أكرم الناس (الرسل) عند الله أتقاهم. الذين إن عرفوا لم يفشوا سر معرفتهم، وجعلوا عبوديتهم وقاية لربوبيتهم. وذلك لأن موطن الدنيا، موطن حجاب في حق العموم. فوجب مراعاة ذلك، موافقة للحق، لا خوفا من حدوث المعرفة لغير أهلها. فإن ذلك لا يكون إلا بالإذن. فإياك أن تتوهم!

وإن كل ما ذكرناه، يرجع إلى قسمين من العارفين: قسم يعرف الحق بنفسه، وهم المستشرفون من المريدين؛ وقسم يعرف الحق بالحق، وهم الواصلون المحققون.

فأما من يعرف الحق بنفسه، فكل ما في الوجود رسل إليهم من الله. يأتونهم بما كتب الله لهم، ويؤدون إليهم أماناتهم. وأما من يعرف الحق بالحق، فالرسل منهم وإليهم، وإن لم يظهر ذلك

لغيرهم. وما هم إلا برازخ بين مختلف النِّسب. ولولاهم ما تميزت الأسماء في عين الحق. وذلك أن الحق الصرف لا تمايز فيه. فافهم ما ندلك عليه، واعلم أن هؤلاء البرازخ هم آباء التجلي قِدما وحدوثا، ظهورا وبطونا. ولنمسك عن الكلام هنا، فإن هذا البحر لا ساحل له يُرجَع إليه. ونحن قصْدُنا أن نبقى على البر من أجل إثبات المعالم والرسوم، ومن أجل أن ندل على الحق، الموافقين والخصوم.

الفصل الثالث

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩]

إبراهيم عليه السلام، هو الصورة المحمدية في زمانه. هداه الله إلى حقيقته بحقه. والملكوت الذي أراه الله إياه، هو المعاني التي خلف صور السماوات والأرض. ليكون من الموقنين، الذين يعلمون العلم الحق، الذي به تزول الحيرة. فكل من لم يعلم هذا العلم، فهو على حيرة، وإن حكى أقوال العلماء، أو اعتمد طريق البحث النظري. ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ليل طبعه. ﴿ رَءَا كَوۡكَبٗا ﴾[الأنعام: ٧٦]، وهو التعين العدمي المسمى الثبوت. ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي هذه حقيقتي. فإنه ما يبحث عليه السلام إلا عن حقيقته. ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي فلما علم أصلها العدمي، ولى عنه لعلمه أن حقيقته وجود بالذوق. ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾[الأنعام: ٧٧]، القمر هو الكوكب المنير، الذي هو كناية عن استنارة عينه الثابتة بنور الوجود. لما رآها، علم أنها حقيقته الإمكانية الواقفة بين الحُكمين. فظن أن هذا الحكم هو حقيقته التي لا مرام

خلفها. ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧]، فلما لم يثبت هذا الحكم للحقيقة، رجع إلى الحق حتى يهديه في حقائقه، فإن الحقائق تعطي الحيرة التي هي الضلال؛ وذلك بسبب تجاذبها. ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾[الأنعام: ٧٨]، الشمس هي الحقيقة المحمدية. لما شاهدها، ظنها حقيقته، بسبب كبر دلالتها على الحق بالمقارنة إلى ما سبقها.﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٨]، فلما أفلت بسبب كونها محدثة، قال يا قوم، يعني بهم طلاب الحق الذين لا يزالون في الطريق، ولم يصلوا بعد؛ إني بريء مما تشركون من صفات بعين الذات. فهذا التوحيد، هو أعلاه، بحيث لا توحيد. وإذ لا توحيد فلا إشراك. ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، أي علمت أن ذاتي هي الذات الحق التي ظهرت بمظاهر السماوات والأرض. حنيفا: أي مستقيما، من غير التفات إلى صفات. وما أنا من المشركين، لأنه ما ثم غير أشرك به. فالشرك من حضرة الكثرة، وهنا لا كثرة؛ بل لا توحيد.

واعلم أن الشرك المتبرَّأ منه هنا هو شرك التوحيد كما أشرنا، لا الشرك المعروف عند العامة. وإن كان هذا الأخير من مظاهره في أدنى مرتبة له. وهذه المرتبة في التوحيد نُسبت إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه أول من أشار إليها. أما حقيقتها، فهي باطن الحقيقة المحمدية، الذي لا قدم لمخلوق فيه. فما وصل إبراهيم عليه السلام في سيره التحقّقي إلا إلى باطن محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فدعوة إبراهيم بلسان الاستدلال الذوقي هي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ينبه الخلق إليه ليعلموا مكانته ورتبته. وهذا نظير قوله عليه السلام في موضع آخر:﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وتنكير الرسول للتعظيم وعدم الاشتراك. فدعاء إبراهيم كان من أجل بلوغ النهايات في الكمالات، وإلا كان كل رسول داعيا إلى الله من حيث مرتبة مخصوصة. فاعلم بم تميز نبيك عليه وآله الصلاة والسلام، عن سائر الأنبياء، واجهد أن تكون تابعا له فيما اختص به دونهم، حتى تصح لك النسبة الخاصة، بعد أن صحت لك النسبة العامة.

أما فهم العامة في هذه الآيات فهو لا يليق بآحاد المؤمنين، فكيف بسيدنا إبراهيم عليه وآله الصلاة والسلام. فإياك أن تقيس كلام الله على ما يبلغه علمك، فتحجب عن الزيادة في العلم التي حض عليها الكتاب العزيز.

وهذا التوحيد هو الذي وصى به إبراهيم بنيه من الأنبياء حتى يرقبوه، وتسكن هممهم في مستواه. أما حض الله لنا باتباع ملة إبراهيم كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ ﴾ [النساء: ١٢٥]، فهو أمر باتباع الوجه المحمدي المسمى إبراهيم كما سبقت الإشارة. فلا تفرق، فيغيب عنك صحيح المعنى. ولو لم يكن هذا هو ما تُحمل عليه هذه الآية ومثيلاتها، ما صح أن ندعى إلى اتباع نبي غير نبينا؛ فإن ذلك سيكون إفسادا للتوجه إن كان. لكن لما كنا أمة سيد الخلق أجمعين، عليه وآله الصلاة والسلام، صح أن ندعى إلى اتباع صوره الفرعية من غير أن يقدح ذلك في الاتباع الأصلي له. ألا ترى إلى أولياء أمته عليه وآله الصلاة والسلام، كيف ينسبون في ميراثهم إلى الأنبياء عليهم السلام، كما ينسبون إليه عليه وآله الصلاة والسلام؟! فانظر إلى مراتب تجليات حقيقته كيف صبغت آي الكتاب، وانبثقت عنها التجليات التفصيلية في المراتب الخلقية. واعلم أن كل العلوم مما نعلم ومما لا نعلم، هي متعلقة بهذه المراتب والتجليات من حيث ما هي أصول أو

من حيث ما هي فروع؛ من حيث ما هي سماوية أو من حيث ما هي أرضية؛ من حيث ما هي شهادية أو من حيث ما هي غيبية؛ من حيث ما هي حسية أو من حيث ما هي معنوية. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الرابع

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

الأسلوب يفيد الحصر. ومحمد هنا هو المظهر الذي اسمه محمد، المعلوم لدى العموم، وليس حقيقة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. واشتراكه مع الرسل السابقين عليهم السلام، هو في هذه المظهرية؛ أما الحقيقة فلا تتغير. والمعنى أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لا يتعدى كونه رسولا؛ هذا حتى لا يقيد الناظر الألوهية به كما فعلت غيرنا من الأمم فضلت. فإن انعدمت الصورة المسماة محمداً بموتٍ أو بقتلٍ، فلا ينبغي لمن كان متبعاً له، ابتغاء وجه ربه، أن ينقلب على عقبيه. وذلك أن العبد عليه أن يكون مع الظاهر وليس مع المظاهر التي هي الصور. هذا بالباطن، أما من حيث الظاهر فلا ينبغي أن ينفك عن اعتبار الصور. فالصور كما سبق أن أشرنا في فصل سابق أو في غير هذا الكتاب عدميةٌ. ومن بقي معها، فما فارق العدم. والدليل على هذا من الآية هو قوله سبحانه: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فلو لم يكن الانقلاب انقلابا عن الله، الظاهر في صورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لم يصف الله المنقلب بالانقلاب على عقبيه. لأن المنقلب على عقبيه – قبل ذلك ضرورةً – كان متوجهاً بوجهه إليه في مظهر محمد. فالله الظاهر في الصورة يغار أن ينقلب عنه عبده عند تحولها. فإذا كان هذا مع المظهر الأكمل الذي هو محمد صلى الله

عليه وآله وسلم، فكيف بمن هو دونه من الرسل عليهم السلام أو من الورثة الكرام؟! أو بأي صورة على الإطلاق!

فإن فهمت هذا، فاعلم أن المصحوب في صورة الصاحب هو الله لا سواه. سواء علم ذلك الصاحب أم لم يعلم. وليعلم الصاحب أنه إن كان مع الله في صورة مصحوبه، سواء أكان نبياً أو وارثاً، فقد حُفظ من الانقلاب عن الله بفضله. أما من كان مع الصورة، كما نرى ذلك عند كثير ممن ينتسب إلى الطريق، فإنه يُخاف عليه أن يكون من المنقلبين المنقطعين. والبقاء مع الظاهر عند فقد المظهر المخصوص، يكون بالرجوع من الصورة المقيِّدة إلى الإطلاق. وانظر كيف ختم الله هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وتأمل كيف جعل الله البقاء معه سبحانه (مع الصورة أو بدونها) من الشكر له. فهذا يؤكد أن المصحوب هو الله! وجزاء الله لهؤلاء الشاكرين الباقين على العهد الأول، هو إبقاء صفة مصاحبة الحق لهم على كل حال؛ أو تأهيلهم فيما بعد ليكونوا مظهراً له سبحانه. ونعني بالمظهرية هنا مظهرية التخصيص، التي من ضمن مقتضياتها الخلافة والدلالة عليه سبحانه.

فإذا علمت ما قلناه، فعليه فاحمل معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل »[1]. وافهم الحديث على وجهي الظاهر والباطن حتى تتبين حكم كل منهما. فالسفر، سلوك الطريق. وليس المصحوب فيه إلا الشيخ. والخلافة في الأهل، هي المكنى عنها بالوصول. فالخلافة لا تحصل إلا بعد قتل الغاصب الذي هو النفس، التي كانت مستولية على الأهل الذين هم رعايا المملكة الإنسانية.

والآية التي تناولناها خرجت من حضرة الغيرة الإلهية. ذلك أن الله، لا يريد أن يجهله عباده بعد أن عرفوه. ومن جهله سبحانه بعد معرفته، فما عرفه حق معرفته.

---

[1] - رواه مسلم.

الفصل الخامس

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة: ١ – ٥]

ثاني سورة بعد الفاتحة هي سورة البقرة. وقد سبق لنا الكلام عن الفاتحة ضمن كتاب "تحقيق معنى الصلاة"، كما سبق لنا الكلام أيضا عن البسملة ضمن الفاتحة. لذلك نمر مباشرة إلى أول البقرة. ولنبدأ بما بدأ به الله، وهو الحروف: ألف لام ميم. وقبل ذلك، علينا أن نعلم أن القرآن أنزل ليتعرف الله به إلى عباده. فمن لم يعرف ربه في القرآن فما قرأ القرآن على التحقيق. وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسيره لقول الله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فقال: إلا ليعرفون. فحَصْرُ الخلق في التعرف هو نفسه حصر تنزيل الكتاب. والعبادة متحققة لجميع المخلوقات؛ فإذن تحققت المعرفة لجميعهم. الفرق، هو أن من سبل المعرفة ما هو مشروع، ومنها ما هو غير مشروع. والسبيل المشروع هو المورث للسعادة دون غيره. فإياك أن تغتر! ثم إن من المعرفة ما هو كامل، ومنها ما هو ناقص وجزئي. ولعلنا نعرض لهذا بتفصيل أكثر في موضع آخر. ولنعد إلى الحروف التي استُهلت بها سورة البقرة.

فالألف هو أحدية الذات، التي هي أعلى تعقلاتها. فليس بعدها إلا الغيب الذاتي، الذي هو غيب الغيب. وهذا لا يتعلق به إدراك. أما الأحدية فتدرك، ولا يكون إدراكها إلا إجماليا. ونعني بالإجمال هنا البساطة والسذاجة، لا إجمال التفصيل. أما الميم – نعني رأسها – فهي دائرة؛ والدائرة هي تقدير أساسه المركز الغيبي. والتقدير لا يكون إلا عدما منزلا في صورة خيالية. وما هو إلا الوجود الممكن بجزأيه: العلوي (السماوي)، والسفلي (الأرضي). إذا علمت هذا، علمت اللام المتصلة بالميم. فاللام إذ ذاك هي صورة الألف المتعلقة بالأكوان، وليست إلا الصفات المتجلية في الأسماء الإلهية. فلولا أنها تطلب الأكوان بأعيانها، ما ظهر للمخلوقات وجود. فاللام بهذا الاعتبار برزخ معقول بين الوجود الحق، والوجود المخلوق. أو قل بين واجب الوجود، وبين الوجود الممكن. ودائرة الميم، هي ألف اتصل طرفاها على تمام الاعتدال. حتى لا يتوهم متوهم وجودا مستقلا للمخلوقات عن الحق. فما في الوجود إلا الوجود الحق، بغض النظر عن مراتب الوجود التي قد تكون حقيّة أو خلقية. أما غيب الذات، الذي هو باطن دائرة الميم، فهو عدم من حيث التجلي. بمعنى أنه لا يتعلق به إدراك كما قلنا سابقا، سواء أكان علميا مجردا، أو صوريا، خياليا أو حسيا. أما تقدير مركز الدائرة، فهو من كون العقل يُمكنه إسناد وجود المخلوقات إلى موجد، من غير أن يتجاوز ذلك إلى معرفة حقيقته؛ فإن ذلك لا يحصل إلا بتعريف الحق وحده سبحانه. أما تدلي الميم في خط مستقيم إلى الأسفل، فهو صورة للألف مقلوبة؛ وما تلك إلا العبودية، وباطن العبودية ربوبية. فعاد الأمر كما بدأ. وإلى هذا المعنى الإشارة بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « لو أنكم دَلَّيْتُم رجُلاً بحبلٍ إلى الأرض السفلى لهبط على الله »[1]، وإليه الإشارة أيضاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربّه وهو ساجد، فأكثروا

[1] - أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه وعبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي.

الدُّعاء »[1]. من هنا يظهر أن المراد من خلق الخلق هو معرفة الحق، ومن هنا يظهر أيضاً أن كل المخلوقات قائمة بالحق الذي هو هنا الألف كما سبق أن بيّنّا. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾: الإشارة بـ "ذلك" إلى ما سبقها وهو ألف لام ميم. فـ "ألف لام ميم" هي الكتاب. ولام البعد في "ذلك" هي للعزة. ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ : الريب هو الشك، والشك لا يتعلق إلا بالممكن. والكتاب واجبٌ من حيث الحق ومن حيث الخلق. ونعني بكونه واجباً من حيث الخلق أن الخلق واجبٌ بالحق؛ لذلك لا يتعلق الشك به. ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾: التقوى بمعنيين عام وخاص: فأما العام فهو اتقاء المخلوقات بالحق من عدمها الأصلي؛ وأما الخاص فهو اتقاء الحق بالصور العدمية عن شهود غير العارفين. والهدى هنا هو الهداية إلى الحق المتجلي في المراتب الحقية والخلقية. ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾: الغيب هنا هو الحق المستتر بالصور العدمية. والإيمان به هو شرط سلوك الطريق إليه، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: الصلاة هنا هي تحقيق الصلة بالحق علماً وشهوداً بعد تحققها وجودا. ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾: أي يدلون غيرهم على الحق بعد التحقق به. ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾: أي يؤمنون بكونك (والخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم) المظهر الجامع فيتوجهون إليك في طلبهم للحق. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾: ويؤمنون بكون المظاهر الرسولية السابقة لك في الزمان هي مظاهر فرعية لك. وهذا معنى الترتيب في الآية. ونعني بالترتيب ذكر الإنزال القبلي بعد الإنزال على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ففي هذا الترتيب إشارة إلى الحقائق السابق ذكرها. ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾: الآخرة في الإشارة هي النشأة الآخرة، والمراد بها النشأة

[1] - أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحقية التي تكون للمحققين بعد تحقق وصولهم إلى الحق. فالذي لا يوقن بإمكان التحقق بالحق من نفسه، مستبعدٌ أن يكون من أهل هذه المرتبة؛ وهذا يعود إلى استعداد كل أحد. فمن الاستعدادات ما يعطي هذا الإيقان ومنها ما لا يعطيه. والموقنون بإمكان التحقق هم من جاء فيهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ : فأول الهداية إلى الحق خطورها في الذهن. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ : فلاح البداية كناية عن فلاح النهاية الذي ليس إلا الظفر بالحق. فلا فلاح عندنا إلا هذا، وكل فلاح سواه إنما هو فلاح تابع له في المرتبة، علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

وتخصيص سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإنزال الكتاب، هو بسبب كونه العبد الكلي والخليفة الإلهي بالأصالة. وهذا هو معنى الختمية عنده صلى الله عليه وآله وسلم. وبهذا كان هو الباب الأعظم المفضي إلى الحق، بخلاف باقي الرسل عليهم السلام أو الورثة الذين هم أبواب تفضي إلى بابه فحسب. وإن شئت قلت: هو السيد المشار إليه، وهم الخدم القائمون بين يديه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه.

الفصل السادس

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤]

يتحدث الناس عن الولاية، فيختلفون فيها، فمن قائل بمعنى الولاية العامة، ومن قائل بمعنى الولاية الخاصة. الولاية بمعنى القرب، والقرب الذي لعامة المؤمنين معلوم، لكن الذي لخاصتهم هو الفناء عن القرب بمعنى انتفائه. و"ولي" اسم مفعول مِن "وَلِيَ"؛ فيكون الولي هو من تولاه الله؛ أي صار له بديلا عن نفسه. وهذا غاية القرب الذي تكلمنا عنه. ومن كان وليا بالمعنى الخاص، فإنه لا يخاف ولا يحزن. لا يخاف لأنه ما ثم ما يخاف غير نفسه؛ ولا يحزن، لأنه ما فاته شيء بتحصيل الولاية. وقد ذكر الله هاتين الصفتين السلبيتين الواردتين بأسلوب النفي، ليدل على أن الولي صفاته وجودية، من صفات مولاه. ولا تنس هنا أن الاسم "الولي" مشترك بين الرب والعبد. والذي دللناك عليه من حيث الصفات، هو معنى الاشتراك. فافهم!

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾: آمنوا عند خواص الأولياء تكون بمعنى كمال الإيمان؛ بحسب ما يليق بالموطن الذي هو الدنيا. وكانوا يتقون، عدمهم بوجودهم، حالا ومقاما. وإن كمال الإيمان مع التقوى، بمثابة السبب لما ذكر سابقا من عدم الخوف والحزن.

فالارتباط بينهما ارتباط السبب بمسببه. والترتيب الوارد في الآية، يدل على التفصيل، تفصيل السابق باللاحق.

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾: تحقق كمال إيمان الأولياء، مع تقواهم بالمعنى المذكور سابقا، هو نفسه البشرى التي أثبتها الحق لهم. فالبشرى نتيجة ما تحققوا به، فهي حالهم. أما ربط البشرى بالدنيا والآخرة بالنسبة إلى الخواص، فهو لتمييزهم عن عامة الأولياء؛ لأن هؤلاء لا يذوقون ما يذوق السابقون إلا في الآخرة. بمعنى أن الخواص تكون دنياهم بمثابة آخرة غيرهم. فافهم!

وهذه البشرى، هي نفسها المذهبة للخوف والحزن. فكأن الله يدل على ماهية الولاية بأسبابها ونتائجها، صيانة لها أن يخوض فيها من ليس من أهلها.

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: عندما يسمع الناس عن الولاية، تشرئب إليها نفوسهم لما فيها من تحقيق للرئاسة عند المتوهمين؛ ويريدون معرفة الأسباب الموصلة إليها، حتى يتبعوها وإن كانت من أشق ما يُتّبع. فقطع الله عليهم هذا التوهم بهذا القول، ليُعلمهم أن الولاية لا تُنال إلا بسابق العناية. أما الأسباب فلا طريق إليها منها، بسبب عزة مكانتها. إذا فهمت هذا، فهمت أن الولاية اختصاص كالنبوة. ولا تُحجب، بما يتكبده الأولياء من مجاهدات ورياضات قبل تحققهم بالولاية، فتظن أنها كانت نتيجة لما سبقها. بل إن اختصاص الله إياهم بالولاية في سابق علمه، هو ما استدعى تلك الأحوال منهم، حكمةً إلهية.

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾: لام البعد في اسم الإشارة، دلالة على بعد المكانة في الرفعة. و"الـ" في الفوز هي للعهد. فالفوز العظيم وحده هو هذا، لا غيره؛ وكل فوز آخر، هو دون هذا الفوز. ومن عرف معنى الولاية، عرف لِمَ كان هذا الفوز أحدِيّ المعنى.

المعنى الذي أوردناه للولاية خاص، ولكنه يتضمن المعنى العام، لذلك لم نكلف نفسنا التفصيل في كل ما سبق، ولعل فيما سنورده من الأحاديث النبوية في تفسير الولاية، ما سيشير إلى المعنيين معا.

فقد روي عنِ ابن عباس رضي الله عنهما، قيل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الذين إذا رؤوا ذكر الله»[1]. فالحديث يبيّن هنا علامة تحقق الولاية الخاصة، والتي هي ذكر الله عند رؤية الولي. وما ذلك إلا لأنه أصبح هو نفسه ذكراً. وقد تكلمنا عن هذا المعنى في كتاب "المنهاج القويم". والمعنى الذي نشير إليه، لا يُدرك من اللفظ إلا توابعُه؛ أما حقيقته فلا يعلمها إلا الخواص. وكل ما قيل في تفسير هذا الحديث وأمثاله من علماء الظاهر، فإنما هو حجاب عن المعنى الحقيقي؛ ولا ينم إلا عن مقام أصحابه.

وفي الحديث الآخر، عن أَبِي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من العباد عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم قوم تحابّوا برُوح الله على غير أموال ولا أنساب. وجوههم نور يعني على منابرَ من نور، لا يخافون إن خاف الناس، ولا يحزنون إن حزن الناس. ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]»[2]. فأما غبط الأنبياء عليهم السلام لهم، فبسبب التكليف المنوط بالنبوة وما يتبعه من حرص على الأقوام. والأولياء مُعفَون من كل ذلك؛ وليس المراد أنهم أعلى منهم رتبة، هذا هو اللائق؛ وأما غبط الشهداء، فهو لكون الأولياء حصلوا رتبة أعلى من مرتبتهم، وهي الصّدّيقية. والترتيب جلي في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

[1] ـ أخرجه النسائي في السنن الكبرى والبزار في مسنده وابن أبي حاتم في تفسيره.
[2] ـ أخرجه النسائي في السنن الكبرى والبيهقي في شعب الإيمان وابن حبان في صحيحه.

وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩]. فلما سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لم يجب بذكر حقيقتهم، وإنما أحال على صفاتهم، والتي منها:

* أنهم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال ولا أنساب. يدل على أنهم ربانيون متحابون. بخلاف غيرهم رضي الله عنهم، فإنه يتسرب إليهم الشقاق والفرقة وإن كانوا على علم لساني. وما نذكره من هذه الصفة، مشهور منهم على مر الأزمان. وتأمل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «بروح الله» تعثر على سر ائتلافهم وتحابهم. أما الأموال والأنساب فهي من معايير العامة، وهم أعلى رتبة منهم بلا خلاف. ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، حتى لا تختلط عليك المراتب، وحتى لا تتبع الصورة الظاهرة من الائتلاف وحدها، من دون اعتبار للمعيار النبوي.

* أن وجوههم نور. الوجه هنا: الذات. فذواتهم رضي الله عنهم نورانية، قد تخلصت من الظلمة الأصلية. على منابر من نور، للمناسبة. فهم في الحقيقة مظاهر من النور الحقّي المطلق. فما ناسبهم إلا الظهور على منابر من نور، خلافا لمن عداهم ممن ليست لهم هذه المرتبة.

* أما كونهم لا يخافون ولا يحزنون، إذا خاف الناس وحزنوا، فقد تكلمنا عن أصله فيما مر.

فالولاية على التحقيق، لا يعلمها إلا الأولياء، أما غيرهم، فأقوالهم متضاربة مختلفة، تارة تقارب صفاتهم، وتارة تجهلها. وأغلب العامة، لا يرونها إلا الدوام على ظاهر الطاعة أو حصول الكرامات الحسية. وكلٌّ يتكلم من مقامه.

وإنك تجد من علماء الظاهر، تحرجا في تعريف الولاية، فيخرجون بها إلى ما يمكن أن يشملهم من الصفات والشروط، وكل ذلك هو من اتباع الهوى وعدم الرجوع إلى الوحي في معرفتها.

أما الأولياء، فإن صرحوا بها، أنكرها عليهم الخاص والعام؛ وإن أشاروا إليها، فما يفهم عنهم إلا من يكون من طبقتهم، أو من المستشرفين من تلاميذهم. لذلك بقيت الولاية مجهولة على مر الزمان.

أما من تكلموا عن كرامات الأولياء وأحوالهم، فكلامهم يلحق بالصفات التي قد يتلبس بها الولي، أما حقيقة الولاية فما تكلموا عنها إلا من وجهها العام المشترك. هكذا هو الأمر، فلا تختلط عليك المعاني!

واعلم بعد هذا أن كل ولاية هي فرع عن ولاية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فهي دالة عليها دلالة الأشعة على الشمس. وإذا كانت الولاية مجهولة لغير الولي في المراتب الدنيا منها، فما قولك في ولايته صلى الله عليه وآله وسلم؟!

من هنا تعلم أن الأولياء ما علموا من ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا ولايتهم هم، وبقي ما يخرج عنها مجهولا لهم، لا يُمكن أن يُدركوه إلا إيمانا فحسب.

الفصل السابع

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾
[النور: ٥١]

"الله ورسوله" ورد في هذه الآية وفي غيرها بصيغة هي كالاسم المركّب. والدليل على هذا، أن الله بعده أفرد في الكلام فقال سبحانه: "ليحكم"؛ وما قال: ليحكما، كما يقتضيه السياق لو كان المذكور اثنين. وقد جاء عن عَدِيِّ بن حاتم، أن رجلا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بئس الخطيبُ أنتَ؛ قل: ومَن يعص الله ورسوله»[1]. فأكد هذا النهي النبوي ما نذهب إليه. وهذا من التوحيد الواجب مراعاته، بحسب ما يدل عليه الشرع؛ لا بحسب ما يعطيه الفكر وتعطيه اللغة في العادة. وهذا المعنى، وإن كان يصح من حيث الحقيقة والباطن لكل مظهر في الوجود، فإنه خاص بنبينا عليه وآله الصلاة والسلام، من حيث الباطن ومن حيث الظاهر معا؛ بسبب كونه عليه وآله الصلاة والسلام المظهر الأعم الأوحد لقيومية الحق. ومن هذا المستوى، كان صلى الله عليه وآله وسلم ربا للعالم (مربيه)؛ كما ذكر ذلك الشيخ الأكبر قُدس سره، حيث قال: "فهو عبد الله ورب بالنسبة للعالم"[2]. وذلك لأن العالم –كما سبق أن أشرنا في غير هذا الموضع– لا يعرف الله إلا منه صلى الله عليه وآله وسلم، إيمانا وعيانا. وقد جهل المحجوبون من أهل الشريعة هذه الحقيقة، فظنوا أنهم

---

[1] . أخرجه مسلم.
[2] . رسائل ابن العربي، كتاب نقش الفصوص، ص: ٣٩٤.

يعرفون الله من خارج مظهره صلى الله عليه وآله وسلم. وما هو إلا الوهم، يُسعفهم في إبراز عقائدهم في صور يرتضونها؛ أما الحق الذي نزل به الوحي من عند الله، فهو ما ندلك عليه، إن كنت ممن يحتمله. ونعني بالاحتمال تنور باطنك، لأن النور لا تحتمله الظلمة؛ فافهم! من هنا، كانت طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هي عين طاعة الله؛ ومعصيته هي عين معصية الله. أما المتوهمون، فيظنون أن طاعة رسول الله متفرعة عن طاعة الله؛ وهو الحق، لكن بحسب مقامهم الفرقي الذي هو عند أهل الله شرك أصغر كما هو معلوم.

ومن هنا أيضا، كان الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم أدبا مع الله؛ أي هو نفسه الأدب مع الله؛ على نفس ما تقدم من كلام في الطاعة والمعصية. وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [الحجرات: ١]، فجمع؛ ثم فرق حيث جاء ذكر الصفات الخلقية التفصيلية، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]. فلما جاء ذكر هذا الفرق بعد الجمع، علمنا أنه للتفصيل في الكلام. نعني أن حضرة الجمع حضرة إجمال، أما حضرة الفرق فهي حضرة تفصيل. والتفصيل يكون في المجمل لا خارجه، كما قد يتوهم المتوهمون. وكل هذا، إنما هو عائد إلى النِّسب المختلفة في العين الواحدة.

ومن هذا المشهد قال بعض أهل الله: الحضرة المحمدية أوسع من حضرة الحق. وقد يظن المحجوب أن هذا القول فيه تنقيص من قدر الله سبحانه، بحسب ما تعطيه الألفاظ في أذهان العامة، والأمر على عكس ذلك، هو موافق للعلم. وذلك أن الحضرة المحمدية حضرة جمع بين حق وخلق، لذلك فهي أوسع؛ أما حضرة الحق التي هي الأحدية المحض، فلا ذكر للخلق فيها. والعلم يُعطي أن حضرة الجمع أوسع، لأنها تشمل المعلومات مما سوى الحق،

كما بيّنّا. ولولا هذه الحضرة المحمدية ما كان ظهور لشيء من المخلوقات. لذلك تكلم أهل الله عن افتقار ظهور الموجودات إلى نور نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في شعرهم ونثرهم. من ذلك ما قاله البوصيري في بردته:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقد استعظم قوم مثل هذا الكلام، لما كانوا جاهلين بالوحي؛ وردّ مقامهم الحجابي ما فوقه من الحق. وما تنبهوا أن الخلل عندهم، لا عند القائل. ومثل هذا كثير! حتى أنك تجد منكرا لبعض دون بعض، بحسب المراتب كلها التي للعباد . وقد وجدنا ممن يقبل بعضا ويرد بعضا الحافظ المغربي عبد الله بن الصدّيق الغماري رحمه الله، في مكتوب له بعنوان: "تصحيح لأبيات من قصيدة البردة". فهو بعد أن قبل البيت المذكور آنفا، ووجد له مسوغا شرعيا، ردّ قول البوصيري رضي الله عنه في هذا البيت:

وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم

والحق ما قاله البوصيري، ولكن مقام الناظر حاكم عليه؛ فتجده يقبل ويرد بحسبه، وهو يظن أنه يقبل ويرد بالعلم. ولو تفطن الناس إلى هذا الأمر لكُفوا شرا كثيرا، ولكن المشيئة أبت إلا ما ترى. ولسنا هنا في معرض الرد على المنكرين، حتى نستفيض في الكلام عن هذا البيت؛ وإنما أردنا أن ننبه إلى أمر الإنكار وسببه فحسب.

وبسبب ما ذكرناه من حضرة الجمع المحمدية، كنا قد أشرنا في بعض كتبنا إلى أن العارف بالله ما يعرف إلا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، سواء علم ذلك أم لم يعلمه. وما نعني بعدم العلم هنا، إلا كونه قد يغفل عن هذه الحقيقة إذا أعطاه الشهود غير ذلك بحسب الوقت؛ وإلا فالعلم بهذه الحقيقة لازم في المعرفة؛ نعني معرفة الراسخ لا معرفة المبتدئ. فانظر ما أشد حاجتنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!

الفصل الثامن

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]

بسبب كونه صلى الله عليه وآله وسلم الواسطة بين الله والخلق، أمرنا الله بالصلاة عليه؛ حتى تكون هذه الصلاة وسيلتنا إلى الحق. فإن الحق هو المقصود لا سواه! لكن، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ كما هو مقرر عند الأصوليين.

وتقدير الآية: إن الله يصلي، وملائكته يصلون على النبيء؛ لكن بما أن صلاة الله على النبي صلى الله عليه وآله وسلم غيب لا يطلع عليه مخلوق سواه، فقد حُذف الفعل لفظا مع بقائه معنى. وبما أن الصلاة صلة، فإن هذه الصلة في هذا المستوى لا قدم لمخلوق مما دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها. وهذه هي الخلوة النبوية، التي ليس للناس حيالها إلا الإيمان. أما أهل الله فإن لهم ذوقا منها عند فنائهم في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لكن على قدر كلٍّ منهم، لا على قدره صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإنه لا يُطيقه أحد حتى يثبت له. ولقد عنينا بأهل الله هنا الأنبياء عليهم السلام، وكمل الأولياء. فهذه صلاة الله ثابتة والحمد لله. أما صلاة الملائكة، فهي من حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم إلى بشريته. وهذه صلاة إمداد وإفاضة، بخلاف صلاة الله التي هي تجلٍّ ذاتي. وقولنا عن صلاة الملائكة إنها من حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم، هو بسبب كونهم عليهم السلام من بعض تفاصيلها، كما هو حال كل الموجودات. أما سبب صلاتهم، فهو لمراعاة تقييد البشرية ووقوعها تحت حكم

الطبيعة؛ فكانت هذه الصلاة، إظهارَ ما في إطلاق الحقيقة في المظهر البشري الذي هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذه الصلاة ثابتة أيضا، ولله الحمد.

أما الصلاة التي أُمر بها المؤمنون، فهي صلاة أخرى كما سنرى.

ولا بد في البداية أن نذكر أن صلاة الله وصلاة الملائكة، هي صلاة تنزّل وتدلٍّ؛ أما صلاة المؤمنين، فهي صلاة ترقّ. والمراد من هذه الصلاة –كما سبق أن ذكرنا– هو تحقيق الوصلة بالله التي هي غاية التدين الأولى. ولقاء المؤمن ربه كما هو واضح، لا يتأتى إلا فيه صلى الله عليه وآله وسلم. وأول قدم في هذا الترقي المطلوب، هو الإيمان بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم، أي كونه المخبر الأوحد (بالأصالة) عن الله. أما من سواه من الأنبياء عليهم السلام، فهم مخبرون بالنيابة؛ لذلك لا يصح من أتباعهم ترقّ بعد مبعثه عليه وآله الصلاة والسلام، إلا بالإيمان به؛ لأن حكم النائب يرتفع عند مجيء من استنابه، كما لا يخفى عن عاقل. ومن هنا جاء قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر رضي الله عنه لما قدم عليه بكتاب من عند بعض أهل الكتاب: «لو كان موسى حيّا اليوم، ما وسعه إلا أن يتبعني»[1].

وكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، محل لقاء الرب بعباده المعبر عنه بالوصول عند أهله، هو ما استدعى أن يكون اسمه صلى الله عليه وآله وسلم محمدا. ذلك أن المحمد هو المحمود بصيغة المبالغة؛ وسببه أنه عليه وآله الصلاة والسلام، محمود من الحق ومحمود من الخلق. محمود الحق، لأنه مظهره ومجلى أسراره؛ ومحمود الخلق، لأنه مُرجعهم إلى ربهم بعد أن نزلوا من الطبيعة في أسفل سافلين.

وقد ذكر الله هذه المعاني من سورة التين فقال سبحانه: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ ﴾ [التين: ١]: يقسم سبحانه (من باب الإشارة) بإجمال ذاته وتفصيلها؛ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾ [التين: ٢]: وهو

[1] . أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن أبي شيبة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

محل التجلي، وليس إلا الحقيقة المحمدية؛ ﴿ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ ﴾ [التين: ٣]: وهو المؤتمن على كل هذه الأسرار، وليس إلا ذاته –صلى الله عليه وآله وسلم–البشرية الطبيعية. وقسمه سبحانه بهذه المراتب من حيث هو، لا من حيث هي. ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ﴾ [التين: ٤]: المقصود بالإنسان حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم، التي هي مظهر الخلافة العظمى. وهذه المرتبة ما فوقها مرتبة خلقية، لذلك وصفها الله بـ"أحسن تقويم". ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ [التين: ٥]: المقصود هنا أفراد الإنسانية الذين هم لـ"الإنسان"، كالصور المتعددة المختلفة. وأفراد الإنسانية لا أحط منهم، بسبب كونهم آخر مولد طبيعي، في آخر مرتبة وجودية. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ ﴾ [التين: ٦]: المستثنَون، هم أهل الإيمان الذين فُتح لهم باب الترقي؛ فهؤلاء لا مانع لهم من الرجوع إلى الأصل الذي هو كما قلنا الحقيقة المحمدية، إذا توافر الاستعداد. وبلوغهم إلى هذه الذروة هو المعبر عنه بـ"الأجر غير الممنون"، أي غير المنقوص؛ لكن هذه المرتبة تكون على قدر كل راجع، لا على قدر الإنسان الكلي، كما سبق أن بيّنّا. ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ ﴾ [التين: ٧]: الخطاب للإنسان المكذب أو المحتمل منه التكذيب؛ وذلك لأن الرجوع إلى الأصل، سفر منطقي بعد أن تحقق الصدور. بمعنى أن إدراك الوجود لا يتم للعبد حتى تكتمل دائرته، ويلتحق سفله بعلوه؛ فيكون صورة لمن عنه صدر على قدره. ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾ [التين: ٨]: بإعطاء كل مرتبة حقها، وكل نازل من النازلين فيها حقه؟ وإذا كان الإنسان الكلي (الحقيقة المحمدية) إجمال التجلي الإلهي، فإن الإنسان الفرعي (كل فرد من الناس) هو نهاية التفصيل في هذا التجلي. فسبحان من منه المبدأ وإليه المعاد.

فإذا علمت ما سبق، فاعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي المعراج الذي يرتقي عليه المرتقون؛ لذلك نصح أئمة التربية المريد بالمداومة عليها إن لم يجد شيخا يأخذ بيده. أما إن وجد الشيخ الرباني، فليعلم أنه هو صلاته، فليتمسك به حتى تتحقق وصلته. واعرف قدر كل أمر واعمل عليه، فإن الله يحب من عباده أن يكونوا حكماء في معاملته.

الفصل التاسع

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]

الدعوة إلى الهدى، هي الدعوة إلى الإبصار نفسِه. ومن لم يسمع الدعوة ويهتم بها، كيف يُرجى أن يتحقق له الإبصار؟

والهدى هو الدين، وهو نظير شرط الإيمان في الفصل السابق. ومن لم يأت من الباب، فلا يطمع بالدخول. والكلام في "تدعوهم" يعود على أهل الشرك الأكبر من عبدة الأوثان والكافرين من أهل الكتاب الذين لم يقبلوا دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما نزل عليه من الوحي الذي هو مُتعلّق السمع؛ كما يعود على أهل الشرك الأصغر من أمته صلى الله عليه وآله وسلم، الذين حجبهم التدين والعمل لأغراض الآخرة عن الإقبال على الله.

وقد أثبت الله لصنف المشركين النظر، ونفى عنهم الإبصار الذي هو روحه. فأهل الشرك الأكبر نظروا إلى بشرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحُجبوا عن خصوصية النبوة ولم يُبصروها؛ وأهل الشرك الأصغر، نظروا إلى الوظيفة الرسالية منه صلى الله عليه وآله وسلم، وحُجبوا عن الحق المتجلي فيه.

فهذه الآية دعوة من الله إلى الفريقين بالإقبال عليه سبحانه، وإن كانت دلالتها في حق الخصوص أوضح. كيف لا، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم المظهر الأتم للحق، ووجهه الذي به واجه الخلق! وكيف تكون حسرة من ينظر إلى الحق وهو لا يُبصره؟! وهل الغاية من خلق الخلق إلا ظهور الحق؟!

والأسلوب الذي وردت به الآية، يدل على إنكار الحق على الغافلين عدم سمعهم وعدم إبصارهم، تنبيها لهم إلى الغاية من خلقهم والغاية من تدينهم. ووضح سبحانه أن الأمر بين سمع مفض إلى الإيمان، وإبصار بالبصيرة محقق للعيان.

فأصحاب السمع، هم عامة المؤمنين الذين يتلقون الإخبار عن الله بالتصديق. وبما أن التصديق متفاوت بين الناس، والوعي في السمع أيضا متفاوت، فإن أهل هذه المرتبة هم أهل اختلاف كثير في العقائد. فكلٌّ مُثبت لما بلغه إدراكه، نافٍ لما قصر عنه. أما أهل البصر هنا، فلا اختلاف بينهم إلا في درجات وضوح الإبصار؛ لذلك لا تجدهم مختلفين أبدا. وقد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا الأصل في المعرفة في قوله:«ليس الخبر كالمعاينة»[1] ؛ أي: ليس من سمع عني كمن رآني.

وهذا الإبصار، مشترك بين أفراد الأمة عبر الأزمان، وليس محصورا فيمن عاش في زمانه عليه وآله الصلاة والسلام من الصحابة؛ وإلا كانت فرص المعرفة عندهم أكبر من غيرهم ممن أتى بعدهم. والحق أن الفرص هي نفسها لدى الجميع، إن توافر الاستعداد. ولولا هذا، ما ظهر في الأمة من كبار الأولياء العلماء بالله من ظهر.

وقد جعل الله من رحمته المظهر المحمدي مرآة لصفاته، حتى يتمكن الخلق من مشاهدتها؛ وإلا ما أطاقوا الثبات لها، وانمحوا بسطوة النور من صفحة الظهور. وقد ذكر الله هذا المعنى فيما حكاه عن موسى عليه السلام، فقال سبحانه:﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: الميقات، هو موعد اللقاء، وليس إلا الحقيقة المحمدية من حيث المكانة، وإن كان في الظاهر جبل الطور من حيث المكان؛ لأنه لا لقاء بين العبد وربه إلا فيها كما ذكرنا في فصل الصلاة على النبي. ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: كلمه منها، أي من وراء صورتها؛ فكان صاحب

[1] . أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم في المستدرك.

سمع لا إبصار. فاشتاق إلى الإبصار فسأل: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف: ١٤٣] ؛ أي من حيث جاء الخطاب. فكان موسى هنا كعامة المسلمين من الأمة المحمدية، الذين آمنوا بما جاءهم من الوحي. ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، من هذه المرتبة، لأن دائرة السمع أوسع من دائرة البصر، لذلك يبقى من العلم ما يتعلق بالسمع حتى مع تحقق الإبصار. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، الجبل كناية عن الموجود، فهو حقيقة كل المخلوقات العلوية والسفلية. ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] : أي فإن ثبتت عينه عند تجلي القِدم، ولم يصر إلى ما منه جاء وهو العدم؛ فسوف تراني، وهو محال. وهذا من التعليم الإلهي التطبيقي، حتى يعلم موسى حقيقة ما سأل. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، من الوجه الخاص بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لا يطيقه إلا هو، ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي عدما؛ لأن حقيقة الجبل هي الارتفاع عن الأرض، وإلا ما سمي جبلا. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾[الأعراف: ١٤٣] : هذا كقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] ، فالتجلي للجبل كان تجليا في الآفاق، ثم جاء التجلي في النفس لموسى عليه السلام، فخر: أي هوى إلى العدم، صعقا: أي فانيا؛ وإن أبقى الله عليه صورة ظاهره، فإن ذلك لا يقدح في فنائه؛ لأن الصورة تتبع الذات في الحقيقة، فهي شأن ذاتي. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: لم يُفق حتى جعل الله بينه وبينه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم؛ فعلم مقدار عظم قدره وحاجة الخلق إليه. ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] : أن تُرى خارج الصورة المحمدية، وتعالى نورك أن يوجد معه شيء. ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] : رجعت عما سألت، لما علمت أن ذلك لا يصح لي؛ وأقررت بمكانتي وتأدبت مع من

اختصصته بأن يكون الواسطة بين نور قدمك وأعيان خلقك، فكان وقاية لهم من العدم بفضلك. فما أعظمها من مكانة وما أعلاها من رتبة! ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]: في زمني، ومن مرتبة إمامتي، بما هو فوق طاقتي.

فإذا علمت ما تقدم، فقد علمت أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم مطلوب بصيرتك، كما كان مستوى تعلق سمعك إن كنت من المؤمنين. فإياك أن تجهل، فتطلب الله من غير طريقه؛ وقد نبهك الله إلى الحق بأن جعل لك موسى عليه السلام مثلا. فأي إكرام هذا، وأي عناية هذه!

الفصل العاشر

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣]

أول ما خلق الله الحقيقة المحمدية، التي هي النور الأصلي؛ ومنها خلق كل شيء بعد ذلك. وحديث جابر الذي ذكره بعض أهل الله وحكم عليه بعض أهل الحديث بالوضع، هو صحيح المعنى؛ يعضده الكشف. أما الألفاظ المختلفة التي جاءت في ذكر أول مخلوق، كالقلم والعقل (القلم الأعلى والعقل الأول)، فهي تدل على الحقيقة المحمدية نفسها، لكن لمعنى مخصوص. ولقد سماها بعضهم "الحق المخلوق به"، استنباطا من قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ [الحجر: ٨٥]، فهذه الحقيقة من وجه هي حق، ومن وجه هي خلق. وقد اختلط الأمر على الفقهاء، فلم يُميّزوا بين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه الحقيقة؛ وظنوا أن أهل الله يُغالون في تعظيمه بما هو فوق قدره صلى الله عليه وآله وسلم. والحق أنهم ما نطقوا إلا بما أعطاهم العلم، على ما يحتمله استعدادهم؛ لأن العلم به صلى الله عليه وآله وسلم لا نهاية له. فاعلم هذا، وأرح نفسك من عناء الوهم.

وهذه الحقيقة لها السبق على العالم بالمرتبة، فلا يلحقها أبدا. فهي أصل العالم مع اعتبار الفرق بين الاثنين. لذلك فقد قيل: إن الإنسان هو العالم الأصغر، والعالم هو الإنسان الأكبر. والحقيقة المحمدية التي هي الإنسان الأصلي، فهي العالم وزيادة، وليست هذه الزيادة إلا الحق الذي لا وجود لشيء معه.

وإن اعتبرنا الحقيقة المحمدية شجرة إلهية، فإن ثمرتها هي العالم. والثمرة فيها بذرة، الشجرة موجودة فيها بالقوة. فمن نمت بذرته من بني آدم، وأعطت شجرة، فقد عاد إلى أصله؛ وكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيه، فكان من الآمنين من عذاب الله، الذي ليس إلا الحجاب. لكن لا بد لك أن تفرق بين الأصل والفرع في هذا الأمر، حتى لا تختلط عليك الحقائق. فما نفع العلم مثل ما ينفع هنا.

وهذه المرتبة التي بها يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العبد المصطفى ، تكون لأهل الله المحققين؛ فإن لم يكن المرء من هذه الطبقة العليا، فليجهد أن يكون من المستغفرين. والمستغفرون هم السالكون، الذين يعملون على غَفْر حقيقتهم العدمية بالتعرض المبني على الأعمال والآداب الشرعية. وقد بشر الله هذه الطبقة بنفي تعلق صفة التعذيب بهم لا بنفي الفعل كما أخبر عن الطبقة الأولى؛ فقد قال سبحانه عن الأولى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ ، وقال عن الثانية: ﴿ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ . وذلك لأن الفعل أبلغ في النفي من تعلق الصفة، لأنه مستند إليها في وجوده، وهو منهى تجليها. والسبب في نفي تعلق الصفة بالنسبة إلى المستغفرين، هو أن منهم من لا يتحقق استغفاره، فيطلبه العذاب (الفعل)، ليكون مطهرا له من الشوائب المانعة؛ لكن مآله سيكون مآل غيره ممن سبقه إلى صفة الإنعام. فالعذاب عنده عارض، لأن الصفة تعلقها أعم من تعلق الفعل.

وبما أن العالم كله، حامل لبذرة هذه الشجرة المباركة، بره وفاجره، فإن مآله سيكون الرحمة الأصلية، وإن اجتاز بعضه العذاب العرضي. لكن منهم (أي من الناس)من يجتازه في الدنيا، وهم أهل الله الذين احترقت نفوسهم بصنوف المجاهدات وضروب البلاءات؛ ومنهم من سيجتازه في الآخرة بعذاب جهنم بسبب اختلاف الاستعدادات. وقد ذكر الله هذا المعنى في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه

قال:« سبقت رحمتي غضبي»[1]. فالرحمة سبقت من كونها الأصل؛ وبما أن كل شيء عائد إلى أصله، فإن كل شيء مرحوم. لذلك قال الله تعالى في كتابه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقد ذكر الله هذا بعد قوله سبحانه: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ليدل على أن المُعذّب مرحوم. وأعقب سبحانه بعد ذلك بقوله: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ليُفرّق بين رحمة أهل النعيم، ورحمة أهل العذاب؛ حتى لا تختلط الحقائق وتنهدم الشرائع. فسبحانه من حكيم عليم!

من هنا جاء الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فجمع بين كل الأصناف، ولا شك أن منهم المرحوم ومنهم المعذب. وهو نفس المعنى الذي جاء في حديث:« يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»؛ وما خصّ، بل عم. والحمد لله رب العالمين.

[1]. متفق عليه.

الفصل الحادي عشر

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ : قيل إن "ما" صلة فيها معنى التوكيد. هذه الآية تؤكد أن رحمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي رحمة الله نفسها، بالمعنى الجمعي الذي سبق أن ذكرناه في الفصول السابقة عاما أو متعلقا بصفات أخرى. ﴿ لِنتَ لَهُمْ ﴾ : أي رحمتهم. والضمير عائد على كل الخلق، وليس خاصا بمن عاصره صلى الله عليه وآله وسلم من الصحابة؛ وإن كان المعنى الخاص أظهر في محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. لكننا نريد أن نعود هنا إلى المعنى الأصلي الذي للحقيقة المحمدية التي هي أصل وجود الخلق. فرحمته صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاعتبار عامة لجميع الخلق، من حيث كونها عين رحمة الله العامة. ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ : هذا يتعلق بمظاهره صلى الله عليه وآله وسلم، التي تشمل مظهره المعلوم عندنا، والذي نسميه محمدا بن عبد الله، وهو أعلاها؛ كما تشمل مظاهر سائر الأنبياء عليهم السلام وسائر الورثة. هذا يعني أن كل نبي أو وارث، فإنما كان يرحم أتباعه برحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿ وَلَوْ كُنتَ ﴾ : في كل مظاهرك المحمدية، ﴿ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ : فما تحققت رحمتك العامة. هذا في معرض النفي، حتى تكون الرحمة حاصلة للجميع. أما كون المظهر المحمدي الخاص متميزا عن سائر المظاهر في هذه الرحمة،

فهو يعود إلى تمامها بحسب ما يقتضيه استعداده الفريد. ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ : للعموم وللخصوص، بأن تنظر نورك فيهم؛ فتكون كمن يعامل نفسه، وإن كانت معاملة كلٍّ لبعض، بحسب ما تقتضيه الحكمة ومراعاة المراتب. ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ : بأن تكون نائبا لهم عن أنفسهم، إن هم لم يعرفوا قدرك فيهم. ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ : في مظاهرك حتى يستأنسوا ولا يستوحشوا؛ فإن النفوس لا تُحب أن يتعالى عليها أحد. ولولا حقيقتك المكنونة فيهم، والتي عبرت عنها في أكمل مظاهرك حيث قلت:« أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]، ما كانوا على هذه الحال؛ فمعاملتك لهم هي معاملة لنفسك. والحكم راجع لك لا إليهم، فإن الفرع لا يتقدم على الأصل.

أما الاقتداء في هذا الباب، فلا يصح إلا للوارثين، وعلى رأسهم الأقطاب المحمديون؛ أما غيرهم فلا قدم لهم فيه، وإن كانت حقيقته سارية ذاتيا في كل أجزاء العالم.

[1] . أخرجه الحاكم في المستدرك.

الفصل الثاني عشر

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾ [البقرة: ١٢٩]

لما علم إبراهيم عليه السلام، أنه نائب عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولما كان يعلم أن الرحمات التي بُعث بها إلى العالم، التي ما كانت رحمة رسالته عليه السلام إلى قومه إلا إحداها؛ و لما كان يعلم أن هذه الرحمات لن تبلغ تمامها إلا مع ظهور شخص محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يتطابق الفرع بالأصل، وتكتمل دورة الباطن بالظاهر، ويظهر الأول في الآخر، سأل الله أن يبعثه حتى ينال شرف هذه الدعوة، بعد أن نال شرف نسبه. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم:« أنا دعوة أبي إبراهيم»[1] : أي أنا إجابة دعوة إبراهيم، يعني بذلك بعثته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ ﴾ : أي في الخلق، لأن مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون إلا عاما، مناسبا لكونه أصلا لهم أجمعين. وقوله:﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ : رسولا جاء نكرة للتعظيم؛ "منهم": أي من جنسهم؛ يعني بني آدم الذين هم محل الخلافة الإلهية. وذلك لأن الخلافة بالأصالة له صلى الله عليه وآله وسلم.

كل هذا، جعل الأنبياء عليهم السلام يترقبون مقدمه الشريف، ويأخذون العهد على قومهم باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم متى ظهر. ولقد كلفهم الله بذلك تكليفا ذكره في قوله

[1] . الطبقات الكبرى لابن سعد.

سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١]. فكان مبعثه إيذانا باكتمال التعرف الإلهي، وتمام نعمته على عباده. وقد ذكر الله هذا في قوله سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣]؛ فما كان لهذه الآية أن تنزل إلا عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

أما قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾: فإنه يعني تلاوة تعرّف كأعلى ما يكون التعرف. والآيات هي ما يُعرف به الشيء، ولا تعلق للتعرف المحمدي إلا الله. ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: وهي حقيقة الذات في تجلي الصفات؛ لأن أغلب دعوات الأنبياء ممن سواه، كانت تعليما في مرتبة الأفعال والصفات. أما الدعوة إلى الذات فهي خاصة بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم. لكن ينبغي أن تفرق بين مطلق الذات، ومرتبة الذات في مجلى الصفات والأفعال، حتى يصح لك العلم وتتحقق لك الحكمة التي كانت تكملة الدعوة الإبراهيمية: ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ : الحكمة هي تمييز مختلف النِّسب في العلم، والعمل وفْقها. فالحكمة بهذا، تكون كمالا في العلم. فكم من عالم لا يُحسن الجمع بين معلوماته، ولا يتمكن من قبولها إلا مفككة، يستقل بعضها عن بعض. والحكمة هي الرابط بين أجزاء العلم، حتى يظهر في نسق متكامل. وانظر كيف أن الذات صارت تُعرف (شهودا لا علما مجردا) في الصفات والأفعال، بعكس ما هو الأمر عليه وجودا؛ إذ ما ظهرت الصفات والأفعال إلا في الذات. ففي مثل هذا تنفع الحكمة، وتُستطاب ثمارها. ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ ﴾ : أي يُنمي فيهم بذرة الحقيقة، حتى تنبت فيهم الشجرة التي تكلمنا عنها في أحد الفصول السابقة. وبهذا، تعلم أن محمدا صلى الله عليه وآله

وسلم، هو مربي العالم بتربيته للمربين في كل زمان. وهذا هو معنى الكلمة التي أوردناها للشيخ الأكبر قُدس سره آنفا: " هو عبد الله ورب بالنسبة للعالم". ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾: العزيز، حتى لا يعرفك في أجلى تجلياتك إلا من تأذن له بمعرفتك سبحانك؛ الحكيم، في إذنك لبعض ومنعك للبعض الآخر.

أما ما يُناسب هذه الآية في باب الاقتداء، فهو طلب التزكية في المظاهر الوراثية، حتى ينخرط المرء في طريق المعرفة المأذونة، المؤذِنة بالرجوع إلى الله ذوقا وتحققا؛ كما هو شأن خواص هذه الأمة الشريفة، الذين نالوا مرتبة العلم والحكمة.

الفصل الثالث عشر

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ ﴾ [الإنسان: ١]

الإنسان بالمعنى الأصلي كما سبق أن أشرنا في الفصول السابقة، هو الحقيقة المحمدية. والدهر كناية عن الإطلاق الذاتي الذي لا يكون فيه ذكر لشيء. ولما شاء الله تعالى أن يُعرف، أخذ نورا من نوره، وتجلى فيه بأسمائه وصفاته؛ فكان هو الإنسان الإلهي، أو الحقيقة المحمدية التي هي أصل الوجود علوا وسفلا، يمينا وشمالا.

فالحقيقة المحمدية حادثة، وحدوثها هو تميزها في الإطلاق وحسب. وهذا هو معنى الخلق (المصدر) أيضا. والتميز الذي نتكلم عنه، هو تميز عقلي لا وجودي؛ كما تتوهم العقول الضعيفة التي ينتهي بها الأمر إلى الشرك. كما أن الحدوث الذي نعنيه، هو تأخر في المرتبة، لا في الزمان كما يتوهم المحجوبون؛ لأن الزمان لا وجود له في هذه المرتبة. وإن شئت قلت: إن الله هو الدهر بالنسبة إلى الحقيقة المحمدية، والحقيقة المحمدية هي الدهر بالنسبة إلى الزمان؛ لأنه أحد حقائقها التي ستظهر عند حركة الأفلاك، لا قبلها.

وقد جعل الله هذه الحقيقة الإنسانية، محلا لظهور شؤون ذاته التي كانت في غيب الغيب، فانتقلت إلى الغيب الذي هو باطن هذه الحقيقة. وبتميز هذه الحقيقة عن أصلها، ظهرت النِّسب كالأول والآخر، والظاهر والباطن؛ وبظهور الشؤون في هذه الحقيقة، ظهرت الصفات والأسماء وامتازت في العقل. فلولا الحقيقة المحمدية، ما وُجد الخلق؛ ولا عُرف الحق. فهي مفتاح الغيب الأكبر، ومجلى السر الأبهر.

وقد يختلط أمر هذه الحقيقة على كثير من أهل الطريق، فلا يفرقون بينها وبين الألوهية، بسبب اندراج النور في النور؛ خصوصا عند مُبادأة هذه المعاني للمريدين. فأراد الله أن يجعل في عيون عباده فُرقانا، يميّزون فيه بين النورين؛ فلم يكن إلا الحدوث والقدم، وهو معنى الآية التي جعلناها عنوانا لهذا الفصل.

وإذا حققت، فإن الحدوث متعلقه الصورة الإلهية المسماة حقيقة محمدية، لا غير. هذه الصورة هي هيولى كل الصور التي ظهرت بعد ذلك في العالم؛ وهي شأن الشؤون، الذي ظهرت فيه كل الشؤون الإلهية التي كانت أصل كل الأسماء. وهي الوجه الإلهي الذي تعرف به إلى جميع الخلق الذين هم فروعه، ورسل بعضهم إلى بعض. وقد ذكرنا في كتاب "المنهاج القويم في التزكية"، كيف أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان هو الوجه المراد لبعض الصحابة رضي الله عنهم، المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨]. أما كيف يكون الربط بين الحقيقة المحمدية وشخص محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فاعلم أن هذا الشخص الأكرم هو تنزل لتلك الحقيقة في عالم الطبيعة الذي هو عالم السفل. وبهذا تحقق التجلي الإلهي في السماء وفي الأرض. وقد قال الله تعالى في هذا المعنى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، حتى لا تُحجب العقول بالتنزيه عن التشبيه؛ فإن جلها يُنزه الله عن السفل، جاهلة أن نسبة الأشياء إليه سبحانه واحدة. وقد أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الحقيقة في حديث:« ...لو أنكم دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السابعة، لهبط على الله تبارك وتعالى...»[1]. وقد أشكل هذا الأمر على أصحاب العقائد، فتأولوا كلام الله بما يُناسب

[1] . الأسماء والصفات للبيهقي.

عقائدهم؛ كما فعل من يقول إن الله في الأرض بعلمه، يظن أن هذا يُخلصه من حيرته. وما علم المسكين، أن العلم صفة؛ والصفة هي معنى قائم بالذات؛ فكيف يوفق بين هذا، وما رام إثباته؟ ولو أنه علم أن هذا العلم لا يُنال بالتفكر، وإنما بكشف من الله، لأراح نفسه، واشتغل بما ينفعه.

أما النصارى، فإنهم لما لم يكونوا على استعداد لنيل هذه العلوم، فقد تخبطوا كثيرا في إدراك العلاقة بين عيسى عليه السلام -من حيث هو وجه للحقيقة المحمدية- وبين الله؛ فقالوا تارة: هو، وقالوا أخرى: ابنه، وقالوا: هو تجسُّد له تعالى! كل هذا، لأنهم ما أدركوا الأمر على ما هو عليه؛ فكانوا كل مرة يقولون ما يظنون أنه يُخرجهم من حيرتهم، فإذا نظروا من وجه آخر، وجدوا أن قولهم ما ينفعهم، فيُضطرون إلى تغييره؛ وهكذا... فهم في حيرة مستمرة لا يخلصون منها إلى الآن. والسبب في ذلك، هو أن علمهم بالله لا يُجاوز الصفات؛ والصفات لا يتخلص المرء معها من حيرته، بسبب كثرتها؛ بعكس الذات التي تقطع هذا النوع من الحيرة. قلنا هذا النوع لأن الحيرة أنواع. وكذلك عامة المسلمين الذين يُكلفون أنفسهم الكلام فيما يُجاوز مرتبتهم، فإنك تجد لهم أقوالا في العقائد ملفقة، يظنون أنهم بها قد حصلوا على شيء، حتى أنهم يسمونها توحيدا. أما العوام الذين لا يشتغلون بما لم يُكلَّفوا، فهم على خير كبير.

الفصل الرابع عشر

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾
[القصص: ٨٨]

لقد انتهى الكلام بنا في الفصل السابق إلى التوحيد. وقد تكلم في التوحيد قوم بفكرهم، فجعلوا الأمر يزداد بعدا عن الإدراك. وقد تكلم قوم من أهل الله، فجعلوا منه توحيد عوام، وتوحيد خواص؛ وجعلوا توحيد الخواص ثلاث مراتب: مرتبة توحيد الأفعال، ومرتبة توحيد الصفات ومرتبة توحيد الذات. وقد أنكر أهل الفكر توحيد الذات بدعوى أنها لا يتعلق بها علم، وتكلموا في توحيد الأفعال وتوحيد الصفات، بما يخالف المعنى الذي عند الخواص. فاختلطت المعاني على من يريد أخذها من الألفاظ، واحتدت الخصومات بين مختلف الأفرقاء، حتى وصلت إلى حد التكفير، والرمي بالشرك.

ونحن بطَول الله نقول: إن الإنسان بحكم الطبع وحده، واقع في الشرك لا محالة؛ بمعنى أنه لو سمعنا شخصا يدعي التوحيد من غير اهتداء بنور النبوة، قلنا له: كذبت!

وأما اتّباع نور النبوة، فلا شك أنه يتفاوت الناس فيه؛ فيكون منهم العامة والخاصة وخاصة الخاصة. فأما العامة فتوحيدهم إيماني، وأما الخاصة فتوحيدهم عياني. ونعني بالعياني، مشاهدتهم للمعاني بنور بصائرهم. وتوحيد العامة، إن كان من غير تكلف، فهو مورث للسعادة، وإن كان لا يخلو من شرك بالمقارنة إلى توحيد الخاصة. وتوحيد الخواص، لا تخلو مرتبتاه الأوليان من شرك بالنظر إلى أعلاه.

أما العوام فشركهم، من كونهم يشهدون شيئا، ويؤمنون بغيره عند أنفسهم. وهو ما نهى الله عنه من باب الإشارة في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [القصص: ٨٨]. قلنا من باب الإشارة، لأن المعنى الذي يذهب إليه التفسير، يليق بمن عبد مع الله مخلوقا من المخلوقين، كما هو شأن أهل الأوثان.

وأما الخواص، فأول ما يخطر لهم توحيد الهوية الغيبي، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القصص: ٨٨]؛ نعني إيمانا لا علما على الغالب. فإذا وجدوا داعيه في قلوبهم، سلكوا طريق التزكية على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما وقع لخاصة الصحابة؛ أو على يد وارث من ورثته كما هو الشأن في الأزمنة المتأخرة. والوارث هنا لن يكون إلا وجها من وجوهه صلى الله عليه وآله وسلم لا غير؛ لأن التزكية له بالأصالة بنص القرآن.

فإذا أثمرت فيه التزكية، فإن أول ما يجد من معاني التوحيد: توحيد الأفعال؛ فلا يشهد فعلا في الوجود إلا لله. هذا هو أول توحيد الخواص؛ أما العوام، فإنهم عندما يتكلمون عن توحيد الأفعال فإنهم يعنون به معاني أسماء الأفعال، ولا يحتملون المعنى الذي انكشف لأهل الطريق؛ لأنهم يجدونه عندهم مصادما للشرع. فهذا هو الفرق بين العوام والخواص إن كنت تريد تبيّنه.

والسر في توحيد الخواص في هذه المرتبة، هو فناء أفعالهم (وجميع المخلوقين) في أعينهم؛ لأن فعل الله لا يتبدى إلا عند زوال الوهم المقابل له في هذه المرتبة، وليس إلا أفعال العباد. ثم بعد فناء الأفعال يأتي فناء الصفات، فلا يرى العبد في الوجود إلا مظاهر لصفات الحق؛ فيُعد من أهل توحيد الصفات. أما المعنى الذي تسميه العامة توحيد الصفات، فهو معنى أسماء الصفات لا غير؛ وهذا المعنى الخاص، لا يطيقون سماعه، ويعدونه كفرا إن لم يرزقهم

الله التسليم لما يفوق إدراكهم. وأما توحيد الذات فيصح للعبد بعد فناء ذاته واستهلاكها. وهذا أعلى ما يكون من توحيد الأذواق؛ لكن فيه تفصيل، وهو كيف يكون توحيد الذات والذات لا تعلق للعلم بها، كما هو مقرر عند الجميع؟

فنقول: أولا، لتعلم أن كل هذه المراتب من التوحيد الخاص، هي داخلة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؛ فالشيء الهالك في المرتبة الأولى: أفعال العباد؛ وفي الثانية: صفات العباد؛ وفي الثالثة: ذوات العباد. والوجه الإلهي في المرتبة الأولى: فعل الله؛ وفي الثانية: صفات الله؛ وفي الثالثة: ذات الله.

ثانيا: أما كون الذات لا يتعلق بها العلم، فصحيح؛ لأنها غيب الغيب. فمن حيث هذه المرتبة التي للذات، فهي لا تُعلم؛ أما من حيث كونها غيبا، أي محلا لقيام الأفعال والصفات، فيتعلق بها العلم؛ ويكون هذا العلم من وراء شهود الأفعال ومن وراء شهود الصفات. فهذا هو ما عبروا عنه بشهود الذات. فإذا قوي هذا الشهود، اضمحلت فيه الأفعال والصفات؛ حتى تكاد لا تُميّز، فيكون صاحب هذا الشهود كالمأخوذ عن نفسه. وهذا هو حال أرباب الأحوال من المولهين؛ حتى لتجد أحدهم يغفل عن الضرورات الطبيعية كالطعام وغيره. أما الراسخون فلا يظهر عليهم من ذلك، إلا ما يشبه الغفلة وصعوبة في التمييز؛ لكنها غفلة في الله لا عنه سبحانه. فافهم!

ولما كنا قد قلنا فيما مر، أن الوجه الإلهي الجامع هو الحقيقة المحمدية، فاعلم أن مراتب التوحيد الثلاث إنما يعلمها العبد من هذه الحقيقة. فأول ما يعلم منها: أفعال الله، أي وجه نسبة الأفعال إلى الله؛ ثم يعلم صفاته سبحانه منها؛ ثم يعلمها من حيث ما هي ذات بها قامت الأفعال والصفات. وهذا هو ما سميناه غيبا يمكن تعلق العلم به؛ أما الذات التي هي

خارج الحقيقة المحمدية عقلا، فهي ما سميناه غيب الغيب الذي لا يُحيط به العلم. فالعارف في كل مراتب المعرفة، ما خرج عن العلم بالحقيقة المحمدية؛ وما تحققت له معرفة الله إلا فيها. ولولا هذا المعنى ما سُميت وجها، لأن وجه الشيء ما يقابلك منه وتعرفه به. فخذ المعاني من ربها، ولا تترك للعادة عليك سلطانا فتُحجب عن الحق.

وبالتزكية –التي هي في اللغة التنمية– تصير الحقيقة المحمدية تطغى على الحقيقة الجزئية (نفس العبد) شيئا فشيئا، بمرورها في الأطوار الثلاثة التي هي: الأفعال والصفات والذات؛ حتى يُصبح العبد المصطفى وجها من وجوهها، على قدر ما حصل من أسرارها؛ لأنه لا يبلغ الحقيقة المحمدية على ما هي عليه أحد سوى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، العبد الكلي. وهذه الوجوه التي تتفرع عن وجهه صلى الله عليه وآله وسلم، هي حقائق الأنبياء عليهم السلام، والورثة من الأولياء.

أما قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨]، فيبيّن أن الحكم في العبد الذي صار وجها، له سبحانه بعد أن كان للعبد. وهذا نفسه هو معنى الولاية؛ وهنا يُمكن أن نقول: إن هذا العبد رباني؛ بعد تحقق الرجوع إليه سبحانه وتعالى في الحقيقة المحمدية التي لا مرجع لأحد إلى سواها.

ولنبدأ الآن في الكلام عن الوجوه المحمدية بحسب ما يتيسر؛ والله المستعان.

الفصل الخامس عشر

الوجه المحمدي الآدمي

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠]. لما كنا قد قلنا إن الحقيقة المحمدية هي الوجه الإلهي الأصلي، فإن كل مخلوق على الصورة الإلهية الكاملة، التي هي الكمال الإنساني الظاهر في آدم عليه السلام ومن كان على شاكلته من بنيه، هو وجه للوجه الأول، يظهر فيه بصورة مقارِبة؛ كما يظهر نور الشمس في وجه البدر المكتمل؛ فيكون دالا عليه بالذات، دلالة القائم على من به قوامه، كما هو الوجه الإلهي دال على الحق. فبالوجه الآدمي تُعرف الحقيقة المحمدية، وبها يُعرف الحق.

ولما أراد الله أن يتجلى في الأرض كما تجلى في السماء، خلق آدم منها ونفخ فيه من روحه. فكان حقا بالروح وخلقا بالجسد؛ كما كانت الحقيقة المحمدية حقا بحقيقتها، وخلقا بالصورة. وخلق منه زوجه حتى يكون طبق الأصل مزدوج الحقيقة؛ فكان وجها لوجهه، واستحق أن يصير خليفة على العالم. وقبل أن يستلم المنصب أسكنه الله وزوجه جنة عنايته، ورباه فيها بما يليق بمكانته، وأمده بشطر أسمائه؛ وكان قد هيأ له كل رعيته من جماد ونبات وحيوان وجان، حتى تكون في خدمته. فلما آن أوان ظهوره في مملكته، أرسل له عدوه يمكر به ويجرّئه على مخالفة أمر ربه؛ فوقع له المدد بالشطر المتبقي من الأسماء، وظهرت له سوأته التي هي سر ربوبيته، ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢] ، صيانة للسر من

الظهور؛ فإن الجَنّ هو الستر. فلما وقع الأمر، وحكم الله عليه بالنزول، اتضح أن الغاية كانت إكرامه، والخروج إلى الفعل بما كان فيه بالقوة؛ فكان عدوه يسعى في نفعه من دون أن يدري. وظهر أن من سبقت له العناية، لم تضره الجناية؛ وأن من كان مصطفى، سعى في خدمته العدو والصديق. والله يفعل ما يشاء سبحانه.

والخلافة الإنسانية هي نظير المرتبة الإلهية التي تميزت عقلا عند خلق الحقيقة المحمدية؛ بل هي عينها؛ لذلك كان الاسم المختص بالخليفة هو الاسم "الله".

وقد تعجبت الملائكة قبل ذلك من أمره، وما علموا أن الإفساد والقتل من دلائل الخلافة ومقتضياتها؛ وهو من التصرف بالحكمين على ما تُعطي الصورة. وكما جهلت الملائكة أمر الخليفة يوم إخبار الله لهم، جهله شطر من بني آدم ظنا منهم أنه لا ينبغي أن يأتي إلا بما يُحمد عقلا وشرعا؛ وما علموا أن أمره وجودي لا حُكمي. وما اعتبروا برد الله على الملائكة وتنبيهه إياهم لِما غاب عنهم.

واعلم أن الخليفة في كل زمان واحد، وأن باقي بني جنسه هم في الحقيقة من جملة رعيته، وأن ظاهر الصورة ليس هو مناط أمر الخلافة، بل التحقق بمعناها. فاحتجب الخليفة من حيث الظاهر بسبب ذلك، وامتاز من حيث الباطن. فكانت مرتبة الخلافة معلومة الأثر، مجهولة الخبر؛ إلا لمن شاء الله.

وإن للخليفة توجها من كل جزء من أجزائه، إلى كل جزء من أجزاء العالم، ظاهرا وباطنا، علوا وسفلا. ونعني بالعالم هنا كل ما خلق الله، لا الأرض وحدها كما صار يفهم بعض الناس اليوم. بل لقد رأينا في أحد المشاهد أن العالم ما يقابل من الإنسان إلا بعضا منه؛ لكن هذا من حيث سعة أسراره لا من حيث حقائقه المطابقة كما ذكرنا. وبهذا التوجه، يصرف العالم بما شاء الله إلى ما شاء الله. فهو الهادي للعالم بعد وروده عليه. وقد أجاب آدم زمانه

(موسى عليه السلام) فرعونا لما سأله عن ربه قائلاً : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠] ، فجعل الهداية بعد الخلق، وباعد بينهما بحرف التراخي. وهداية الخليفة هي إيصال كل مخلوق للغاية التي خُلق لها، وليست الهداية الشرعية وحسب. وإن الناس لما كانوا ينساقون مع الألفاظ دون خبرة بالمعاني، صاروا يُحجبون بها إن هي صرفت إلى معنى يخالف المعنى المعلوم عندهم. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الهداية:« اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1] ، فجعلها هداية إلى سعادة وهداية إلى شقاء؛ هذا بالإضافة إلى الهداية الخاصة بالعوالم غير المكلفة مما سوى الإنس والجن.

ولما كان آدم الخليفة الأول من حيث الخلق، فإن بنيه على التحقيق هم الخلفاء من بعده؛ لا كل من هو على صورة الآدمي. فالرابط في الشبه بين الوالد وولده هنا هو الخلافة والصورة الإلهية. وحتى لا يختلط عليك الأمر، فاعلم أن للخلافة مراتب على حسب درجة كمال كل إنسان؛ أما من لا حظّ له من الكمال، فهو حيوان على صورة إنسان. ولو تتبعت ما نقول، لوجدته على التفصيل الذي يجعل الواحد منهم حمارا، والآخر قردا، والآخر خنزيرا، لا تشك في ذلك.

ولما كان محمد هو الخليفة الإلهي بالأصالة، أو قل هو المُستخلِف لكل خليفة، فإنه قال معرفا بقدره صلى الله عليه وآله وسلم، حتى ينتفع بمعرفته السامع المصدِّق:« أنا سيد وُلد آدم ولا فخر»[2]. يعني أنه سيد آدم وولده، لكنه راعى عليه وآله الصلاة والسلام الأبوة الطينية، فكنى ولم يُفصح. ولفظ "سيد" يدل على ما نبهناك إليه من أنه صلى الله عليه وآله وسلم الأصل الحاكم على كل خلفائه، سواء أكانوا من الأنبياء الذين سبقوه بالزمان، أم كانوا

[1] . متفق عليه.
[2] . أخرجه أبو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والطبراني في المعجم الكبير.

من ورثته الذين جاؤوا بعده؛ لأن السيادة عليهم تقتضي أن يعمهم فضله؛ كما ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٥٩] . وقد أشار صلى الله عليه وآله وسلم لمرتبته بالمقارنة إلى آدم عليه السلام بما يوضح الأمر في قوله:« إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته»[1]. فليس بعد هذا البيان بيان!

ثم إن من الهداية ما هو خاص بالمكلفين؛ وحيث أن الحقيقة المحمدية هي الحق المخلوق به كل أحد، فإن هداية طالب الكمال، تقتضي أن يصل إلى أصله؛ كقطرة الماء التي تسير مع السيول والأنهار حتى تبلغ البحر؛ فإذا بلغته انتفت عنها صفة القطرة وصار لها حكم البحر. فهذا حكم العبد المكلف مع الحقيقة المحمدية. وقد ذكر الله هذه الهداية من باب الإشارة في قوله سبحانه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٥]. وحتى تتبيّن هذه الهداية، فإنا سنعود بك إلى ما وقع لإبليس مع الملائكة عند الأمر بالسجود، في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٣٤]. وذلك أن الملائكة وإبليس معهم، ما كانوا شاهدوا وجه الحق الذي هو الحقيقة المحمدية، وإنما كانوا يسمعون الخطاب منه؛ فحصلت لهم معرفة تنزيه، وبقوا عليها ما شاء الله لهم في أحسن حال. فلما خلق الله آدم وجعله خليفة، اختل الأمر عندهم لعدم إلفهم بالصورة. فهم لم يكونوا مشاهدين للحقيقة المحمدية حتى يعرفوها في آدم، والسبب في عدم مشاهدتهم إياها، أنهم مخلوقون منها؛ فهم كالجزء منها. ومن هذا الوجه فلا طاقة لهم بمشاهدتها كما لا طاقة للجزء أن يحيط بالكل. ولما شاهدوا صورة آدم، ما عرفوا أنها صورة الحق حتى يخضعوا له، بل أنكروا وراجعوا ربهم. فأما الملائكة، فإنهم لما علموا اختصاص آدم بعلم الأسماء الإلهية التي

[1] . أخرجه أحمد والحاكم والطبراني في المعجم الكبير، عن عرباض بن سارية.

لم يعهدوها، فإنهم تابوا وسلّموا فاهتدوا؛ وأما إبليس فانحجب بخصوصية نفسه النارية الطبيعية عن خصوصية آدم الإلهية فأبى أن يسجد؛ فضل عن السبيل الذي يوصله إلى معرفة حقيقة نفسه؛ فلعنه الله (حرمه من هذه المعرفة التي هي أخص الرحمات) وجعله إماما لكل من كان على شاكلته. فكما أن آدم كان هاديا إلى الحق بحقيقته، فإن إبليس صار مُضلا لكل مخذول عن الحق باتباع ما تُعطيه ظلمته.

من هنا تعلم أن من يعرف الله بالتنزيه وحده، كما هو شأن جل الفقهاء، فإنه على خطر إن هو لقي خليفة زمانه أو سمع عنه فأبى أن يخضع له. وإن الناس لو أرجعوا كل شيء إلى أصله المذكور في الوحي، لعلموا علما نفيسا يتقون به شرور أنفسهم؛ ولكنهم يغفلون كثيرا، فيقعون فيما حذر الله منه وهم لا يشعرون؛ نعني أنهم يظنون أنهم فيه على صواب، دون أن يمحصوا الأمر، أو يسألوا أهل الذكر الذين يعلمون.

الفصل السادس عشر

الوجه المحمدي الإدريسي

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ ﴾ [مريم: ٥٦ – ٥٧]؛ ﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ يا محمد ﴿ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الذي هو حقيقتك ﴿ إِدۡرِيسَۚ ﴾ منك. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا ﴾ : الصديقية تمام الصدق، الذي هو مطابقة الإخبار للواقع. فكان إدريس عليه السلام مخبرا بذاته عما في الكتاب المحمدي من أسرار على وجه مطابقة المُخبر للمخبر عنه من حيث الدلالة، لا من حيث الحقيقة؛ لأن الحقيقة مخبرة عن نفسها بنفسها. والصدق في الإخبار يتطلب ثلاثة أطراف: الحقيقة ذاتها، والطرف الأجنبي عنها، والمخبر الذي يكون ذا علم بالأمر. فإدريس عليه السلام كان مخبرا لنفسه وعترته بخبر محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو الحق المتجلي في صورة الخلق. فدل هذا على أن النبوة هذا هو عمادها ومحورها. ﴿ نَّبِيّٗا ﴾ : خبيرا مخبرا، لما هو الأمر عليه إخبارَ الصورة المنسوخة عن الصورة الأصلية، التي ليست إلا هي، لكن في مرتبة أدنى. فرفع الله مكانه إلى فلك الشمس بما يطابق رفعة مكانته. فأعطاه حكم الأصل قائلا في حقه: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ ﴾ [مريم: ٥٧]: أي جعلناه عين ما يُخبر عنه حكما، لأن بعض الشيء هو عينه من وجه.

وانظر في مقابل هذا الكلام، ما قاله الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ ﴾ [الشرح: ٤]؛ فرفع ذكره لا هو، لأن الرفيع لا يُرفع، والرفعة الذاتية غير الرفعة الحكمية. فكان رفع الذكر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، هو عين رفع المرفوعين من

كونهم ذكرا له. وإن كان الله قد خص بهذا الرفع في الخطاب طبقة الأنبياء والورثة من حيث الظاهر، فإنه لا ينفك عنه أحد من المخلوقين من حيث الباطن، بسبب كون كل موجود هو وجه من الوجوه المحمدية الجزئية؛ لذلك فما في الكون إلا رفيع. وانظر كيف أن الحق أثبت لنفسه الرفعة وأثبت لهذه الرفعة درجات في قوله سبحانه: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [غافر: ١٥]. فالدرجات هي منصات الأكوان، بعضها فوق بعض، وبعضها تحت بعض؛ لكن لها الرفعة ذاتها من حيث نسبتها إلى الحق.

ولما كان محمد صورة الحق لنفسه، فإن الرفعة له هي رفعة الحق نفسها في كل الدرجات؛ أي فوق اعتبار الدرجات.

ورفْع الله لإدريس عليه السلام، هو جعله محمديا لا غير. فعرفنا من هذا أن من الوجوه ما هو محمدي النسبة، ومنها ما هو ذو نسبة جزئية. والتفصيل يُعطي ما لا يعطيه الإجمال، وإلا فالعين واحدة.

وقد قيل إن إدريس سمي بهذا الاسم، لأنه كان كثير الدرس لكلام الله المنزل عليه، وهو أول من خط بالقلم وخاط الثياب؛ فكان صورة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في شغله بربه. فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يذكر الله على كل أحيانه»[١]. أما خط إدريس عليه السلام بالقلم، فقد كان صورة طبيعية للكتابة الإلهية العلوية؛ وأما خياطته الثياب وقد كان الناس يلبسون الجلود، فهي صورة التغير في التجليات والتركيب الحاصل فيها الذي هو من نسج خيوط الأسماء الإلهية على منول الاسم النور. فكان إدريس عليه السلام بهذا صاحب تلاوة خاصة في كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا شك ستمتاز عن باقي التلاوات التي سنعرض لها إن شاء الله في الفصول المقبلة.

---

[١] . متفق عليه.

الفصل السابع عشر

الوجه المحمدي النوحي

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٍىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود: ٤١]؛ السفينة كناية عن الدائرة المحمدية التي إن دخلها العبد، حمل على أكف العناية الخاصة في بحر التجليات، حتى يصل إلى أعلى مراتب العرفان سالما آمنا. وليست هذه الضمانة إلا له صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد جاء الوجه النوحي لينبه إلى هذه الحقيقة حتى يركب العبد الطالب هذه السفينة من غير ما توان.

واعلم أن كل الخلائق في البحر وإن ظنوا أنهم على البر؛ لأن البحر له الهيمنة على البر، وله عليه الظهور. انظر كيف أن قوم نوح كانوا على البر مطمئنين فجاء البحر إليهم في المكان الذي كانوا يرونه برا. وعلى هذا فالخلق كلهم في الحضرة، لكن منهم من يعلم ذلك ومنهم من لا يعلم. والعالم حيران بين تلاطم أمواج التجليات الذي يصير به العلم جهلا، إن لم يكن صاحبه على علم بالحركات. لهذا فالحكم بالغرق في هذا البحر لازم لمن لم يركب السفينة المحمدية.

وقد كانت هذه الخصوصية له صلى الله عليه وآله وسلم بسبب كونه أصل كل شيء ظهر من الموجودات، فإذن هو البحر لا غيره! ولا أعرف بالبحر من نفسه!

وركوب السفينة قبل بعثته عليه وآله الصلاة والسلام، كان هو التوجه إليه في صور الأنبياء السابقين عليهم السلام؛ لأنهم ما يوصلون بحقائقهم إلا إلى بابه؛ وأما ركوب السفينة بعد

البعثة، فهو التوجه إليه مباشرة في صورته المعلومة للصحابة رضي الله عنهم، أو في صور الخلفاء الوارثين لنور النبوة، مع اتباع شريعته التامة المهيمنة على سائر الشرائع.

فإذا ركب العبد سفينة النجاة، بالتسليم الذي هو روح الإسلام، أمن من أن يطغى عليه الموج فيهلك معرفيا، ويضل عن الحق به وفيه.

ومعنى ركوب السفينة، هو مشاهدة الحق في الصورة المحمدية المقيدة؛ حتى تصح له معرفة الإطلاق في التقييد كما يتطلب استعداده؛ أما من رام معرفة الإطلاق في عين الإطلاق، فإنه سيغرق حتما في عاجل أمره. وذلك لأن الإطلاق يستغرق العبد من كل جوانب حقيقته، فينعدم حكمها وإن بقي عينها؛ فلا يظفر إلا بالعمى التام الذي لن يعرف به لا نفسه ولا ربه. وقد طمع خلق في تحقيق نجاتهم من غير سفينة، كالفلاسفة أو أصحاب الرياضات النفسية التي هي أديان وضعية، فما رأيناهم –مع كثرة جهدهم ومثابرتهم– حصلوا شيئا من العلم النافع؛ بل تجد أغلب ما يتكلمون فيه بناء على غير أساس، وتمسكا بأوهام يظنونها حقائق؛ مع ازدياد حيرتهم في الحق يوما عن يوم. وقد يصل المتعمقون منهم إلى الكفر بكل شيء حتى بالكفر؛ كثيرا ما يؤدي بهم هذا الحال إلى طلب الموت لأنفسهم، رغبة في التخلص من شدة الحيرة التي أصبحت لا تُطاق في حقهم.

أما السفينة، فتأخذ المرء على ماء البحر؛ فيتنقل فيه من مكان إلى مكان، وينظر منه إلى باطنه بحسب ما يسمح به بصره، وقد يصطاد من أسماكه ما يبقي عليه حياته الطبيعية التي يزيد معها تحصيل العلم الصحيح. فهي (أي السفينة) حماية للعبد من تسلط البحر عليه؛ وما هي إلا الصورة الأصلية التي هي حقيقة صورة نفسه. فالصورة حامية للصورة، فما حمت إلا نفسها في أجزائها. ولما رأينا أن كل أشخاص نوع المكلفين حفظ الله عليهم وجودهم في الدنيا والآخرة، بغض النظر عن كونهم سعداء أو كونهم أشقياء، علمنا أنهم كلهم في السفينة

سواء أعلموا ذلك كما علمه نوح عليه السلام؛ أم صدقوا به كما صدق به المؤمنون في زمانه؛ أم كانوا من جملة الحيوانات التي أخذها نوح معه. وهذه الأصناف الثلاثة لا رابع لها: فإما كامل، أو مؤمن، أو حيوان؛ وإن كان على الصورة الآدمية ظاهرا. أما شيطنة الإنسان فتكون إما وسوسة في حق المؤمنين، تحضر وتغيب؛ أو تكون ركوبا من الشياطين للإنسان الحيوان، كما يركب الآدمي ظهر الدابة، يصرفها أنى شاء.

ولو ظهرت سفينة نوح عليه السلام بالصورة المحمدية، لما غرق من قومه أحد؛ ولكن هذا لا يكون أبدا؛ ليظهر فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الناس أجمعين. ألا ترى أنه من خصائص حمايته صلى الله عليه وآله وسلم، مُنعت الشياطين من استراق خبر السماء، وقد كانوا يُمكنون من ذلك قبل بعثته؟!

ومن هذه الحقيقة كان صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين؛ فلولاه ما حُفظ الوجود على مخلوق؛ فكيف بما دونه؟! لأن الإطلاق الإلهي (الحقيقي وليس إطلاق التنزيه)، لا يبقى للحادثات معه وجود البتة. أما من استهلك في الحق ووقع له مع ذلك حفظ الصورة والعلم، فهو من النوحيين الذين اختصهم الله بالصورة؛ أي جعلهم على صورته. وإن شئت قلت على صورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فكانوا حقا في صورة خلق. وهؤلاء بقاؤهم في بحر الإطلاق ببقاء الله لا بإبقائه. فميز بين الأمرين حتى يحصل لك النفع؛ فإنا رأينا قوما لا يراعون حق الله في الصور، فانحرفوا عن سواء السبيل. ومن هذا الباب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ لما نزهوه بعقولهم عما هو حق عنده تعالى، فضلوا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤]. وما نزهوه إلا عن الصورة الحادثة، وما علموا أن الحدوث من باطن القِدم، كما يكون أيضا القدم من ظاهر الحدوث. كل هذا لأن الأمر ذات

واحدة لا تعدد فيها أو معها. وقد جاء قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في القرآن في ثلاثة مواضع، كلها تشير إلى ما ذكرنا. فمرة يقول بعده سبحانه: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، لما نزهوه عن مماسة الحادث والاتصال به (الاتصال والمماسة هنا معنويان)؛ ومرة يقول بعده تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤]، لما حُجبوا عن قوته وعزته بجلباب العجز والذل الذي هو من توابع العبودية؛ فظنوه غيره؛ ومرة يقول: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٦٧]، وما هو إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ لو كان الأمر عائدا إلى الله هنا، فإن الناس يؤمنون أن الأرض والسماوات في قبضة الله في الدنيا قبل الآخرة؛ لكن لما كان الخلاف بين العارفين وغيرهم متعلقا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإن ذلك لن يتضح إلا يوم القيامة، حيث يُرفع الحجاب الطبيعي عن غير العارفين.

وقد انحجب المؤمنون قبل غيرهم عن حقيقة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لما ظنوا أن الحق القديم لا يتجلى في الصور المحدثة؛ وذلك لأنهم ما علموا أن التجلي نفسه ما هو إلا ذاك. وقد ذكر الله تجليه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإن ثبت التجلي، ثبتت الصور له سبحانه؛ لأنه لا يتجلى إلا فيها. ولا يهم هنا أن تكون الصور محسوسة أو متخيلة أو معنوية مجردة.

أما قوم نوح المغرَقون حقيقة، فهم من عرفوا الله في بعض الصور وأنكروه في سواها؛ لأنهم كانوا قد عظموا في الله وُدّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا. فلما طال عليهم الزمن واستحكمت منهم العادة قصروا الألوهية على صورهم؛ مع أنهم ما دعاهم من نوح إلا من

عظموه سابقا. فلما لم يريدوا الانخلاع عما وطنوا أنفسهم عليه، حكم الله عليهم بالغرق؛ حتى يعلموا أنه ما ثم إلا هو.

واعلم أن هذا التأثير الذي للصورة حق؛ فإنها أثرت في الحق حتى كان منه النبي والصنم والمحمود والمذموم، فكيف لا تؤثر في الناظر فتعطيه في إدراكه غير ما هو الأمر عليه. ولما كانت الحقيقة الإنسانية لها القبول كالمرآة، صار ينطبع فيها كل ما يُقابلها، بغض النظر عن حكمه في الشرع. وما اختلف العارفون عن غيرهم إلا بكونهم عالمين بالأمرين معا: الظاهر والمظهر؛ معطين لكليهما حقه من الحكم بالاعتبارين: الظاهر والباطن معا. هذا فحسب.

فإن شئت أن تركب السفينة المحمدية، فتخلص من تنزيهك الحق بنفسك واتبع نبيك صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما أخبر به عن ربه تعالى؛ فإنه لا أعلم منه بالحق، ولا أدل منه عليه. نعوذ بالله من حرمان الفضل مع تحقق النسبة!

الفصل الثامن عشر

الوجه المحمدي الهودي

وقع لقوم هود عليه السلام مثل ما وقع لقوم نوح عليه السلام من قبل؛ فإنهم عكفوا على عبادة الأصنام، وعاملوها على أنها الوجه الإلهي الأوحد، مما يجعلهم منكرين للحق في باقي الصور. وقد علمنا أن الصور أصلها عدم؛ فمن بقي معها ولم يتبع الحق حيثما تجلى، فما هو من أهل الحق. وقد مكر بهم الحق لما كان يستجيب لهم دعاءهم عند أصنامهم، بما يوافق أحوالهم أو تطلبه استعداداتهم؛ فأخذوا ذلك على أنه برهان على كونهم على الحق في عبادتهم، فتعصبوا لأصنامهم لما دعاهم الله من صورة هود عليه السلام؛ وكفروا به. وقد حكى الله عنهم قولهم في ذلك، فقال سبحانه: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٣ – ٥٤]. وقولهم: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ ، يدل على أنهم ظنوا أن هودا عليه السلام أمرهم بإنكار الحق الذي يعلمون؛ فامتنعوا من ذلك بقولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣]؛ فجهلوا من جهةٍ المدعو إليه، وجهلوا من أخرى التوحيد. وذلك أن الأمم المشركة ما عبدت إلا الله، لكن من حيث بعض وجوهه التي هي الأسماء. والأسماء كما هو معلوم تدل على معان مختلفة؛ فتوهموا بكثرة المعاني كثرة الذوات، فضلوا؛ وما تقبلت عقولهم أن تنسب المعاني المختلفة والتي تكون أحيانا متقابلة، إلى نفس الذات. فلو أنهم قالوا: " وما نحن بتاركي إلهنا" لالتقوا مع هود عليه السلام فيما يريد منهم، وآمنوا؛ ولكنهم لما حُجبوا عن

الحقيقة، كفروا. والكافرون لا يكفرون إلا وقد سلكوا عند أنفسهم (في وهمهم) طريقا يبدو لهم أنه طريق الحق، لكنهم يصلون به إلى نتيجة مخالفة لما يزعمون؛ وهذا هو عينه الضلال. فهم ما رفضوا الدعوة مطلقا، وما توهموا إلا أنهم متمسكون بما علموا من الحق، بحكم العادة؛ وقد رفضوا ما هو جديد عليهم، خائفين أن يزحزحهم عن الحق المقيد لهم. ولما دعاهم هود عليه السلام، ما علموا أنه يدعوهم إلى نفس ما يؤمنون به، لكن في مشهد أوسع مما هم عليه؛ وأنه يعلمهم أن الحق أحدي الذات، وإن كانت صفاته متعددة. وهذا الرفض منهم لدعوة الحق، كان بسبب قصور استعدادهم وغلبة ظلمتهم؛ فما أبصروا ببصائرهم الحق الذي دُعوا إليه. وما قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود: ٥٤]، إلا دليل على إيمانهم بنسبة الأفعال إلى معبودهم. فهم في التعبير عن إيمانهم صادقون، وإيمانهم ذاك ما ترسخ لديهم إلا مع استجابة بعض دعائهم؛ فلولاه ما كانوا ليربطوا بين الفعل ومظاهر الأصنام. فما هم حمقى، حتى ينسبوا الأفعال إلى جهة مخصوصة اعتباطا؛ لأنهم لو كانوا كذلك، ما كان يضرهم قبول دعوة هود عليه السلام ولو استخفافا. فظهر أن الأمر عندهم جد.

والأصل في هذا، أنه لما كانت الحقيقة المحمدية حقيقة مزدوجة: حقية خلقية، ووجودية عدمية، كان كل ما انبثق عنها من الكائنات على تلك الازدواجية، لكن بنسب متفاوتة بين الأفراد. هذا يشبه ما يرثه الأولاد من صفات والديهم، فتجد غالبا الصفات مشتركة، لكن على اختلاف في درجة الموروث، وفي التركيب الحاصل بين الصفات المختلفة. بذلك يميز الناس بين الأفراد وإن كانوا لنفس الأبوين. وهذا نفسه هو الحاصل عند تمايز الأمم فيما بينها، وعند تمايز الجماعات داخل الأمة الواحدة، وعند تمايز الأفراد داخل الجماعة الواحدة أيضا. وأمة هود عليه السلام، يظهر أن صفة العدمية غلبت عليها، ومنعتها من إبصار الحق لما

عرض عليها؛ فما كان من رسولهم بعد أن أعياه تطبيب علتهم إلا أن قال: ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦ ﴾ [هود: ٥٤ – ٥٥]؛ وكلمة "من دونه" تفيد أنه مشترِك معهم في الحق الذي هم عليه، مخالف لهم فيما لم يقبلوه منه؛ لأن الحق واحد. وتحداهم بعد ذلك عليه السلام بالكيد له من جهة عدمهم هم وأصنامهم، حتى يرجعوا إلى الحق إن هم فهموا ما يكلمهم به، فقال: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ ﴾ [هود: ٥٥]؛ لأنهم إن رجعوا إلى أنفسهم وأصنامهم التي هي الصور، فلن يجدوها شيئا؛ فأنى تنصرهم بكيدها! وبين هم –عليه السلام– في مقابل ذلك مستنده ونصيره بقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾[هود: ٥٦]؛ أي المتجلي بصورتي وصوركم، فجمع لهم بين كل الصور، حيث خصصوا هم. ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ [هود: ٥٦]، يُعلمهم أن الفعل فيهم كما هو في غيرهم، لله وحده. فكفرهم هو بمشيئة الله لا بخلافها؛ لأن من يقول بهذا هو مشرك من غير ريب! فما قصّر – عليه السلام في الدعوة ولا بخسهم حقهم وحاشاه! بل عاملهم بالإنصاف الذي يقتضيه علمه الشريف.

واعلم أن كثيرا ممن ينتسبون إلى العلم من أمتنا يقعون في مثل هذا الشرك، وينسبون الفعل في حقيقته إلى العبد، فيقولون مثلا عن الكافر: هو ما أراد أن يؤمن، ولو أنه شاء لفعل. وهذا باطل محض، والله يقول في صريح كتابه: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]. فينبغي لمن يرجو السلامة أن يُصدق ربه، ولا يلتفت إلى ما يُفتيه عقله القاصر. وإن هو لم يعلم وجه الربط بين عذاب الكافرين، مع كونهم لا يخرجون عن مشيئة الله، فليقرَّ بجهله، ويسأل ربه أن يُعلمه، فإنه لا يؤتي العلم إلا هو سبحانه. أما إن صار يلفق التأويلات كما رأينا بعض أكابر

فقهائنا يفعلون، فليعلم أن ذلك من نقص إيمانه لا غير؛ وليحذر أن يلقى ربه عليه، فإنه سبب من أسباب الهلاك، إلا أن يتوب الله على عبده.

ولما كان قائد كل دابة هو الله، بغض النظر عن صنف الدواب، وهل هي مخالفة أم موافقة للأمر، كان الوصول لا يكون إلا إليه سبحانه! فهل ترى أن الحق يهدي إلى سواه؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا! وهل معه سوىً، حتى يدعو إليه سبحانه؟ تعالى الله! لذلك أردف عليه السلام قائلا: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦]؛ يبشرهم من حيث لا يشعرون، أن كفرهم لن يمنعهم من الوصول إلى الحق، لأنه ما ثم ما يوصل إليه إلا هو. ثم يقول الله بعد ذلك: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ [هود: ٥٧]، يُخبرهم –عليه السلام– أنه لا يهتم لكفرهم؛ لأنه ما كُلِّف إلا ما يُكلَّف كل رسول، وهو البلاغ؛ فإذا أدى الأمانة فما يضره من كفرهم شيء، كما لا يضر ربه وربهم. وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [هود: ٥٧]؛ أي إن كفرتم؛ فإن لله عبادا غيركم سيؤمنون بما كفرتم به. وكما أن كفركم لن يضر الله شيئا، فكذلك إيمان من سيؤمن لن ينفع الله شيئا؛ وإنما: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود: ٥٧]، يحفظ المؤمنين ويحفظ الكافرين بما استودعوا في حقائقهم في علمه، وهو غني عن الجميع سبحانه! ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ [هود: ٥٨]: لما انتهى وقت الامتحان، وجاء وقت الختم على النتيجة التي هي إما سعادة وإما شقاء، نجى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه، لا بقوة منهم؛ وأرسل العذاب على من كفروا من عاد.

وقد كانت عاد الأولى قد ابتليت بالجدب والقحط، فأرسل الله إليهم سحابا؛ فظنوه ممطرهم، فإذا هو عذاب من الله أخذهم أخذا شديدا، كما أخبر الله عنهم بقوله سبحانه:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤ – ٢٥]. فجاءهم العذاب في صورة الرحمة، جزاء لهم على إنكارهم الحق في صورة هود عليه السلام؛ حتى يعلموا أن الأمر ليس للصور، وإنما بمن ظهر بها. وهذا من التعليم العملي، بعد أن لم ينفع معهم الكلام. ثم بعد تحقق هلاك صور أنفسهم، ذهبت عنهم ظلمتهم التي كانت تمنعهم من تبيّن كلام هود عليه السلام، فعلموا ما لم يكونوا يعلمون؛ لكن بعد أن ختم الله عليهم باللعنة في الدنيا والآخرة، التي لا بد أن يدخلوا معها النار. بل إن العذاب الذي وقع عليهم في الدنيا، هو جزء من عذاب الآخرة عُجل لهم؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وأما دلالة الوجه الهودي على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن حيث الدعوة نفسها؛ نعني أنه صلى الله عليه وآله وسلم دعا أمته من حيث صورته ومن حيث صورة كل نبي، فعدد لهم مصدر التلقي (من حيث الصورة فحسب) حتى يتنبهوا، إلى كون الحق غير متقيد بصورة في المعتقَد، إن هم فهموا عنه. ثم إن الدلالة أيضا هي من حيث كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ما استدعى لأمته عذابا مهلكا حتى يعدل استعدادهم لقبول الحق؛ بل أغنت عن ذلك فتن الدنيا وأنواع الهموم والابتلاءات؛ فإن أصابهم منها شيء رجعوا إلى ربهم بالإيمان عن قرب وإن لم يتحقق لهم العلم. كل هذا قبل أن يأتيهم الموت فيُحال بينهم وبين السعادة. من هنا تجد أغلب أفراد الأمة يتوبون قبل موتهم فيغفر الله لهم ذنوبهم ببركة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم. وقد رأينا هذا من كل من لم يتجرأ على الله ورسوله، فيهتك عن نفسه حجاب العناية. فما أقرب إلى رحمة الله من هذه الأمة، إن هي لزمت الأدب ومراعاة الحرمة! كل هذا في حق العامة منها، أما خواصها، فإنه مع تربية الله لهم بما سبق أن ذكرنا من

أنواع البلاءات، تذهب ظلمتهم هنا، فيحصل لهم علم بالحق على قدر استعدادهم. فإن كان باستعدادهم قصور، عدله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكيفية مباشرة كما وقع للصحابة رضي الله عن جميعهم، أو بكيفية غير مباشرة في صورة ورثته من أمته، فيحصل لهم ما لم يخطر على بال الأمم السابقة من عظيم الحظ في الله. ووالله لو علمت الأمة ما فتح الله لها من أبواب الرحمة الخاصة والعلم الخاص، لمات أفرادها فرحا؛ ولكن الله من حكمته، ما يطلعها إلا على ما تطيق كل مرة، إكراما لها وتفضيلا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، الذي ليس إلا الله عند كل عارف، من أهل الحق أو من أهل الباطل؛ ﴿ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، الذي ما هو إلا اختلاف الصور المورث للحيرة، لا عين الصور؛ هذا في حق الخصوص؛ ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، هذا في حق العموم الذين ليسوا عارفين. فما منا بفضل الله إلا سعيد، ولله المنة والشكر.

الفصل التاسع عشر

الوجه المحمدي الصالحي

صلاح الشيء هو بلوغ المراد منه، وصلاح الإنسان بمعرفة حقيقته. وقد أرسل الله صالحا عليه السلام إلى ثمود، الذين كانوا في نعمة من الله؛ فلم يشكروا بل كفروا وظنوا أن ما هم فيه لن يزول.

وعبادة الأصنام التي دأبت عليها أمم كثيرة من بني آدم، تدل على قصور الإدراك عند غالبية الناس، وغلبة الحس عليهم؛ حتى لا يكادون يؤمنون بغير ما يرون بأعينهم. وتمسكهم بالصور المشهودة لهم، أوصلهم إلى تقييد ما يعظمونه منها بالنحت على الحجر أو غيره؛ فنشأت الأصنام التي صارت حجابا لهم عن الحق. فكان كل رسول يأتي، يعمل على إعادتهم إلى أصل الدين. فمن كان يؤمن من القوم كان ينجو من الحجاب؛ ومن كان يغلب عليه الحس ولا يتمكن من تصديق الرسول، كان يبقى على الكفر. ومعنى الكفر الذي هو الستر في اللغة، يدل على أن الحق عند الجميع: المؤمن والكافر؛ لكن الكافر لا يعلم أنه معه. هذا هو معنى الكفر في الشرع.

فلما خاطب صالح قومه، ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ [الأعراف: ٧٣]؛ أي ما تظنونه غيرا، ليس هو كذلك؛ فاعبدوه كما يليق به سبحانه، لا كما اعتدتم عن آباءكم، أو أعطتكم عقولكم. ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٣ – ١٥٤]؛ فغلبت عليهم ظلمتهم، وشكّوا في صدقه حتى طالبوه بآية. فجاءت الآية على صورة نفوسهم: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٥ – ١٥٦]. والناقة من "النِّيق" وهو أرفع موضع في الجبل، ومن "آنَق" بمعنى أَعجب، على صورة ارتفاع نفوسهم وإعجابها بحالها. وقد قيل إن هذه الناقة خرجت من صخرة، فجعل الله لها يوما من شِربهم وجعل لهم شربا؛ على شرط أن لا يؤذوها، وإلا عوقبوا.

وصور الموجودات عند بروزها للوجود، يُعتبر ظهورها ارتفاعا عن الأصل؛ وإلا ما ظهرت. فلما ظهرت بجمال الصفات، فتنت العقول ومالت بها عن الحق. والنفوس المتولدة من هذه الصور، لما ظنت لنفسها الاستقلال، صارت كالمنافس للحق؛ فابتلاها الله بالشرائع لما جعل لها نصيبا معلوما، وجعل لنفسه عندها نصيبا. فإن هي التزمت بما أُمرت وما اعتدت، فإن الله جعل لها النجاة مآلا؛ وإن هي تجاوزت وظلمت، فإنه جعل لها العذاب.

ولما فطن بعض الناس إلى أن الشأن هو مجاهدة نفوسهم في الله، حتى يظفروا بما يُحال بينهم وبينه؛ أرادوا تجاوز الحد المشروع، فغالوا في المجاهدة إلى الحد الذي قطع عنهم الانتفاع لمّا فسدت أمزجتهم وانحل تركيبهم. ولولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، كما قال ابن عطاء الله رضي الله عنه. فالنفس بالعمل المشروع لها شرب من الروح، والروح بالحس لها شرب من النفس؛ والمراد تحصيل النفع، والعمل على استمراره؛ لا العكس. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:«...فإن المُنْبَتَّ لا سفرا قطع، ولا ظهرا أبقى»[1]. والمطلوب معرفة الحق والإبقاء على حقيقة الخلق؛ فالمعرفة هي غاية السفر الذي هو السلوك،

[1] . أخرجه البيهقي في السنن الكبرى.

والنفس هي وسيلته الواردة في الحديث بلفظ الظهر. وقد جاء عن أنس رضي الله عنه، أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فحمد الله وأثنى عليه، فقال: « ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؟ لكني أصلي، وأنام، وأصوم، وأفطر، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي، فليس مني»[1]. فهؤلاء القوم نظير لمن أراد قتل الناقة من قوم صالح، وهم من ضل وهو يحسب أنه يُحسن صنعا. والصفات التي أرادوا التلبس بها، هي صفات نزاهة؛ وهي لا تؤدي إلا إلى ذهاب حكم النفس. وقد يظن بعض من لا علم له أن المقصود عند أصحاب الطريق من الفناء هو هذا؛ والحق أن الفناء المقصود، هو عين البقاء بالله. نعني أن من يتصور أن الفناء هو ذهاب عين العبد فقد جهل؛ وقد قال الله في هذا: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فبقاء وجه الرب هو بقاء صورة العبد؛ وتميّز الصورة العبدية (التعين) هو مسمى النفس. فالنفس آية لله كما كانت الناقة، أي دالة عليه من حيث الأسماء.

ولما كان وجود صور الخلق دالا على الله بالله من حيث كونها قائمة به وهو قيومها، اختلفت مشاهد أهل النور فيها، فكانت على ثلاثة أصناف:

١. صنف يشاهد الحق، ثم يشاهد صور الخلق في المرتبة الثانية: وهذا أعلى ما يكون من التحقق، وصاحبه أحدي المشهد. والإمام فيه عندنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي حكي عنه أنه قال: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله". واسم أبي بكر يتضمن البكور، وهو في التجلي أولى مراتب التنزل الذاتي التي هي الأحدية، والتي هي باطن الواحدية. وهذا المشهد

[1]. متفق عليه.

من باطن محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أثر هذا البكور في الصديق رضي الله عنه، حتى كان أول الناس استجابة لدعوة الإسلام. فانظر ما أعجب أمر الحقائق.

٢. وصنف يشاهد صور الخلق ثم يشاهد الحق بعدها: وهذا يكون واحدي المشهد. والإمام فيه عندنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي حكي عنه أنه قال: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله بعده". واسم عمر متضمن لمعنى العمار، ولا عمار إلا بالخلق؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]. وقد حكى الله هذا القول على لسان صالح عليه السلام، وهو كلام يوافق الدعوة إلى التوحيد في قوم حُجبوا بالخلق عن الحق. وهذا المشهد من ظاهر محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

٣. والصنف الثالث، يشاهد الحق والخلق متساوقين متلازمين. وهذا لا يكون إلا للمحمديين الذين تعطي حقيقتهم الجمع بين الحق والخلق؛ وهو أتم في العلم. والإمام في هذا المشهد عندنا علي عليه السلام الذي حكي عنه أنه قال: "ما رأيت شيئا إلا رأيت الله معه". واسم علي متضمن لمعنى العلو، الذي هو علو في العلم. وذلك أن من يشهد الحق قبل الخلق، فقد مال إلى الحق؛ ومن يشهد الخلق قبل الحق، فقد مال إلى الخلق؛ ومن شهدهما معا، فقد عدل واعتدل واستقام. وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ [هود: ١١٢]. وهذا المشهد من حقيقة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى هذا، فإن الصنف الأول والثاني سالكان: الأول من الحق إلى الخلق، والثاني من الخلق إلى الحق؛ وأما الثالث فمقيم، ومقامه: ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ١٣]، بسبب كونه برزخا بين الحق والخلق. بمعنى أن المقام يكون للحق أو يكون للخلق، أما البرزخ فلا مقام له؛ لأنه خط اعتباري فاصل بين المقامين.

ولما خالف الرهط من قوم صالح أمر الله، وقتلوا الناقة التي كانت لهم آية، وتحقق لهم العمى في الحق، الذي هو ضد الهدى؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت: ١٧]؛ أهلكهم الله بأن دمر أجسادهم (صورهم) التي كانت حائلة بينهم وبين معرفة الحق؛ فهداهم إليه من وراء العذاب؛ وهو معنى قوله سبحانه: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل: ٥٠]. فتبين أن العمى في الحق هو عين الإبصار، لكن من غير شعور. ولولا هذا المعنى ما سمي الكافر كافرا؛ نعني أن الكافر ما فقد الحق، وإنما يُعوزه الشعور به وحسب.

قيل أن الناقة كان لها ولد، فلما قتلوها صعد ولدها إلى أعلى صخرة وصاح ثلاث صيحات. وولد الناقة في التعبير هو السر الكامن في النفس؛ ولما تحقق هلاك النفس صاح السر على القوم في المراتب الثلاثة فأذهب أعيانهم فيها، فكان الحكم فيهم لروح الله الأصلي المنفوخ. فصار حكمهم حكم من فقد عقله من أهل الجذب، فإنه وإن كان لا يعقل شيئا عن نفسه، إلا أنه بالله في كل أحواله بالحكم الأصلي. لكن بين هذا الصنف الكافر بالخلق (أي المحجوب عنهم)، ومن يجمع من المحمديين بين شهود الحق وشهود الخلق، بون شاسع من حيث العلم والمرتبة.

الفصل العشرون

الوجه المحمدي الإبراهيمي

لقد سبق أن تناولنا بعض ما يتعلق بإبراهيم عليه السلام في أحد الفصول السابقة، وسنتناول هنا جوانب أخرى من هذا الوجه الرسالي البارز، بحسب ما يسمح به الوقت.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]. الخليل من الخَلّة ومن الخُلّة. فالخليل من الخَلّة التي هي الحاجة، هو الفقير؛ والخليل من الخُلّة، التي هي الصداقة التي ليس فيها خلل، هو الصاحب الخاص.

وإذا أخذنا الخليل بمعنى الفقير، فإنه يكون من الله امتنانا على إبراهيم عليه السلام بتحقيقه بفقره التام، بالدرجة التي يمتاز فيها عن سواه من عامة الفقراء وخاصتهم؛ إذ كل الناس فقراء إلى الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]. وكما أن الغنى صفة من الصفات الحسنى التي هي ثناء على الموصوف بها سبحانه، فإن الفقر من صفات الثناء على العبد؛ ذلك أن غنى الله يظهر على العبد بمقدار فقره؛ كالورقة تقبل من الكتابة بمقدار بياضها، وبياضها عين فقرها الذي هو خلوها عن الكتابة.

وعلى هذا فإن إبراهيم عليه السلام كان مظهرا حقّيّا محضا، بسبب فقره التام من نفسه. وهذه أعلى مرتبة يطمح إليها العبد.

أما الخليل بمعنى الخُلة، فإنه يدل على أن الحق قد تخلل الصورة الإبراهيمية، حتى صار لا يُميَّز بينه وبين الحق إلا بالصورة المقيدة. وهذا أقصى ما يصل إليه العبد من التحقق، وهذا هو معنى الخلة. نعني أنك إذا طلبت إبراهيم وجدت الحق، وإذا طلبت الحق وجدت إبراهيم؛ وإلا ما هي بخُلة.

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:« لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته»[1]؛ يريد صلى الله عليه وسلم أن ربه لم يترك منه خللا يمكن أن يملأه غيره، فهو خليل الرحمن حقا بالأصالة. ومن كان على هذه الحال، لا تكون علاقته بالناس والأشياء إلا ظاهرية، بسبب كون الحق قد ملأ عليه وجوده. ومن هذا الباب قول عائشة رضي الله عنها عن حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:" كان رسول الله صلى الله عليه، إذا كان عندي كان في مهنة أهله، فإذا نودي بالصلاة كأنه لا يعرفنا".

ولما كان إبراهيم عليه السلام قد دعا قومه إلى الخروج عن التقييد التشبيهي، الذي يكون في أقصى صوره مع عبادة الأصنام، إلى الحق المتجلي في صورته حتى يأخذهم منه إلى الإطلاق، فإنهم ما رأوه إلا تشبيها آخر، ينقض عليهم تشبيههم، وما رأوه مضيفا إلى ما عندهم شيئا؛ وكانت صورة دعوته عليه السلام:﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ أي هدم عليهم تشبيههم ودعاهم إلى تشبيه أكبر منه في نظرهم.﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٩]؟ لأن الشيء ينقض بنقيضه لا من نفس جنسه.﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]؛ أي مظهر التشبيه الأكبر.﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنبياء: ٦١؛ حتى ينقضوا عليه دعوته،

[1] . متفق عليه، واللفظ للبخاري.

حسب زعمهم، وما أعطاهم ظنهم؛ ويريدون أن يكون ذلك أمام الأشهاد، حتى يقطعوا دابر هذا الأمر. ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٢؟ يريدون منه عليه السلام أن يشير إلى نفسه، حتى يجعلوا دعوته إلى تشبيه محض؛ فصرف نظرهم إلى نوع التشبيه الذي يقرّون له بالألوهية. ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]؛ يدلهم على عدم انفكاك التشبيه عن التنزيه بعدم نطق الأصنام؛ فهو تنزيه في حقها. وبهذا تكون الأصنام تشبيها للتنزيه لا تشبيها تاما. ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، بعدم تمييزكم لهذه الأمور. ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]؛ نُكسوا بسبب تجليه الخليلي، الذي لا ينفصل فيه الفقر عن الغنى إلا تقديرا؛ لكن إن أردت تتبع الفقر وجدته غنى، وإن أردت تتبع الغنى وجدته فقرا. وهذا يعطي الانتكاس. ويقصدون بقولهم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أن تشبيههم لا ينفصل عن التنزيه من الأصل. ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٦]؛ لأن الذي لا ينطق، لا ينفع ولا يضر؛ فأصل الفعل الكلام، ومن لا كلام له لا فعل له. ينبههم عليه السلام إلى مراتب المعرفة، فنزل بهم إلى مرتبة الفعل. وما أنكر عليهم –عليه السلام– إلا كونهم يعتقدون أنهم بعبادتهم للأصنام التي هي صورة تنزيههم، غير عابدين لله الضار النافع. ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٧]؛ يذمهم لكونهم يتوهمون أنهم يعبدون غير الله، وما يعلمون أنه لا يخرج عن عبادته سبحانه أحد. والعبادة المقصودة هنا، هي العبادة العامة المشتركة الإلهية، لا العبادة الشرعية الربانية. وذلك لأنهم إن علموا بأمر العبادة الإلهية، فإنهم سيقبلون حتما العبادة الربانية؛ بعكس من يؤمن بالعبادة الربانية، فإنه لا يقبل العبادة الإلهية

إلا مع المعرفة. فالعبادتان إحداهما بالنسبة إلى الأخرى كالجزء من الكل؛ ومعلوم أنه من الكل يمكن أن تعلم الجزء، لكن لا يمكن أن تعلم الكل من الجزء ضرورة. لهذا تجد بعض من يتبع الشريعة، ينكر أن يكون الكافر عابدا لله في كفره.

فلما هم عليه السلام أن يهدم عليهم عقيدتهم التشبيهية، هموا بهدم تشبيهه الذي هو صورته، عينا بعين وسنا بسن: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٨. ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فأخرج الله التنزيه من التشبيه، وظهر الغني من الفقير؛ وقيل ما أحرقت النار إلا وثاقه، فكان هو الوثاق، عليه السلام. ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، الكيد الذي أراده القوم، هو تسوية الدعوة الإبراهيمية بما هم عليه من عبادة للأصنام؛ فجعلهم الله الأخسرين بأن جعل الحق يظهر لهم من عين ما زعموا أنه باطل، وجعل التنزيه الذي كانوا يطلبونه بنقض التشبيه، يظهر لهم منه؛ فانتقضت عليهم عقيدة التقييد.

ومع هذا فما آمن مع إبراهيم إلا ابن أخيه لوط وزوجته سارة، بسبب كون دعوته عليه السلام كانت من الشيء إلى مقابله في نفس المظهر؛ وهذا من أعسر الأمور على العقول، رغم أنه هو المطلوب. ويبقى استعداد المدعو وأسلوب الدعوة لدى الداعي –بعد إذن الله– أهم المحددات لمدى بلوغ الغايات.

وقد أمر الله باتباع ملة إبراهيم في مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥]، فعلمنا أن حقيقة التوحيد الذوقية هي الخُلة، وعلمنا أن الشرك المنفي عنه –عليه السلام– هو توهم وجودين: وجود حق، ووجود خلق؛ بينما الوجود واحد. والاختلاف هو في الأحكام فحسب. ولولا أن الوجود واحد ما كان الله يتصف

بالقيومية، لأن الوجود لا يقوم بوجود آخر؛ وما القيومية في الحقيقة إلا قيومية حكم بحكم آخر. فعلى هذا فالخلة معنى خاص في القيومية، والقيومية خلة عامة مشتركة.

ولما كان أمر هذا التوحيد لا تدركه العقول إلا بالكشف، فإن أغلب المؤمنين رفضوه وعدوه نوعا من الكفر؛ فثبت أن التوحيد الإبراهيمي توحيد خاص، والخواص هم وحدهم من يطيق أن يولّوا شطره. وإن كان التوحيد الخاص مأمورا به في الخطاب العام، فهذا لا يعني أنه في متناول العوام؛ بسبب كون الخطاب العام، لا يستلزم عموم الاستجابة كما هو معلوم.

الفصل الواحد والعشرون

الوجه المحمدي اللوطي

قضية قوم لوط مرتبطة بالتوحيد الذي جاء يدعو إليه إبراهيم عليه السلام، فهي متفرعة عنه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود: ٧٤].﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود: ٧٥]، يريد أن يجد لهم العذر، ويسأل الله لهم التجاوز، لما كان الوجود بين حكمين. ونظر إبراهيم كان إلى أصل الحكمين الذي هو الذات؛ لكن الله أبى إلا أن يبيّن الأمر للناظرين.﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٧٦]، حتى يقوّم اعوجاج إدراكهم، ويعيدهم إلى الصراط المستقيم.﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ [هود: ٧٧]، جاءت القوى الروحانية بالمعاني العلوية؛ ﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود: ٧٧]، لما يعلم من انحراف إدراك قومه، وبُعدهم عن الحق؛ فإن أغلب من يُجادل في الحق من الناس، يكون جاهلا بما يخوض فيه؛ فكيف سيفهم المراد ممن يريد تعليمه، وهو متمسك بأقوال يرددها بحكم العادة والتقليد؟﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٧٨]، لمّا سمعوا منه ما يُخالف اعتقادهم أنكروا عليه، يريدون أن يُلزموه بما هم عليه.﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ [هود: ٧٨]، سيئاتهم ما أنكر الله عليهم: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٥ – ١٦٦]. وكل عمل ظاهر أساسه اعتقاد باطن، فإذا انحرف الاعتقاد انحرف العمل. وسبب إتيان قوم لوط للذكران، هو اعتقادهم بالوجودين، وجود قديم ووجود حادث؛ فظنوا للصور الحادثة وجودا مستقلا، فألحقت بالتذكير. ذلك أن الحق مذكر، والصورة مؤنثة؛ فإذا أعطيت الصورة مرتبة الوجود الحق، فقد صارت عند الناظر بهذه العين مذكرة. فهذا هو الجمع بين الذكرين. والأصل كما قلنا هو وجود حق (مذكر) ظهر في صورة عدمية (مؤنثة). ألا ترى أن آدم عليه السلام لما كان على الصورة، كانت حواء صورة له؟! فلا يجتمعان في المرتبة أبدا. وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فلما ألحق قوم لوط الصورة بالحق في المرتبة، وصفهم بالظلم. وكل ما سيلحق بهم من عذاب، هو رد لهم عن هذا الظلم الشنيع.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود: ٧٨]؛ الكلام من الحق المتجلي بصورة لوط؛ ﴿ بَنَاتِي ﴾: أي صوري المتعددة، التي هي في مرتبة الأنوثة؛ ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾: هن أليق بالمرتبة الانفعالية المختصة بالحدوث. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ ﴾ [هود: ٧٨]: وهم الأرواح الملكية التي جاءت في صور بشرية. بعثهم الله حتى يكونوا حجة على هؤلاء القوم؛ فإن كانت حقيقة الملك الروحانية تمتاز بالمرتبة عن صورته البشرية، وهو المخلوق، فكيف لا يُميّز هؤلاء فيها بين الحق والخلق؟! ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود: ٧٨] ؟ يعلم مراتب الأحكام، ويعمل بما علم؟ والرجل في الطريق، لا تُقال إلا للعارف بالحق؛ فإذا انضاف إليه الرشد، فقد صار عالما ربانيا متحققا حكيما. ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود: ٧٩] ، فاتضح من قولهم أن طبعهم الكثيف، غطى عين عقلهم، فما لهم من رجوع عما هم فيه. ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ [هود: ٨٠] ، وهي قوة الحق الذي فيهم، وإن كانوا

غير عارفين بها، يستدعيها عليه السلام من باطنهم حتى يتحقق الأمر الذي يريده منهم؛ ونسبها إلى نفسه بقوله ﴿لِي﴾ لأنه الوجه المحمدي في زمانه عند قومه، فهو أحق بها منهم، من باب قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦].﴿أَوۡءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: ٨٠]: وهو الحق الذي هو ربه وربهم. وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:« يغفر الله للوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد»[1]؛ ينبه صلى الله عليه وآله وسلم إلى حقيقة ما هم عليه قوم لوط، من حيث كون الأحكام كلها نسبتها واحدة من وجه الحق، والشؤون الذاتية مرتبتها واحدة إذا ما تجاوزنا النِّسب. وهذا مشهد محمدي أعلى مما كان عليه لوط عليه السلام. ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: ٨١]: قالت الملائكة إن الحق الذي عند لوط لن يصل إليه قومه بسبب انحراف استعدادهم، وإنهم (أي الملائكة) هم من سيتولون تعديل هذا الانحراف، حتى يزول المانع.﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ٨١]، أي اسلك بمن صدقك واتبعك من حيث الباطن إلى هذه المعاني، ولا تخاطب غيرهم بها فيفهموا منها غير ما تريد.﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: ٨١]، أي ولا يلتفت من يتبعك إلى أقوال المخالفين، حتى لا تأخذهم عما هم فيه؛ فإن السالك مشتغل بنفسه لا بغيره. وبما أن الصور هي أصل هذا الابتلاء من البداية، فقد جعل الله النظر الذي هو الوسيلة إليها هو سبب هلاكها؛ ولما كانت زوجة لوط على استعداد قومها، فـ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ [هود: ٨١].﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ [هود: ٨١]، أي ظهور الحقيقة جلية لهم، وهو أمر آت لا محالة؛ إما في الدنيا وإما في الآخرة؛ وكل آت قريب كما يقال. ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: ٨١]؟!﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود:

[1]. أخرجه البخاري.

٨٢]، وهو ظهور الحق لهم في عين الصور التي اعتقدوا مغايرتها، ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود: ٨٢]، أي جعلنا ظاهر الصور باطنها؛ وبعد أن كانوا محجوبين بها، صاروا يشهدونها في الحق. ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣]، فانهدت صورهم وأهلكت ذواتهم، فعادت أرواحهم إلى إطلاقها الذي يرتفع معه الحجاب، لا المعلوم من العذاب؛ فعلموا ما لم يكونوا يعلمون.

الفصل الثاني والعشرون

الوجه المحمدي الإسماعيلي

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ ﴾ [مريم: ٥٤ – ٥٥]: ﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ : يا محمد ﴿ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الذي هو كتابك ﴿ إِسۡمَٰعِيلَۚ ﴾ ، وهو الابن البكر لإبراهيم عليهما السلام؛ والابن سر أبيه. أخبر الله عنه أنه كان صادق الوعد، وما يثني الله إلا على صفته سبحانه فيه، وينبهنا إلى حظه من ربه. ومعلوم أن صدق الوعد لا يكون إلا عن اقتدار، لأن الوفاء بالوعد قد يتعذر على من لا اقتدار له. ثم إن الوفاء بالوعد قد يعرض له تأخير أو نقص في الموعود به، ومع ذلك يكون وفاء؛ لكن صدق الوعد يتطلب الوفاء التام بالموعود على أكمل وجه. فدلت هذه الصفة على أن إسماعيل عليه السلام كان متصرفا بالأسماء الإلهية عند كونه رسولا نبيا، على علم خاص؛ وهو معنى الخلافة الإلهية. ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾؛ الأهل أهل إيمان به، كان يأمرهم بالصلاة، التي هي تحقيق الصلة بالله، عن طريق التزكية التي تضمنتها الشرائع. فهي نفسها المنتجة للزكاة، ﴿ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾؛ ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ ، لأنه كان صورة إلهية كاملة؛ فإن الله لا يرضى إلا عن نفسه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر: ٧]؟ رضي الشكر لعباده لأنه صفته، وما رضي لهم الكفر لأنه ليس له سبحانه.

هذا في مرتبة الأفعال والصفات، أما في مرتبة الذات، فقال: ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾، وما خص صفة من صفة؛ لكن مع ذلك يدخل التخصيص من جهة الرب المضاف إلى ضميره؛ لأن الرب قد يكون أي اسم من الأسماء الإلهية التي ترب العالم. ولما علمنا سابقا أن إسماعيل كان خليفة مع كونه رسولا، فإن ذلك يجعلنا على علم بأن رب إسماعيل هو الله، الذي هو رب الجميع من وراء كل الأسماء الفرعية التي هي وجوهه؛ وذلك كقول الله تعالى: ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾؟ [غافر: ٢٨]، في حق موسى عليه السلام، وحكاية لقول محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾ [الشورى: ١٠]. فلما أخبر الله عن كون إسماعيل مرضيا، علمنا أنه كان على الصورة الكاملة. وذلك أن أعيان العباد مرايا، تتجلى فيها الصورة الإلهية، فإن كانت المرآة على استعداد تام ظهرت فيها الصورة على الاعتدال والكمال؛ وإن كانت المرآة محدبة أو مقعرة أو غير مجلوة، ظهرت فيها الصورة معوجة أو غير واضحة. فالثناء على المرآة الإسماعيلية، جاء لأنها كانت على أتم هيئة وأحسن اعتدال؛ والرضى الإلهي كان بسبب مشاهدة الحق نفسه على الصورة الأصلية المحمدية فيها. وللعبد حظ من هذا الشأن إذا نظر إلى المرآة الزجاجية، فإنه يحب منها أن تُظهره في أحسن هيئاته؛ فإذا ظهرت له صورته كما يرجو رضي؛ وإلا أرجع مذمته على المرآة لا على صورة نفسه. والسر في هذا، الألوهية السارية في العالم، والتي تجعل الدميم عرفا، يعلم أنه على صفة من الجمال قد لا تتمكن أي مرآة من إظهارها. هذا الكلام بالنسبة إلى الرب الذي هو الله، أما إذا كان الرب غيره من الأسماء، وعلى الخصوص من الأسماء المتقابلة، فإن العبد لا ينال إلا رضى ربه خاصة، ويبوء بسخط الأرباب المقابلة لربه. ومن هذا الباب الغضب الذي وقع على العباد الذين ذكرهم الله في القرآن أو على لسان نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، ومن كان

على شاكلتهم ممن يظهر خبرهم يوم القيامة. فمن ذلك قول الله في عموم المغضوب عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الممتحنة: ١٣]، غضب الله عليهم من كونهم عبادا لأرباب (أسماء) مخصوصة، وغضبه من الأسماء المخصوصة المقابلة؛ ولهم رضى خفي من وجه أربابهم، يشفع لهم عند الله يوم يأذن سبحانه بهذه الشفاعة. وإذا عرفت ما ذكرناه في أمر المرآة، فإنك ستعلم أن الغضب متعلق بالتشوهات الاستعدادية التي تعطي تشوهات في الصورة؛ فهو إذن أمر عرضي متعلق بأحكام الشرع. وأحكام الشرع محلها الدنيا؛ فإذا عادت الاستعدادات إلى سلامة الفطرة، بالتربية الدنيوية المتضمنة للمجاهدات، أو بالعذاب الأخروي، الذي هو تربية متأخرة في حق المجرمين، تعود الصورة إلى أصلها، فيعود الحكم للأصل الذي هو الرحمة. ولهذا جاء في الحديث القدسي: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

ثم يقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ فهذا العمل روحه: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، فتبين الرفع لقواعد البيت الحرام بموازاة رفع قواعد البيت القلبي بالعقائد التوحيدية والأعمال الشرعية. والبيت لا يكون بيتا إلا بساكنه. فبيت في السماء وهو البيت المعمور، وبيت في الأرض وهو محل الكعبة المشرفة، وبيت في الإنسان وهو القلب من العارف. وما الساكن إلا الروح المحمدي الذي هو مطلب الطائفين من كل عالم. فكأن العوالم لما كان صدورها عنه، صارت لها معه صلى الله عليه وآله وسلم رحم تشتاق إلى وصلها بزيارته في العالم الذي تكون فيه. وهذا بالنسبة إلى من افترق عنه بحقيقته؛ أما من رجع إليه بكليته، فهو معه حيث كان.

---

[1]. متفق عليه.

ورفع إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت، كان إيذانا لأهل الأرض بزيارة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فكان سعيهما –عليهما السلام– من جهة لخير عموم الناس المحتاجين، ومن جهة أخرى خدمة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، سألا ربهما تقبلها. وقد سبق أن قلنا أن رب العالم ما هو إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من كون العالم لا يعلم من الحق إلا وجهه؛ أما العلم الخاص الذي يعلمه الأنبياء عليهم السلام والورثة، فإنما هو به صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يُنسب في الحقيقة لهم. فاعلم هذا!

وقد انضاف إلى البيت الحرام في الأرض، قبره عليه وآله الصلاة والسلام، فصارا صنوين من حيث قصد الزيارة، كما كانت الشهادة شقين باعتبار المشهود له من حيث النسبة، وواحدة باعتبار حقيقتها الجامعة؛ لذلك كانت زيارته صلى الله عليه وآله وسلم لزائري البيت الأول واجبة، لمن كان يعقل عن الله.

الفصل الثالث والعشرون

الوجه المحمدي الإسحاقي

يقول الله تعالى في حق إسحاق عليه السلام: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات: ١٠] ؛ والحلم صفة قرينة للسيادة والملك، ولولاها لأهلك كل ملك رعيته، بسبب كثرة مخالفاتهم؛ لذلك فالبشارة هي بشارة بالسيادة. والحلم هو تأخير حكم الغضب الذي يطلب أخذ المخالف، فهو نفسه مدلول: «سبقت رحمتي غضبي»[1] ؛ والصفة تتبع الموصوف.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] ، أي نهاية سلوكه ومنتهى تربيته ببلوغ رشده. رأى إبراهيم رؤيا لابنه يبتليه فيها ليظهر فوزه المطوي في الغيب، فتتحقق البشرى. فكانت الرؤيا ابتلاء لإسحاق في الباطن ليتخلص من نفسه بتمكين مربيه من ذبحه عن رضى وتسليم. وجعلها الله ابتلاء لإبراهيم وابنه معا في الظاهر، بسبب تصديق إسحاق التام؛ فهو ما فرق من فرط تصديقه بين عالمي الخيال والحس لما كانت نسبتهما معا إلى أبيه. وذلك أن تعظيم أبيه غطى على عين قلبه أن ترى الفرق.

ولما رأى إبراهيم عليه السلام في الرؤيا أنه يذبح ابنه إسحاق، عرضها عليه: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢]؟ والرؤيا كما هو معلوم منها ما يعبّر ومنها ما لا يحتاج إلى تعبير. وإبراهيم لما حكى الرؤيا، حكاها كما رآها، وما جزم أنها مما يُعبّر أم مما لا يُعبّر؛ علما بأن قتل النفس في الشرائع حرام من حيث الأصل. أما من يقول إن رؤيا

[1] . متفق عليه.

الأنبياء حق، فهو صحيح؛ لكن هذا لا يعني أن يأخذها دائما على ظاهرها، وإلا انتفى التعبير في حق رؤيا الأنبياء؛ وهو غير صحيح. فلزم أن يكون المرجِّح لأخذ رؤيا إبراهيم هنا على ظاهرها غير ما ذكر.

وقد عرض إبراهيم عليه السلام الرؤيا على ابنه لأنها من وجه تخصه، ومن وجه لأنه كان شابا بلغ التمييز، فأراد أن يرى ما عنده. فلما أجاب إسحاق: ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فأخذ الرؤيا على ظاهرها، فوقع تأويلها كذلك؛ وأكد الأمر بذكر الصبر الذي لا يكون إلا على البلاء. فأخذ إبراهيم عليه السلام التأويل من إسحاق عن الله، وسلم أمره لله كما أسلمه ابنه؛ فهذا هو المرجِّح. وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الرؤيا في حديث أبي رزين فقال: «الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت. ولا تحدثوا بها إلا عالما أو ناصحا أو لبيبا؛ والرؤيا الصالحة جزء من أربعين جزءا من النبوة»[1]؛ فتبين أن التحديث بها هو طلب تعبيرها، وإلا فما الداعي إلى اختيار العالم والناصح واللبيب دون غيرهم؟! فابتلاء إبراهيم جاء بعد ابتلاء إسحاق بأخذها على ظاهرها. فاضطر إبراهيم عليه السلام إلى أخذ تعبير ابنه بعد علمه أن الله ابتلاه فيه، فهذا قول الله تعالى: ﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ [الصافات: ١٠٥] ؛ وكان هذا بعد أن عزما على تنفيذ أمر الله. وقال الله عن هذا البلاء: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ ﴾ [الصافات: ١٠٦]، لشدته على الأب والابن معا. والسبب في هذا البلاء، هو ضرورة قطع العلاقة القلبية بين الولي وكل محبوب مما سوى الله. والمقصود بـ"السوى" هنا، ليس هو ما يعتقده الغافلون من الفرق، فهذا لا يليق بإبراهيم عليه السلام؛ وإنما المقصود ما يقع به التمييز بين الحق في

[1] . أخرجه أحمد في مسنده.

إطلاقه، والحق في تجلياته. وهذا لأن الأحدية الكلية تغطي حقيقتها كل أحدية جزئية يقتضيها التجلي؛ فتطلب محقها في عين ظهورها. فالمحق واقع بالحكم العام، والتجلي واقع بحكم البرازخ، والجمع في الحقيقة الواحدة ثابت بإثبات الله للمراتب.

ولما كان المقصود من الرؤيا رجوع إبراهيم عن مشاهدة الحق في إسحاق بالأحدية الجزئية، فإنه بمجرد تحقق ذلك بعزمه إنفاذ الأمر تحققا قلبيا؛ رُفع البلاء بفداء الذبيح بذبح عظيم، كما في قوله: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٧] . ووصف الله الذِّبح بالعظمة (الكبش) لأنه بديل عن المَفْدِيّ، وهو عظيم؛ فالفداء يتطلب اشتراكا في المرتبة بين المَفدي والمَفدي به، وإلا ما صح. وإسحاق هو صورة لنفس إبراهيم؛ فكان المطلوب ذبح النفس قربانا لأحدية الحق في هذه الصورة. وذلك أن العارف لا ينبغي له الوجود مع معروفه ولو حكما؛ هذا مع وجوب الإبقاء على الحكم، حكمة إلهية. فهو نفي في عين الإثبات، كما قال الله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] . وانظر كيف أعقب الله هذا الكلام من نفس الآية بذكر البلاء العام للمؤمنين، فقال جل من قائل: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال: ١٧] ؛ فتبين أن بلاء إبراهيم كان من هذا الصنف، كيف لا وهو أول المؤمنين في زمانه عليه السلام.

واعلم أن المقصود بأنواع البلاء القلب لا غير، فإن تحققت ثمرة البلاء من غير فعل للمأمور به، بل بمجرد العزم، فقد قضي الأمر؛ لأن الأمر بالفعل ليس مطلوبا لذاته، بل هو وسيلة لثمرة قلبية. وإن تُوُصّل إلى الثمرة بمجرد الرؤيا المنامية أو العزم الصادق، كفت عن حصول الأمر في الواقع. وذلك أن القلب يُحصل بالصورة في الرؤيا مثلا، ما يُحصله بالحواس في اليقظة، لذلك يقضي الله –من لطفه– ببلاءات كثيرة على السالكين أثناء سلوكهم في عالم

الرؤيا والخيال، فيحصل بها استخراج كمالاتهم دون أن يظهر عليهم في الحس من ذلك البلاء شيء. وهذا من أوجب ما ينبغي أن يعتني به الشيخ والمريد من أسباب التربية، لمن كان يريد أن يبلغ أقصى الغايات بأيسر الأسباب. وهذا سبيل رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، المتمم لجميع المكارم الخُلقية بما لا يسع المرء إدراكه على حقيقته من جميع الوجوه أبدا.

الفصل الرابع والعشرون

الوجه المحمدي اليعقوبي

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ [يوسف: ٤]، والخطاب ليعقوب عليه السلام من سره؛ ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف: ٤]، الكواكب هي نفوس المؤمنين، والقمر هو نفس يعقوب والشمس هي حقيقته؛ رآهم يوسف عليه السلام له ساجدين، فعلمنا أن يوسف هنا كان صورة للحق. والسجود هو العبادة، والعبادة لا بد أن تكون بين عابد ومعبود. هذه الرؤيا كانت بشارة ليوسف بكونه على الصورة، مثل أبيه عليهما السلام. ولما كانت الصورة بحقيقتها الحقية والخلقية تطلب مظهرا لظهور أحكامها، بمعنى أن جانب الحق لا بد له من عابد، وجانب الخلق لا بد له من معبود، فإن ذلك ما يظهر على صفة الجمع إلا في صورة كاملة؛ وهو ما وقع ليعقوب عليه السلام مع مظهر يوسف. نريد أن نقول: إن الحق من يعقوب كان يعبده يوسف، والحق من يوسف كان يعبده يعقوب. وهو في الحقيقة مظهر لما في الوجه المحمدي من عبادة ومعبودية، من كون حقه معبود خلقه، وكون خلقه عابد حقه. وهذا المعنى هو الذي يشير إليه قول الشيخ الأكبر قُدس سره:

فيحمدني وأحمده ويعبدني فأعبده[1]

[1] . الفتوحات المكية (٣/ ٤٩٨).

والفرق إنما هو في أن يظهر المعنى في صورة إجمال أو في صورة تفصيل، هذا فحسب. وهذا المعنى هو نفسه المراد في قول الله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإياك نعبد عبادة خلق لحق، وإياك نستعين في عبادتنا؛ أي ما نعبد إلا بك، فتكون أنت العابد لنفسك بصورتنا. فعلمنا أن المراد بالخلق ليس إلا الصورة.

ولما ظهر سر يعقوب في يوسف، صارت صورة يعقوب له عابدة في صورة السجود. فهذه صورة فرقية تفصيلية، شاء الله أن يُعلمنا فيها بحقيقة يعقوب عليه السلام. فلما قص يوسف رؤياه لأبيه، وعلم الأب مدلولها، غار عليها أن يطّلع عليها أصحاب النفوس المحجوبة، فيعتقدوا فيها خلاف ما هو عليه الأمر، فيضلوا؛ فأمر ابنه أن لا يقص الرؤيا على الإخوة، حتى لا يكيدوا له بسببها. فجعل الله الإخبار عن مُضمن الرؤيا من قبل يعقوب نفسه وهو لا يشعر؛ وذلك أن عبادته غير المقيدة بصورة الشعائر ليوسف، ظهرت في شدة محبته له وتعلقه به، فعلم منها الإخوة الأمر من دون أن يكون لهم علم بحقيقته؛ فتوهموا أن معبودهم في صورة أبيهم قد صرف إقباله على التمام إلى يوسف دونهم، فلم يطيقوا ذلك؛ إذ أن غاية العابد من معبوده إقباله عليه، الذي هو صورة الرضى. فكان كيدهم ليوسف من أجل تحقيق غاية عبادتهم كما حكى الله عنهم في قولهم: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ ﴾ [يوسف: ٩]. وتأمل قول الله: ﴿ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ ، تعلم أن الأمر هو نِسب متعددة بين وجوه مختلفة، لا غير. ثم إن الغيرة على الحق لا تصح، وهذا (أي الغيرة) قد يصدر من المريدين الذين لم تصح لهم المعرفة، أما العارفون فالوجوه كلها عندهم وجه الله، كما أخبر عن نفسه سبحانه: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝١١٥ ﴾

[البقرة: ١١٥] . وانظر كيف صرح سبحانه باسمه "الواسع"، فكيف بعد هذا يدعو إلى التقييد أحد؟

فلما كانت مرآة يوسف أكمل من مرائي إخوته، وشاهد يعقوب فيها نفسه، فكأنه حصر الحق فيها؛ فأراد الله أن يُخلّصه من هذا القيد، فسلط الإخوة على يوسف كما هو معلوم من قصتهم. فلما غاب يوسف عن أبيه حزن عليه، لأنه فقد الصورة المخصوصة، لا لأنه فقد الحق، وحاشاه.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف: ٦٨] ، وذلك لما طلب أبناء يعقوب منه أخذ ابنه الآخر "بنيامين" بطلب من العزيز؛ خاف –عليه السلام– أن يلقى نفس مصير يوسف؛ فطلب من أبنائه أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ليلفت انتباههم إلى خطر متوهم يلحق بهم إن هم دخلوا جماعة تشتيتا لهمهم، فلا يجدوا على بنيامين نفس ما وجدوا على يوسف من قبل. فكان طلبه عليه السلام من أبنائه هذا الطلب الخاص، من أجل حماية ابنه الآخر؛ وهي الحاجة التي في نفسه قضاها. ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ، لا يتجاوزه؛ فلو كان له العلم المطلق لعلم بأمر يوسف، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، أي: لا يعلمون أنهم ما يعلمون من العلم إلا ما شاء الله؛ وبذلك يستوي الناس في الجهل في النهاية. فلو أناط الله هلاك عالم مثلا بأمر ما، وحجبه عن ذلك الأمر خصوصا، وأعطاه مع ذلك كل علم سواه، فهل سينفعه علمه عندئذ؟ أم سيكون حاله كآحاد الجاهلين؟ لذلك، على العبد الرجوع في كل أمر صغير أو كبير، إلى علم الله وحده، لا إلى علم نفسه فيهلك.

فلما قضى الله ما شاء، وأمسك يوسف أخاه عنده، ورجع الإخوة من دونه إلى أبيهم؛ قال لهم: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف: ٨٣]؛ لأن اختفاء ابنين له كانا في رفقة الجماعة نفسها، لا شك هو أمر مريب؛ لكنه –عليه السلام– مع ربه لا مع سواه، فقال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣] . والصبر الجميل لا يكون إلا مع النظر إلى المبتلي، ودليله قوله عليه السلام: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [يوسف: ٨٣] ، فهو لا يتعلق بالأسباب، ولكن يعلم أن الله هو المتصرف فيه بما يشاء؛ وباطنه يحدثه عن ربه أنه لا يريد به إلا خيرا؛ ورؤيا يوسف من قبل قد علم منها أن ابنه سيكون ذا شأن، فهو ينتظر ما سيكون من أمره.

فلما انقضى زمان البلاء، جمع الله بين يعقوب وكل أبنائه على خير حال. وعند دخوله على يوسف قبل أن يتعرف إليه، تحققت رؤيا يوسف في الحس بالسجود له من قِبل والده وخالته وإخوته، لأنها كانت عادة الدخول على الملوك. وهو قول يوسف بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠]، بعد أن كانت حقيقة.

فالمراد من هذا الكلام، أن يكون العارف مع الحق المطلق عن الصورة، في كل صورة؛ كما دل على ذلك سيد العارفين صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، لأن الثناء المُحصى (المقيد)، لا يكون إلا من الصور وعليها؛ أما ثناؤه سبحانه على نفسه فهو من وراء الصور كلها. وهذه هي عبادة الحق نفسه حقا.

[1] . أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

الفصل الخامس والعشرون

الوجه المحمدي اليوسفي

لما كانت آية يوسف عليه السلام التجلي الصوري، كانت آيته القميص؛ والقميص هو اللباس، وليس إلا الصورة. ولما كان يوسف قد أوتي شطر الحسن، كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في قوله من حديث العروج: «فإذا أنا بيوسف عليه السلام، إذا هو قد أعطِي شطر الحسن»[1]، فإن يعقوب عليه السلام كان قد اتخذه سببا إلى الحسن كله، الذي هو الصورة الإلهية المسماة بالحقيقة المحمدية. والشطر الذي أوتيه يوسف عليه السلام هو الحسن الطبيعي الظاهر، أما باطنه فهو من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا استقلال له عنه. وحتى الحسن الظاهر هو منه صلى الله عليه وآله وسلم، لكننا استثنيناه من أجل أن الناس يتمايزون بعضهم عن بعض بظواهرهم. والظاهر هو نفسه معنى الوجه الذي نتكلم عنه في كل فصل من هذه الفصول؛ وإلا فما نتكلم إلا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

ولما كان الشطر الذي نتناوله هنا هو الجمال الطبيعي المقيد، قلنا إنه القميص. وإذا عرفت مدلول القميص، فقد عرفت اللابس صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك كان القميص آية يوسف كما قلنا: فالقميص الملطخ بالدم دليل فقده من عين شاهده اليعقوبي. والمراد أن الحق

[1] . أخرجه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وإن كان تجليه لا يكون إلا في الصور (بالمعنى الأوسع)، فإنه سبحانه لا يرضى لعبده أن يُقيده بها. ومن المعاني الداعية إلى تجاوز الصور كثرتها، فلو شاء الله أن نقيده بصورة لما بدلها بغيرها. فكان تبديلها إشارة إلى عدم الوقوف معها، من حيث كون الحق لا يتبدل سبحانه.

وإذا كان الله ورسوله قد علّمنا أن لا نقيد الحق حتى بالصورة المحمدية الإلهية الأصلية، التي هي من باقي الصور كالجوهر من الأعراض، بعد أن نعرفه فيها، فكيف يُمكن أن يُطلب تقييده سبحانه بغيرها؟! وقد ذكرنا في الفصل السابق أن هذا هو سبب تغييب يوسف عن أبيه عليهما السلام جميعا.

ولما كان يوسف أقرب الصور من حيث الطبيعة إلى الصورة المحمدية، وظهر فيها سنىً من سناها، كان فتنة لمن ينظر إليه. ألا ترى أنه فتن امرأة العزيز، رغم عزة المكانة؛ فأخذها عن نفسها؟! ألم يأخذ نسوة المدينة عن حسّهن حتى قطعن أيديهن؟!

لكن في المقابل لك أن تسأل: كيف يباع من هذه صفته بدراهم معدودة (أقل من القيمة المعتادة في ذلك الزمن)، وكيف زهد فيه إخوته؟ كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: ٢٠]. فاعلم أن زهدهم فيه من جهلهم به، فلو أنهم شاهدوا فيه ما شاهده أبوهم، لحرصوا عليه حرصه. أما كونهم رضوا فيه بثمن بخس، فهو أيضا من جهلهم بقدره. ومعلوم أن البضائع تختلف من حيث الثمن بين الرخيصة والغالية؛ لكن من كان لا يدخل في صنف البضائع، فكيف يُعرف له ثمن؟ فمن جهلهم بالثمن المناسب له عليه السلام، بيع بأول ما عُرض في مقابله. فهذا من التنزيه، لا من الحقارة كما يُتوهم. ولنضرب لك مثلا من المحسوس، حتى يتبيّن المعنى أكثر: انظر إلى أثمنة الكتب في السوق، أليس أغلاها ثمنا ما كان في مجال معرفي رفيع، وكان صاحبه ممن يُشار إليه فيه؟ وفي المقابل تجد الكتب التافهة، رخيصة الثمن! انظر الآن إلى ثمن المصحف بين الكتب،

ألا تجد ثمنه لا يكاد يغطي إلا الورق منه والحبر؟! فهل ذلك، إلا لأن كلام الله فوق القيمة والثمن؟! لهذا فإن من اشترى يوسف عليه السلام، فكأنه ما اشترى إلا القميص، أما لابسه، فحاشاه أن يُقدّر بثمن! فكان القميص هنا أيضا آية. والسر في هذا الأمر مما ينبغي أن يُستقصى.

ثم كان القميص آية مرة أخرى، لما بعثه إلى أبيه فارتد بصيرا، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف: ٩٦]، فكان هذا بمثابة قول الحق عن نفسه تعالى: ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وإبصار يعقوب بالقميص، دليل على مشاهدته الحق من وراء الصورة، فانتفى عنه حكم القيد عليه السلام. وعبر عن معرفته الحق، كما جاء في قول الله، بقوله: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف: ٩٦]، أي أعلم أن المتجلي في صورة القميص، هو المتجلي في المسمى يوسف. فأنا معه هو من حيث هو، لا مع القمصان. وهذا هو ما لا يعلمه الأبناء المقيِّدون الذين لم يشبوا عن طوق التربية بعد.

ومن هذا الباب الكلام عن الجمال المطلق والمقيد. فالجمال المقيد، هو الجمال المقيد حسا ومعنى فيما تدركه الطباع السليمة، وهذا هو المعلوم عند عموم الناس؛ أما الجمال المطلق، فهو الجمال الإلهي الذي يُجاوز الجمال المقيد إلى ما لا يُعد من الجمال عرفا. وبهذا فإن الجمال المطلق لا مقابل له من القبح، لأن القبح في العرف منه. وما الجمال المقيد في الحقيقة إلا إشارة إلى هذا الجمال المطلق. وهذا أيضا من معاني "شطر الحسن". والجمال المطلق له معنيان: معنى شهادي، ومعنى غيبي. والمعنى الشهادي هو الصورة المحمدية الأصلية، متنامية الجمال أبد

الآبدين، والتي العالم مظهرها التفصيلي؛ أما المعنى الغيبي، فهو الجمال الذي لم يدخل الصورة؛ فهو معنى معلوم الوجود غير مشهود.

وجمال الصورة كما قلنا ظهر في العالم، وليس هو إلا الصفات. ولما كانت صفات الله ظاهرة من صور العالم العدمية، فإن الملك الذي هو صورة لحقيقة يوسف عليه السلام رأى رؤيا: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣]؛ فكانت السبع بقرات، هي الصفات السبع أمهات الصفات الإلهية؛ وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وهذه الصفات لما ظهرت من العالم، كانت كأنها خارجة من تشققات صورته العدمية. والشَّقُّ هو البَقْر في اللغة. فلما ظهرت صفات الحق عند الخلق شهودا، لأنها من حيث الوجود صفات الحق لا تزال، صارت باستمدادها منها كأنها تتغذى عليها؛ بل إن الصورة العدمية غذاؤها الحق، ولولا ذلك ما خرجت من العدم الأصلي. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤] . والسنابل، قيل سميت سنابل لأنها امتداد للزرع، ومنه الثوب المسنبل إذا كان سابغا يجره صاحبه خلفه؛ فكانت السنابل الصفات المتفرعة عن الأمهات الممتدة إلى حضرة الأفعال.

أراد الله من هذه الرؤيا التي رآها الخليفة في الظاهر، أن يدل على الخليفة في الباطن، حتى ينتفع منه الناس مع العالم؛ لذلك عسر تعبيرها على من كان مِن أهل التعبير في العادة. فلما بلغت يوسف عليه السلام عبرها لهم برؤيا حسية، فهو خرج بها من الخيال إلى الحس. وذلك لأن الخيال والحس مشتركان في الصور، يتغذيان من خزانتها معا. ولو أنه –عليه السلام– أولها بحقائقها، ما كانوا يفهمون عنه مراده. فظهرت الأبقار في صورة الحس أعواما، وما الأعوام إلا أيام، وما الأيام إلا تجليات الحق. فالأيام هنا أمهات للأيام، مجمِلة لتفاصيلها، كما

كانت أمهات الصفات مع عمومها. فلما وصل التعبير إلى الملك، دعاه إليه؛ فسأل يوسف تبرئته عند الناظرين، قبل خروجه من السجن، حتى يصح قبولهم منه؛ فإن أحكام الباطن غير أحكام الظاهر. فلما تم ذلك وقربه الملك، سأله أن يجعله على خزائن الأقوات للعالم، حتى يُمد أفراده بما يبقي عليهم أعيانهم ويحفظ عليهم وجودهم فـ: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥]. فأجابه الملك، فظهر النفع وتم الصلاح.

فتبيّن من قصة يوسف عليه السلام، أن بلاءه كان اعتناء به وتمهيدا لاستخلافه، وإبراز شأنه لدى العموم؛ فكان حاله كحال الأقطاب من الأمة المحمدية، إذا كانوا ظاهرين من غير أن يكون لهم الملك؛ أما إذا جمعوا بين الخلافتين معا، فهي الخلافة بالمعنى التام المعروف.

الفصل السادس والعشرون

الوجه المحمدي الأيوبي

كان بلاء أيوب عليه السلام في أهله وماله وبدنه، فما بقي له إلا قلبه ولسانه؛ فقلبه محل معرفته، ولسانه آلة ذكره ودعوته. فكان بلاؤه عليه السلام بلاء حسنا، مما يليق بمرتبته. أما البلاء الأكبر، فكان من نصيب قومه؛ وذلك أنهم سيُحجبون عن خصوصيته، بما يرونه من ظاهر بلائه؛ حتى كانوا يقولون إن أيوب قد أذنب ذنبا غضب عليه به ربه. فإنهم ما كانوا يرون بلاءه إلا عقوبة، وكيف يتبع الناس من حلت به العقوبة في زعمهم.

واعلم أن الله إذا أراد بقوم خيرا، أظهر فيهم أهل خصوصيته حتى ينتفعوا بهم؛ وإن أراد أن يحجبهم عنه ويمد لهم في المعاصي، أخفى أهل خصوصيته عنهم بما تنفر منه الطباع، كالفقر الشديد، والمرض، والرائحة الكريهة، ودمامة الخِلقة، وغير ذلك.. والناس قد اعتادوا عند ذكر أيوب عليه السلام أن يتوقفوا عند بلائه عليه السلام، وينسوا أهل البلاء حقا من قومه. وهذا أمر عجيب! ألا يعلمون أن النبي لا يُخشى عليه، وإنما الخشية على قومه؟! لكنها النفوس الغافلة، تستعظم البلاء النازل بساحتها، وتستهوِن ما قد يذهب بآخرتها. والمؤمن عليه أن يزن الأمور بميزان الله، لا بميزان نفسه.

أما إن قلت: فما قول الله عن أيوب: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ص: ٤١]، وأنه صرح عليه السلام بمس الشيطان له؟

فاعلم أن الأنبياء عليهم السلام منزهون عن مس الشيطان في أنفسهم. كيف يكون ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤٢]، ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام هم صفوة عباد الله وخاصتهم؛ فهل يُعصم الأدنى ويُترك الأعلى؟! هذا لا يكون! فلا يبقى بعد هذا، إلا أن نفهم كلام أيوب عليه السلام، على أنه بالنيابة عن قومه؛ لأن القوم من النبي كالأعضاء من الجسد، يفرحه ما يُفرحهم، ويحزنه ما يحزنهم. أما مسألة الدعاء عليهم ولعنتهم أحيانا مثل ما وقع لنوح عليه السلام، فإن ذلك من موافقتهم لله لا من زهدهم في أقوامهم؛ وذلك أن النبي إذا رأى من قومه إعراضا عن الحق، فإنه من أدبه أن يقدم موافقة الله في غيرته على أمره، على ما يصلح لقومه. ومن هذا الباب يغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة إذا أخبر بسوء حال أمته بعده، فيقول: «سحقا سحقا لمن بدل بعدي»[1]؛ فإذا رأى أن غضب الله قد خف سأل الله لهم الشفاعة. فسؤال أيوب عليه السلام أن يرفع عنه الله البلاء، هو سؤاله برفع الحجاب عنهم؛ لأنه يصعب على العامة أن ترى صورة الحق بصفات النقص. ولو أنه أخبرهم بما هو الحال عليه من وجه الحقيقة ما قبلوا منه، لأن الظاهر منهم أنهم كانوا أهل تنزيه.

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته إلى أصل الأمر ، لما سئل: "أي الناس أشد بلاء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» [2]، حتى لا يُحجبوا بما يرونه مما قد يتوهمونه نقصا. نقول يتوهمون، لأنهم لو علموا حقيقة الأمر لوجدوا ذلك من دلائل الكمال. والشبهة التي تعرض للناظرين هنا، هي أنهم يظنون أن الكمال هو الظهور بصفات الحق وحدها؛ والحق غير ذلك، لأن الحقيقة المحمدية التي هي

---

[1] . متفق عليه.
[2] . أخرجه الترمذي في سننه.

أصل التجلي، ذات وجه حقّي ووجه خلقي. فإذا ظهر العبد بصفات الحق وحدها، فما ظهر منه إلا الحق؛ وهذا نقص في هذه الحضرة. وإذا كان الأمر على هذا، فظهور العبد بصفات العبودية المقابلة لصفات الربوبية، يكون هو المطلوب؛ لكن ذلك لا يكون إلا على قدر تحقق هذا العبد بالحق وبعبودية نفسه، ولا يكون ذلك على الكمال إلا للأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. فلما كان النظر إلى فوق هو الحاجب للقوم، أمر الله أيوب أن تكون حركته سفلية، فقال سبحانه: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ ﴾ [ص: ٤٢]؛ حتى يتنبهوا إلى أن السفل والعلو بالنسبة إلى الله سواء. وهو ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى، لهبط على الله»[1]؛ فكان الله منتهى السفل، كما هو منتهى العلو. ﴿ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢ ﴾ [ص: ٤٢]: فجعل الله شفاء قوم أيوب منوطا بالعلم، كما هو شفاء جسد أيوب منوط بالماء؛ لأنه بالماء حياة الأبدان، وبالعلم حياة الأرواح. فالمعنى واحد، وإن اختلفت الصورة. ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ ﴾ [ص: ٤٣]، فبعد حصول العلم، تتغير المشاهد، فيصير الوجود في عين الفقد. هذا مع أن الله بدل حال أيوب في الظاهر، ورزقه أكثر مما كان معه. والعبد في الحقيقة فاقد وإن كان واجدا، لأنه ليس له من الأشياء إلا النسبة لا الملك؛ لكن الوهم يجعله يرى عكس ما هو الأمر عليه. ومن هنا يأتي تعبه ونصبه. فلو أنه رأى بعين الحقيقة ربه لكل شيء مالكا، ورأى نفسه لكل شيء فاقدا، لاستراح راحة ما بعدها راحة؛ ولكن لا يكون هذا إلا لأولي الألباب الذين جعل الله حال أيوب ذكرى لهم. ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ ﴾ [ص: ٤٤]، فلما كان أيوب قد توعد امرأته أن يضربها مائة سوط، وما هي إلا

[1] . أخرجه الترمذي في الجامع.

صورة نفسه يتهمها في تقصيره ويعزم على القصاص منها إبراء لذمته عند ربه؛ أمره الله أن يأخذ بأيسر الأسباب من غير أن يترك العزم. والحنث هو مخالفة العزم، ومنه حنث اليمين. فحركة الرجل كانت لقومه، وحركة اليد كانت لنفسه عليه السلام. ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ﴾ [ص: ٤٤]، أي أوجدناه صابرا؛ فهذا مثل قول الله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النحل: ١٢٧]. فأيوب كان مظهرا لاسمه تعالى "الصبور"، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل: إنه يشرك به، ويجعل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم»[1]. فكان الله يتعرف إلى قوم أيوب من حيث صفة الصبر، والصبر يقتضي قهرا على أمرٍ خلاف الغرض، ويقتضي رحمة للنفس تجاهه تطلب رفعه. فأما القهر فلا يصح في حق الله إلا من حيث ما فيه من التقابل في الأسماء؛ فتكون الأسماء هي القاهرة لبعضها، فيكون الصبر لبعضها وهو لله من ورائها. فمن هذا الوجه هو القاهر لنفسه سبحانه؛ ومن هذا الباب ظهرت المقولات المؤذية لله عند بعض العباد. أما في حق العبد، فإن القهر يكون من الله، والصبر من نفسه. غير أن الصبر لا يخلو من طمع في رفع القهر، ولا باب لذلك إلا الدعاء. لذلك كان الدعاء برفع البلاء كما فعل أيوب عليه السلام، لا يناقض الصبر. وتقابل الصبر على الأذى من جهة الحق تارة ومن جهة الخلق تارة أخرى، هو من خصائص الحقيقة المحمدية؛ فكان هذا من العدل في الحقائق بين الحق والخلق. فانظر أمر الوجود، فإنه عجيب! ثم يُثني الله على عبده أيوب فيقول: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ﴾ [ص: ٤٤]؛ فكان الثناء على العبد بسبب نسبة الصبر إليه، في مقابل: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٠]، إذا كان الصبر من الله. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠]، رجاع من نفسه إلى ربه، ومن ربه إلى نفسه، بحسب ما

[1] . متفق عليه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

يقتضي الأدب، لجمعه بين الحقيقتين؛ لأنه لا يليق بالعبد أن ينسب أشياء إلا إلى نفسه أحيانا؛ وإن كان الكل من الله. فيكون هذا رجوعا من ربه إلى نفسه؛ ورجوعه إلى نفسه يقتضي منه رجوعا إلى ربه، وهكذا.. فلا يزال مترددا بين حقيقتيه أبد الآبدين. ولولا هذا ما صحت العبادة من الإنسان. نعني عبادة العبودة، لا عبادة العبودية؛ لأن العبودية تقتضي انحجابا عن المقام، كما هو عند عامة المؤمنين.

الفصل السابع والعشرون

الوجه المحمدي اليونسي

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[1]، فوجب أن لا تؤخذ قصة يونس عليه السلام على ظاهرها، مع الجزم بأن كل ما حكاه الله في القرآن قد وقع حسّا. ونهي رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أن يتوهم عبد النقص في يونس، هو من حيث كونه وجها له، كما سبق أن ذكرنا؛ فتأكد أن في الأمر أسرارا لا يطلع الله عليها كل أحد.

أما قول الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فلأنه لما دعا –عليه السلام– قومه ما استجاب له واحد منهم، فغضب منهم تعظيما لأمر الله. وتوعدَهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام. فلما رآه قومه قد خرج من بينهم، ورأوا علامات العذاب، آمنوا وتابوا فتاب الله عليهم. وركب يونس سفينة، فلما صارت في البحر اضطر أصحابها أن يتخلصوا من بعض الثقل حتى لا تغرق؛ فاستهموا على من يُلقى به من عليها، فجاء السهم على يونس ثلاث مرات؛ فألقى بنفسه في البحر فهما منه عن الله، فالتقمه الحوت. فكان هذا التضييق من الله المنتهي بالسجن في بطن الحوت صورة لغضب يونس، لما ضاق بقومه إذ هم ضاقوا بدعوته. فأراد الله أن يُظهر لعبده يونس من عجائب قدرته:

---

[1] . متفق عليه.

- فأول ما كان منها، استجابة القوم بعد خروج الرسول وظنِّ وقوع العذاب. فكان هذا خروجا من ضيق الكفر إلى سعة الإيمان.

- ثانيها، أن الدخول في بطن الحوت ضيق جاء زيادة على ضيق الغضب. والحوت من الحياة، وبطنه هو الموت. ويُستفاد من هذا أن الموت مرحلة من مراحل الحياة، فهو حياة باطنة. فلما رأى يونس أن الضيق والسعة حكمان، وأنه قد تكون السعة من عين الضيق بأمر الله، سبح ربه ونزهه أن تتعلق إرادته بسبب دون سبب، وأقر بظلمه الذي هو التجاوز في الحكم لما ضاق بقومه. وعلم أن الله لا يُهمل أحدا من عباده، وإن كان عاصيا له من حيث الظاهر؛ بل حتى إن عذبه وعاقبه. وذاق هذا الأمر بحياته هو نفسه في بطن الحوت، الذي يقطع الناس بموت كل من دخله. فكانت حياته صورة لحياة الإيمان في ذوات قومه إبان تكذيبهم. فجعل الله تسبيح يونس سببا في نجاته من الموت؛ فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٣ – ١٤٤]، فدل ذكر يوم البعث على الموت.

أما قول الله قبل ذلك: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فهو لظنه أنه لا مخرج له من ضيقه وغمه بسبب قطعه باستقرار قومه على الكفر. فهذا هو ظنه، لما رأى كل شيء يدل عليه؛ لكن علم الله كان فيه خلاف ظنه، من الرحمة والهداية.

فجعل الله قصة يونس عليه السلام، تذكرة للعباد وتعليما لهم، أن الله يعتني بكل عبد من عباده. وأن اعتبار هذا الأصل عنده سبحانه لا ينبغي أن يغفل عنه من يدعو إلى أمر الله من رسول أو غيره. وهو من الأدب مع الله. والمعصية مهما بلغت، فإنها لا تغلب هذه العناية الباطنة. ولو أن الكفار خطر في بالهم منها شيء لتعجبوا أشد العجب، ولكن الله لا يُطلع على هذا الوجه من رحمته إلا من جعله هو نفسه رحمة للعباد. وهذه الرحمة الباطنة هي رحمة ذاتية

غير متعلقة بسبب، وهي التي ذكرها الله في قوله تعالى على لسان حملة العرش: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]؛ إشارة إلى أن كل معلوم مرحوم. وهذه الرحمة هي التي طمع فيها إبليس، ولا شك أنها مصيبته.

ثم إن الرسول من قومه، كالمجمل من المفصل، كما سبق أن ذكرنا؛ فقد يمتنع الشيء من حيث التفصيل، فيأتي به الإجمال نيابة عنه، فيحصل له. وهذا يقع من الرسل ومن المشايخ مع تلامذتهم. ولولا هذا ما صح السلوك إلا لأفراد معدودين عبر كل الزمان. وهذا أيضا من الرحمة. والشيخ (المربي) قد يأتي بالأمر نيابة عن تلميذه، ليجتاز عقبة من عقبات الطريق، ما كان في طاقته اجتيازها لخلل في استعداده. ويونس عليه السلام من رحمته بقومه، لما خاف عليهم الموت على الكفر، دخل في حالهم، وهو الضيق. ودخل من الضيق في ضيق أضيق منه حتى يكون ما يجده كفارة لقومه. والظلمات الثلاث التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والتي كانت ظلمة الطبيعة، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، كانت في مقابل ظلمة الطبع عند قومه، وظلمة الكفر، وظلمة المعصية. فكفّر يونس بدخوله في هذه الظلمات عن قومه، فحيي إيمانهم في قلوبهم، واستنارت هياكلهم، فأعلنوا الإيمان كلهم من غير أن يبقى منهم أحد. وتلك الظلمات هي نفسها متعلقات العذاب الذي كان سيحيق بهم بعد ثلاث. فكان هذا، ما قال الله عنه: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ لأن الرسل عليهم السلام، ما يحملون إلا هم أتباعهم؛ أما هم فقد رفع الله عنهم هم أنفسهم، منة منه وفضلا. ومعلوم أن الاشتغال بإصلاح الغير، لا يصح حتى يفرغ المرء من نفسه؛ وإلا فإنه قد يتعارض ما هو صلاح للنفس مع ما هو صلاح للغير. فإن قدم الداعي صلاح نفسه على صلاح غيره، فإنه يكون نقصا في دعوته إن لم يكن خيانة. وهذا

الأصل مما يُعتبر عند من يتصدر للتربية من الوارثين، فكيف بمن هم الأصل عليهم الصلاة والسلام أجمعين؟!

من هنا يظهر أن الله ما بعث رسولا، ولا أظهر شيخا إلا ليرحم به قومه؛ هذا هو الأصل. وما يصيب القوم في ذلك من العقوبات التي تقتضيها المخالفات، فإنما هي أمور عارضة بالنظر إلى هذا الأصل.

ومن تحقُّق هذه الرحمات الوجهية الجزئية، اتصف محمد صلى الله عليه وآله وسلم بكونه الرحمة العامة الشاملة، كما دل على هذا قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وهذا يدل أيضا على أن من لم تدركه رحمة وجهية جزئية، فإن الرحمة الكلية لا بد أن تدركه في يوم ما. هذا لا بد منه. لكن الرحمات تختلف من حيث الأصناف؛ فما كل رحمة هي نفس الرحمة الأخرى، وإلا اختلت الموازين وانتفت الحكمة.

الفصل الثامن والعشرون

الوجه المحمدي الشعيبي

قيل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكره، قال: «ذاك خطيب الأنبياء»[1]؛ والخطيب من كان ذا حجة وقدرة على الإقناع. ولا يكون على هذه الصفة، إلا من كان تام المعرفة، يخاطب أهل كل مرتبة من شهود أو اعتقاد بما يُناسبهم؛ وهو مع ذلك هيولي الحقيقة متلون بحسب مُخاطَبه. وليس فوق هذا التحقق بالحق تحقق. فهذا قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥] ؛ فمن كانت حقيقته على ما قلنا، فهو أخ للجميع. والأخ من اجتمعتَ معه في أم واحدة، ولا أم للتجليات المختلفة إلا الذات. فظهر أن هذا العبد ذاتي في مقابل التجليات الاسمية؛ لكن ذاتيته من حيث مجموع الصفات، لا من حيث مطلق الذات. وهذا هو مدلول اسم شعيب عليه السلام، من التشعيب. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، يأمر قومه بعبادة الله الذي هو مجموع الأسماء من حيث جمعيته، كما يعبده العارفون؛ لأن العبادة من حيث اسم مخصوص، أو تجل مخصوص، تورث إنكار اسم آخر وتجل آخر. لهذا نهاهم عن رؤية الغير، فما ثم غير حتى يُرى. ومن كان على تلك الصفة، فهو من أهل الأمر بالمعروف (عنده)، والنهي عن المنكر (عنده أيضا)؛ فهو متردد بين أمر ونهي. وهذه مرتبة المؤمنين حقا، المصدقين بما أُخبروا به على

[1] . المستدرك على الصحيحين.

لسان الرسل عليهم السلام. فجاءتهم الشرائع على صورة اعتقادهم بين أمر ونهي؛ أما العارفون فلا أمر لهم ولا نهي، مع تقلبهم في الأمر والنهي. ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، والبينة ما يبين به الشيء، وليس إلا الوحي لأهل الإيمان، أو الداعي لأهل العيان. ومحل الدعوة هو نفوس المدعوين، فما دعاهم إلا منهم وإليهم، إن فهموا عنه. ومجيء البيّنة هو إقبالها من الغيب عليهم في الشهادة، ولولا ذلك ما كانت بيّنة لما جاءت منه. ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، معنىً قبل أن يكون حسا؛ لأن التطفيف الذي عند التجار ما هو إلا صورة للتطفيف في الأحكام. والمقصود من التطفيف المعنوي، أن يرى المرء نفسه صاحب حق وغيره ليس كذلك. والحق أن الآخر صاحب حق مجهول عنده فحسب. لذلك نهاهم عن التنقيص بقوله: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وحصر البخس في أشياء الناس، لا في أعيان الناس؛ حتى يُبيّن أن احتقار أعيان الناس لا يليق حتى بالعامة، بسبب أن الذوات متساوية في القيمة؛ أما الأشياء المنسوبة إلى الذوات، والتي هي الأحوال والأفعال، فهي التي يتعلق بها المدح والذم. وهذه هي التي نهى أن يبخسوها، لأنها من حيث ماهي تجليات للأسماء الإلهية، لا تُذم؛ وإنما يلحقها الذم من نِسبتها إلى الخلق. فمن وجه الجمع لا يصح إلا الثناء، ومن وجه الفرق تشعب الأمر إلى مدح وذم. فلما نهى شعيب قومه أن يبخسوا الناس أشياءهم، علمنا أنه دعاهم إلى شهود النسبة الإلهية في كل شيء. ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، أي: فإذا عرفتم النسبة الإلهية في الأشياء، واعتبرتموها بقلوبكم، فلا تُفسدوا في أرض الأحكام بنقضها ﴿ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٨٥]، لتكون مطية تحمل العباد إلى ربهم؛ فمن عدِم الوسيلة، فسد عليه الأمر. ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وأنفع إن كنتم من أهل المعرفة ﴿ إِن كُنتُم

مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، بأن فوق معرفتكم ما لم تعرفوا. فالخير المذكور هو الإبقاء على قبول الزيادة من العلم؛ وإلا انقلب المرء جاهلا بعد أن آتاه الله العلم. وعلى كل حال فالإيمان لا يأتي إلا بخير للعامة وللخاصة.

أما قوم شعيب، فالظاهر أنهم كان يغلب عليهم الفكر والقياس العقلي؛ لأنه سبيل المطففين والمنكرين على الغير، فأوصاهم: ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ ﴾ [الأعراف: ٨٦]، أي لا تعترضوا على غيركم؛ لأن كل واحد من الناس على صراط خاص به، فإذا اعترض المرء على كل من ليس على نفس حاله، فما بقي له من أخ. وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هذا الأصل بقوله: «كل ميسر لما خلق له»[1].﴿ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٦]، أي تتهددون؛ وهذا من التطفيف، لأنه تأثير على الغير حتى يوافقهم فيما يذهبون إليه. ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وهم المصدقون، العاملون بما آمنوا به من غير رجوع إلى نظر؛ وهذه الطائفة على خير كبير، وهي بمثابة القلب من الأمة؛ من حيث أن الدين أساسه الإيمان. فهؤلاء الذين يعتمدون الفكر، يرومون صرف المؤمنين عن سبيل الله التي هم عليها، إلى اتباع ما تشعب من المذاهب المفرِّقة.

ولما امتاز سبيل المؤمنين الموافق للعارفين عن سبيل أهل القياس، حدث بين الفريقين خلاف مُذهب للوحدة. ومع رغبة المستكبرين في إخضاع الغير لنفوذهم، تحدث الصراعات التي قد تؤدي إلى العنف والإكراه. وهو ما لجأ إليه قوم شعيب مع رسولهم ومن آمن معه: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ﴾

[1]. متفق عليه.

[الأعراف: ٨٨] ؛ حتى حكى الله عنهم ما وصلوا إليه في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٠] .

أما في الحقيقة فإن الخلاف الذي بين الفريقين منشأه اختلاف محل النظر؛ ففريق المؤمنين نظرهم إلى الله الذي هو باطن العالم، وفريق الكافرين نظرهم إلى ظاهر العالم. والظاهر والباطن نسبتان متقابلتان، لا يمكن أن يُعثر لهما على برزخ جامع إلا مع المعرفة. والبرزخ هو الرسول، لأنه من حيث ظاهره عالم، ومن حيث باطنه هو الحق. والفريقان لن يعرفا حقيقتهما إلا منه بالاتباع وحده، الذي هو ثمرة الإيمان؛ أما ظن الوصول إلى الحق بمخالفة هذا الأصل، فهو وهم كبير. وذلك لأن احتواء المتشعب، يتطلب السير من الأصل في اتجاه الفروع؛ أما البدء من الفروع فإنه يعيق أي تقدم. فإذا أخذت مثلا غصنا له فروع، وأردت أن تدخله في كيس، فإنك لن تتمكن من ذلك إلا إذا أدخلت أصله وأتبعته الفروع. غير هذا لا يكون. فطريق المعرفة له اتجاه واحد، هو ما يدل عليه الرسل عليهم السلام؛ أما المعرفة نفسها –لمن حصلها– فهي نقطة متلونة في كل يوم (الذي هو الزمن الفرد)؛ فحركتها حركة تجلّ، لا حركة انتقال؛ إلا إن كان المقصود انتقالا من شأن إلى شأن. وعلى هذا فالإيمان والكفر حالان لا مقامان، والمقام المعرفة؛ لأن الكافر مؤمن بالطاغوت، وهو ما طغى أي ظهر من العالم ومن جملته نفسه؛ والمؤمن كافر به مؤمن بالله الذي هو مسمى العالم من حيث الصورة. ومن هذه الحقيقة كان تعاقب الليل والنهار، لأن حركتهما دورية؛ أما العارف فلا ليل له ولا نهار، كما أخبر عن نفسه أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه، لما سئل: كيف أصبحت؟ فقال: "لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة، وأنا لا صفة لي"[1]. فهذا هو شأن العارف. ولما كان الإيمان والكفر حالين، فإن منتهى أهلهما معا، إلى المعرفة من ورائهما. فأهل

[1] . الفتوحات المكية. ج:٤، ص:٤٠.

الجنة (الجنة من الحجاب) منتهاهم إلى الجلوس على الكثيب في يوم المزيد وتجلي الله لهم؛ وأما أهل النار فمنتهاهم إلى تجلي الله عليهم بوقف العذاب، إذا تم احتراق صفاتهم؛ لأن المقصود من النار حرق الصفات لا الجلود، وإنما الجلود أسباب موصلة إلى هذه الغاية. ونعني بحرق الصفات ها هنا، حرق نسبتها إليهم فحسب. وهو ما وقع لقوم شعيب من العذاب في يوم الظّلة، حتى قال الله عنهم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] . فكان هذا اليوم عظيما، لأنه كان يوم لقاء الله بالنسبة إليهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ [الشعراء: ١٩٠] ، يدل على أنهم حصلوا المعرفة، وإلا ما كانت آية في حقهم، أي معرفة لهم بالحقيقة. ويدل على ما ذكرنا تتمة قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٠] ، أي بما عرفوا في النهاية. فكانت نهايتهم أنهم وصلوا إلى ما لم يكن يخطر لهم على بال؛ فكان حالهم كحال أهل الجنة، على ما جاء فيما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: قال الله: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1]. فالفرق بين معرفة أهل النار وأهل الجنة، هو أن الأولين معرفتهم جلالية، والآخرين معرفتهم جمالية؛ هذا فحسب. وهذا من تشعب المعرفة.

[1] . متفق عليه.

الفصل التاسع والعشرون

الوجه المحمدي الموسوي

قيل إن معنى موسى بالقبطية القديمة: هو ابن الماء؛ لما وُجد موسى عليه السلام داخل التابوت في النهر، سمي بذلك. والماء هو أصل الحياة الجسمية، كما هو العلم أصل الحياة الروحية؛ فهما صورتان لمعنى واحد يقوم به العالم. وموسى الذي هو صورة الحق من وجه، وصورة العالم من وجه، جاء من العلم الإلهي؛ وكونه وضع في التابوت، هو دخوله عالم الطبيعة.

ومن حيث كون موسى عليه السلام، متحققا بالحياة الحق، غطت حياته على حيوات من ولدوا في زمن ولادته؛ كما تغطي الشمس على وجود النجوم، إذا هي طلعت في السماء. فلهذا كان فرعون يقتل كل مولود لبني إسرائيل مخافة أن يكون موسى الموعود؛ وهو ما ذكره الله في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص: ٤]. وكانت تربيته عليه السلام عند فرعون مظهرا كبيرا من مظاهر المكر له، وإشارة إلى مقامه لمّا كان فرعون يدعي الربوبية. فوجوده عليه السلام في قصر فرعون، تحقيق للمقام؛ فيكون ما ادعاه فرعون من غير تحقيق، له –عليه السلام– بالأصالة. فكانت دلالة فرعون على موسى كدلالة الظل على الشيء؛ فهو يحكي صورته، مع عدم مزاحمته في الوجود.

ولما فر موسى بعد قتل القبطي، إلى مدين وانتهى أمره بلقاء شعيب عليه السلام، بدأت لديه مرحلة تربوية ربانية جديدة، تصحح ما أصابه من تربية القصر المترفة، و تخلصه من توابعها. فكان رعي الأغنام مقابل الزواج والإطعام في الظاهر، رادا له إلى حد الضرورات. وكان تلقيه المدد الباطني عن شعيب ماحيا لآثار فرعون ومجالسه. فلما حان وقت استقلاله، وبلوغ استعداده قبول الإرسال من ربه، خرج مع أهله؛ وفي ليلة احتاج فيها إلى معرفة الطريق في رحلته، وإلى تدفئة أهله، رأى نارا عن بعد فقصدها. وقد حكى الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص: ٢٩] . ولم تكن النار إلا تجليا إلهيا في شجرة ذات خضرة، لجمع الحق بين الضدين. ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص: ٣٠] . تجلى الله لموسى عليه السلام في حاجته، كما هو متجل لكل عبد؛ لأن الفقر بالأصالة لا يكون إلا لله، وإن احتجب كثير من الخلق بصور الأسباب. الوادي له شاطئان، وما الوادي إلا حقيقة موسى الباطنة في طور صورته الطبيعية. والشاطئان أحدهما حَقّي، والآخر خلقي؛ فيكون على هذا، الشاطئُ الأيمن شاطئَ حقه. وسمع النداء في البقعة المباركة التي هي صورة قلبه؛ بل هي قلبه. فكان النداء: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص: ٣٠] . فعلم موسى حقيقته. ولما كانت حقيقته ناسخة لحكم نفسه، أمره الله بإلقائها من اعتباره: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [القصص: ٣١] ، لأن النفس أصل المعاصي، وتوهمُ وجودها أكبر تلك المعاصي. ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [القصص: ٣١] ، رآها بعين الحق، تهتز من حركتها بين الوجود والعدم، بسبب كون الوجود والعدم ساكنين (أي ثابتين). واهتزاز النفس من الإمكان، وهو

المعبر عنه بـ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ، من الجَن الذي هو البطون. وهذا يؤكد أن المعلومات التي هي الأعيان الثابتة، ما دخلت الوجود، بل هي في برزخ بين الوجود والعدم. والذي يزيد هذا وضوحا، هو فناؤها في كل زمن وخلقها في الزمن الثاني. فلما رآها موسى عليه السلام على هذه الحقيقة،﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص: ٣١]، ولى عنها إلى الوجود الحق، ولم يلتفت إليها لهوان مرتبتها عنده. لكن الله تعالى لم يرد منه عندما أمره أولا بإلقائها الزهد فيها، وإنما كان المراد معرفة حقيقتها المتجلية في صورة حية تعطب من يقترب منها. لذلك أمره بأخذها عن إذن إلهي وعدم الخوف منها، فقال عز وجل:﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١]؛ لأن الخوف من النفس يكون قبل معرفتها، وقبل إمساكها بالله؛ أما بعد ذلك، فلا ضرر منها، بل تكون نفعا وخيرا. فلما تخلص موسى عليه السلام من أصل السوء، قال الله له:﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ [القصص: ٣٢]، أي أدخل الفعل منك في معرفتك؛﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ [القصص: ٣٢]، تخرج أفعالك كلها حسنة من حيث نسبتها إلى الحق؛﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [القصص: ٣٢]، من غير إخلال بالحكمة وهدم للمراتب، فإنه سوء في المقام.﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢]، الجناح هو أصل اليد من ذراع وعضد، وليس إلا الصفات؛ ينهاه ربه أن يظهر بصفات الألوهية تعظيما للمقام. وهذا من الفتنة التي تعرض للعارف في بداية أمره، بسبب كونه لا يفرق بين الحق ومظهره. والله لا يحب من عبده أن يزعم أنه هو، ويتصرف بالإطلاق كأنه هو؛ وإنما يريد منه أن يحصّل هنا العلم النافع، ويترك الظهور إلى موطنه. لذلك جعل الله لموسى آيتين يظهر بهما بين الناس فحسب؛ وإلا كان موسى كله آية. فافهم. فقال الله تعالى:﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٣٢]، برهانان أي دلالتان منك علي، يقصد الحية المنقلبة، واليد البيضاء. بهاتين الآيتين أرسله الله إلى فرعون

وقومه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]؛ إلى فرعون، لأنه ادعى ما ليس له، وإن كان في نفسه حقا؛ وإلى الملإ، حتى يُصحح لهم عقيدتهم في ربهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢]، أي منحرفين عن الحق في ذلك، فهم كمن يعمل في غير معمل. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص: ٣٣]، قتلت منهم نفسا طبيعية، فأخاف أن يتسلطوا على طبيعتي قصاصا؛ لِما يعلمه من العدل الإلهي. هذا في الظاهر؛ أما في الباطن: إني قتلت منهم نفسا بالعلم هي نفسي، فأخاف إن أنا قابلتهم أن يشهدوك في صورتي فيقتلوني شهودا، كما قُتلت علما؛ فيكون ذلك حيرة عليهم، لا يرجى معها نفع. فطلب أن تنزل مخاطبة الحق لهم إلى مقام السمع الذي يناسبهم، فقال عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤] ، حتى يسمعوا ما يعينهم على تقبل ما يشهدون، فهذا هو معنى الردء. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤] ، بسبب الحيرة التي يعطيها الشهود، وهم بعدُ أسارى عقائدهم. ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، لأن السمع أخو البصر؛ ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥] ، أي قهرا إلهيا مجعولا، لأن القهر الإلهي يُمكن أن يظهر من فرعون بالأصالة التي هي مشتركة. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]، بي من حيث لا يشعرون؛ فكأنه قال لهما: أنا أعطيكما الأمان من نفسي في هذا الأمر المخصوص، حتى تظهر آياتي. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [القصص: ٣٥]، الجمع لأن الآيات لها نسبة حقية أصلية، ونسبة خلقية شهودية؛ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥]، غالبون بنا، لا بما أنتما أنتما. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ [القصص: ٣٦]، أي واضح أنها لا تكون إلا منا. ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]، فأعطتهم حيرة الشهود، أن ما يرونه من

قبيل السحر، لعدم رسوخهم في هذا العلم؛ فهذا ما يتعلق بموسى. ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص: ٣٦]، فكذبوا بما سمعوا من هارون أيضا لعدم إلفهم هذا الخطاب. فالأمر كان جديدا عليهم من حيث ما شاهدوا ومن حيث ما سمعوا. فلما رأى فرعون قومه في حيرة، أراد أن يجاريهم فيها، حتى يطيل عمر الباطل الذي معهم قدر ما يستطيع. وطلب جمع السحرة حتى يكونوا في مواجهة موسى. ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٣]؛ السحرة هم أصحاب الهمم النفسية التي تنفعل لها الأكوان، فتظهر في عين من لا علم له كالتصرف. وهؤلاء لا يشتغلون إلا بمقابل أجر تأخذه نفوسهم، لأنهم لا يعرفون العمل الخالص لله من مقامهم. فوعدهم فرعون ما يطلبون: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٤]. فهذا مما يميز أهل الله، من المدعين، نعني العمل الخالص من طلب الأجر. ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ [الأعراف: ١١٥]، أي سحرك؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة أمره. ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٥]، أي البادئين بإلقاء السحر؛ حتى يصير أحد الفريقين يزيد على صاحبه فيه. ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، إذ من الحكمة ترك الخصم يبدأ بعرض حجته، حتى يعمل على نقضها. ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، لأن الشبهات لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم في أعين الجاهلين فحسب؛ فوجودها وهمي لا حقيقي. ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أي جعلوهم يخافون مخالفتهم. وهذا هو أسلوب من يريد أن يتحكم في الناس بغير حق. ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وصفه الله بالعظمة، لأنه حق في نفسه؛ رغم عدم علم الناظرين به من وجهه. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾

[الأعراف: ١١٧]، فكانت العصا هنا، تصرف موسى بربه الظاهر من صورته المسماة موسى. وذلك أن العباد منهم الرباني ومنهم غير الرباني؛ فالرباني المتصرف فيه الله من غير أثر للنفس، وغير الرباني المتصرف فيه الله من وراء النفس. ولا يبلغ التصرف النفساني التصرف الرباني أبدا. ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٧]، لما التهمت عصا موسى الصور التي أنشأها السحرة في أعين الناظرين التهاما حقيقيا لا وهميا، علموا أنه ليس بساحر؛ وإنما هو يتصرف من الحضرة الإلهية. ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٠]، لأنه لا يعلم قدر ما أتى به موسى، إلا الخبير بعلم السحر. وسجود السحرة كان لما عرفوا حقيقة موسى؛ وكان سجودهم لله في موسى، كسجود الملائكة لآدم. ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢١]، فوحدوا الرب المتصرف في كل الأعيان، التي منها أنفسهم التي هداها إلى الإيمان. هذا من حيث التوجه. ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وهذا من حيث المواجهة. فجمعوا بين اليدين اللتين بينهما العالم، فكانوا على معرفة تامة. لكن فرعون استمر على غيه، مستلذا استعباد قومه. ولما كان ادعاء فرعون مع وجود نفسه، لم يحتمل ظهور موسى عليه، واتباعَ بني إسرائيل له، أراد أن يبطش بهم، حتى يُبقي على منزلته محفوظة. ولو أنه كان من أهل الحق، ما احتاج إلى فعل ذلك؛ لأنه لا يوجد مع الله غيره حتى يطلب التخلص منه. فلما فر موسى ببني إسرائيل من صورة البطش الإلهي في فرعون، ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء: ٦١]، حكماً بأسباب الظاهر وغلبة الحس عليهم. ﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، لأن الحكم يؤخذ من الله، لا مما يُشهد؛ والله قد وعده الغلبة على فرعون وقومه. ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، هذه معية التحقق. وقد غلط كثير من أصحاب الرسوم، لما فسروا المعية بالعلم؛ لأن العلم صفة، والصفة تقوم

بالذات، فإن كانوا يرون وجودا لأشخاص العالم (وهو الواقع)، فإن هذا شرك جلي لا يُقبل من مؤمن. والمؤمن يؤمن بالوحي من غير أن يتأوله؛ أما هؤلاء لما ظنوا أنهم على علم، فإنهم سقطوا فيما لا يسقط فيه العامي، وأبانوا عن جهلهم بحقيقة الأمر. وهم قد كانوا يفرون من إثبات ذاتين، فوقعوا فيما فروا منه. نعوذ بالله من سوء الحال! ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. الوحي هنا وحي الإلهام، وهو ما يقذفه الله من أمر في قلب العارف. والبحر صورة عن العلم الإلهي؛ فأمره الله أن يضربه بعصاه، وهي هنا همته؛ ليدرك منه ما لا يُتوصل إليه بالأسباب العادية. ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أي بحر العلم الإلهي، وامتاز منه العلم القديم من المحدث. ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، لعدم انفكاك أحدهما عن الآخر من حيث الأصل. ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٤]، لما رأوا موسى ومن معه يسلكون في البحر، ظنوا أن هذا في مستطاع كل أحد. وهذا مثل ما تفعل العامة عند اطلاعهم على كلام أهل الله في خصوص التوحيد، فتجدهم يرومون فهمه بما أوتوا من إدراك، فيغرقون فيه، ويموتون إيمانيا، بإنكارهم الحق. ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٥]؛ أنجى الله جماعة الحق المتمثلة في الإمام والمأمومين. هذا مما يؤكد أن من أراد النجاة، فعليه أن يكون مع إمام رباني، إن لم يكن هو نفسه الإمام؛ أما من اعتمد على نفسه، فلا يتعجبن إذا أحاط به الموج من كل مكان، وكان من المغرقين. فالطريق الذي سلكه موسى في البحر هو البرزخ الجامع بين البحرين، ظهر في صورة برٍّ دلالةً على اليقين واليسر. فالسالك الذي يكون على هدى من ربه في وضوح العلم، كالفقيه فيما اعتاده من الأحكام القطعية؛ لا أسهل من الخوض فيما هو فيه. فالعبرة ليست بالمواطن، وإنما بدخولها عن إذن إلهي.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة: ٥١]، مواعدة الله موسى هي الإذن له بملاقاته سبحانه فيما يُسمى المنازل. ومرجعها إلى مراتب الوجود الأربعين التي ذكرها أهل الله؛ ومنها مراتب حقية، وأخرى خلقية. فأما المراتب الحقية، فيسمح الله لموسى بالعروج إليها، فيكون هذا هو لقاء الحق هناك؛ وأما المراتب الخلقية، فيتفضل الله بالنزول فيها، فيكون ملاقيا لموسى فيها. وكانت هذه المواعدة ليلية لخفائها في النشأة الإنسانية؛ حتى أنه لا يظهر على صاحبها من أثرها شيء في ظاهره، وإلا كان كل من تحققت له، يصبح آية بيّنة من آيات الله، يراه العام والخاص. فكانت هذه الخلوة لموسى مع ربه، تتطلب منه التفرغ ظاهرا وباطنا؛ لذلك استخلف على قومه أخاه هارون، يقوم فيهم مقام الإمام والمفتي والقاضي. ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٥١]، قوم موسى ليسوا كالسحرة، على علم بالتنزيه؛ بل كان إيمانهم لا يخلو من تشبيه، تفتقت عنه نفوسهم لما وجدوا بعض استقلال عند غياب موسى عليه السلام. فأحبوا أن يقيدوا صورة الحق في مظهر واحد، رأوا –حسب زعمهم– أنه يسهّل عليهم معاملته سبحانه. فاختاروا من المعدن الذهب لكماله، واختاروا من الصور العجل، لاستعجالهم الأمر من غير رجوع إلى رسولهم. فكان بنو إسرائيل على استعداد يفوق قليلا استعداد الوثنيين، مع إيمانهم؛ لذلك صدر منهم ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] ، فتوهموا أن الحق مفارق لهم، وأسقطوا عليه سبحانه صفات خلقه. ولو أنهم كانوا أصحاب شهود، لعلموا أنهم يرونه جهرة، فما كانوا يطلبون الحاصل. ولولا أن الله يُرى جهرة، ما تسمى بـ"الظاهر"! وهذا مما يغفله الناس كثيرا. فهو الظاهر لقوم والباطن عن آخرين في كل زمن فرد؛ لكن المؤمنين يعلمون مدلول اسمه تعالى "الباطن"، ولا خبر لهم عن الاسم "الظاهر".

ولما كان بنو إسرائيل مؤمنين، فلا شك أنهم كانوا مع "الباطن"؛ وسؤالهم عن "الظاهر"، كان عن سوء أدب وتحد بسبب ربطهم إيمانهم برؤية الله جهرة؛ وما علموا أن الإيمان يكون بـ"الباطن"، لا بـ"الظاهر". فجمعوا بين الجهل وسوء الأدب، لذلك أرسل الله عليهم الصاعقة: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥]؛ أي غُشي عليكم وأنتم تنظرون إلى ما سألتم، بسبب عدم توافر الاستعداد. ومثل هذا لا تحصل له فائدة أثناء المشاهدة، لأنه يفنى فناء تاما؛ وعندما يعود إلى شعوره لا يجد عنده شيئا. والفناء التام هو ما عبر عنه القرآن بالموت، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٦]، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٦]، لموافقة تجليات الله استعداداتكم. فلأن تحصّلوا إيمانا بالله، خير من أن لا تحصلوا شيئا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ [البقرة: ٦١]؛ كان موسى عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الكثرة، وكان مددهم سماويا من عين المنة؛ ظهر في صورة طعام المن والسلوى. ففضلوا عليه العادة والإخلاد إلى الأرض: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٦١]. فرجعوا إلى الكثرة الحجابية: ﴿ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [البقرة: ٦١].﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]؟ تعجُّبا من سوء حالهم وارتكاسهم وضعف عقولهم.﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١]، فنزلوا إلى أرض الطبيعة تقهرهم وتقيّدهم.﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [البقرة: ٦١]، لأنها صفات الأرض.﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١]، لعدم قبولهم معالي الأمور وضعف هممهم. لكنهم ما رغبوا عن توحيد الكثرة، إلا ليقعوا في كثرة التوحيد وهم لا يشعرون. وبعد انقضاء حكم الغضب، يرفع عنهم ثوب الذلة والمسكنة، ليكتشفوا تحته

الرفعة والعزة. فهم ما غيروا شيئا في الأمر باختيارهم، إلا أنهم أطالوا على أنفسهم الطريق. وموسى عليه السلام ما كان دعاهم إلا إلى أحسن مما اختاروا، لو أنهم اتبعوه بالتسليم. وقد قص الله في كتابه من أخبار بني إسرائيل الكثير، حتى يعتبر من كان يريد أن يعتبر.

أما قول الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ ﴾ [النساء: ١٦٤]، فهو من الكلام، وبمعنى التعدية؛ أي جعله الله متكلما. والكلام هو صدور المعاني النفسية في صور نَفَسية. وبما أن آية موسى عليه السلام علمية، فقد أعطاه ربه أن يرى صدور المخلوقات عنه من علمه إلى عينه. فكان في مقامه، كإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى. وهذا الذوق الموسوي، اختصه الله به من بين الأنبياء عليهم السلام اختصاصا. وهو ذوق محمدي شريف رفيع، يكون فيه العبد خالقا لما شاء الله أن يختصه به. فيتصرف في الحضرة العلمية بما تعطيه الإرادة والقدرة.

الفصل الثلاثون

الوجه المحمدي الهاروني

كان هارون من حيث المقام (لا من حيث السن) إجابة دعوة موسى عليهما السلام، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ﴾ [طه: ٢٩ – ٣٠]؛ فكان وزيرا، يحمل معه عبء الدعوة في بني إسرائيل. ويقول الله أيضا: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ ﴾ [مريم: ٥٣]؛ فكان هارون عليه السلام رحمة لأخيه بوزارته. وإذا كان موسى هو الخليفة الإلهي، فإن هارون هو خليفة الخليفة، فكان بمثابة الإمام للقطب.

ولما كان موسى عليه السلام كليما، تصدر عنه كلمات الله، التي هي أعيان الموجودات من الحضرة العلمية، كان هارون عليه السلام أخا له ووزيرا في ظهورها به من نَفَس الرحمن؛ فكان شريكا له في هذا الأمر. وقد ذكر الله على لسان موسى أنه قال: ﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ ﴾ [طه: ٣٢]. فكان المقام الهاروني باطن المقام الموسوي، من كونه هو ما به ظهرت الكلمات التي هي أشخاص العالم. ولما بطن النفَس في الكلمات، ظهر الشرك المذموم في الشرع من قبيل عبادة الأصنام أو غيرها. أما الشرك المحمود، فهو علم أن الصور (نعني العالم) ظهرت بين الحق والأعيان الثبوتية. وهذا الشرك، هو حقيقة كل الصور الشركية المعروفة؛ التي حرمها الشرع. ولما كان الشرك ذا أصل في الحقائق، فإنه لا بد أن ينقلب عند صاحبه إلى توحيد؛ إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة. وحتى التوحيد، هل كان يوجد لولا حقيقة الشرك؟! لأنه لا يكون التوحيد عن نفسه، ولا في مقابل نفسه؛ فدل التوحيد على الشرك، كما آل الشرك إلى

التوحيد. لكن ما سميناه الشرك الحقيقي، إنما هو في الأحكام لا في الوجود؛ ولو كان المشركون يميزون بين هاتين المرتبتين، لكانوا من أهل التحقيق. فكان الشرك المذموم كذلك، لأن المشرك يتوهم التعدد في العين التي هي الوجود الحق. والحقيقة أن التعدد هو في الحكم فحسب؛ كأن تقول في شيء واحد هو كذا من وجه، وهو غير ذلك من وجه آخر. فهذا تعدد في الحكم لا في العين. ولهذا السبب كان الله يخصص في الشرك عند ذكره بعبارة "من دون الله"، حتى يُحصر الذم فيما يتوهم المشرك أنه غير الله، لا في العين المسماة صنما أو كوكبا أو غيرهما؛ لأنها من حيث الوجود، هي الله لا غيره. وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ وهم الشركاء المتوهَّمون، لا الأعيان من حيث وجودها؛ ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ، أي: فيرجع سبكم بتوهمهم أنكم تسبون الوجود الصنمي على الله. فيكون سبا منهم لله، بسبب كونهم لا علم لهم بالتفرقة بين مرتبتي الوجود والأحكام. وهذا المعنى كان هو ما وقع عليه السحرة بسبب خبرتهم بالسحر، لما شاهدوا أن عصا موسى انقلبت حية في الحقيقة لا في الحكم فحسب. فكانت آية موسى مع السحرة، مثالا للوجود الحق مع أحكام الصور، في ألطف ما يكون. وانظر إلى السحرة لما آمنوا، كيف: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه: ٧٠]! فتقديمهم لذكر هارون عليه السلام، على ذكر موسى، إنما كان لأن باطن الكلام الوجودي كان لهارون، وإن كان يظهر عن موسى. فعلمهم بحقيقة الحية، عرفهم بمقام هارون (عن شعور أو عن غير شعور)، فذكروه أولا.

والمعنى الذي ذكرناه، هو الذي جعل هارون عليه السلام، يصبر على بني إسرائيل لما عبدوا العجل، باستعجالهم الكلام في المعارف قبل تمييز المراتب، فعاد عليهم استعجالهم وبالا. يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾ [طه: ٨٣]؟ أي: لمَ التحقت بي في

عروجك، وانفصلت عن حكم صورتك؟ وتركت قومك خلفك، وأنت مكلف بمراعاتهم وتربيتهم في أطوارهم؟ ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ [طه: ٨٤]، لأنه ترك هارون خليفة عليهم، فهو مطمئن إلى أنهم آتون خلفه على السبيل القويم؛ ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه: ٨٤]، أي: فلما تخففت بسبب وجود الخليفة بينهم، تحكم فيّ الشوق الأصلي، فعجلت إليك رب لترضى عن عجلتي إليك؛ فالمسارعة إلى الله من صدق العبودية. ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾ [طه: ٨٥]، لما كان مراد الله فتنة القوم، كانت عجلته إليه سببا لذلك. فما هو نفع لقوم، قد يكون فتنة لآخرين؛ وإن تغييب المرسلين من بين قومهم، رفع للأمان في حقهم. وهذا باب من العلم عظيم. ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه: ٨٥]، أي: خرج بهم عن طريق الهدى. ومن حكمة الله، أن لا يكون إمام هدى، إلا في مقابل إمام ضلال، حتى يأخذ كل منهما بفريقه إلى منزله. وفي قول الله ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا ﴾ نوع اعتذار عن القوم، ينبئ أن الأمر إلى خير، بعد ظهور الحكمة من ورائه. ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾ [طه: ٨٦]، بما يعطيه ظاهر الحكمة. ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ [طه: ٨٦]؟ يلومهم على عدم التزامهم بما تركهم عليه. ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ [طه: ٨٦]؟ فاستعجلتم لقاء ربكم بمعرفته، قبل أوان كمال استعدادكم؛ ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [طه: ٨٦]؟ أم أنتم من الشقاء، بحيث أردتم أن تكونوا محل غضب ربكم؟ ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه: ٨٦]، خالفتم عهدي ووصيتي بعدم الدخول في شيء حتى أكون أنا الداخل بكم فيه. فإن الصورة مخالَفةٌ، لكن العلة إما استعجال وإما استحقاق غضب؛ لا ثالث لهما. ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ [طه: ٨٧]، أي: بإرادتنا، وإنما كان الأمر فوق طاقتنا، حتى تُحاسبنا عن نيتنا

فيه. ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [طه: ٨٧]، وهو ما كان أمَرهم موسى بحمله من حلي قوم فرعون التي استعاروها، غنيمة من الله. فشككهم السامري، أن تخلُّف موسى عنهم والمشقة التي يلاقون، هي بسبب حملهم لما لا يحل لهم. فأمرهم أن يجمعوها في مكان، ففعلوا. وهو قول الله: ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ [طه: ٨٧]. ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه: ٨٧]، هم ألقوا الحلي، والسامري ألقى قبضة التراب التي كان أخذها من موضع جبريل لما رآه عند موسى قبل أن يذهب إلى لقاء ربه. وهذا يدل على أن السامري، كان على علم خاص ومشاهدات؛ فأراد أن يتصرف بالخلق، من باب آخر، لا يبلغ ما كان عليه موسى عليه السلام، وما ينبغي؛ لكن يكون في مقابل السحر الوهمي من وجه كونه سحرا محسوسا؛ وليس إلا الخلق، لكن من حضرة جزئية. ولما كان السامري يعلم أن جبريل عليه السلام روح، وأن الروح سبب الحياة في الأجسام، ألقى التراب الذي كان معه على الحلي المجموعة، وهو يتخيل صورة عجل في ذهنه؛ فحييت الصورة في الحس، وخرج العجل يخور. والخوار علامة الحياة الحيوانية، فلا أدل عليها منه: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [طه: ٨٨]. ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه: ٨٨]، لما لم يكونوا يعلمون الفرق بين مقام موسى ومقام السامري، اختلط عليهم الأمر بين إحياء صورة العصا، وحياة العجل. فأوحى إليهم السامري من مقام إضلاله أن العجل هو إلههم وإله موسى، فانقادوا له. وتوهموا أن موسى قد نسي أن ربه معهم، فذهب يطلبه من طريق آخر؛ يقصدون أنه كان ينبغي أن يبقى معهم، حتى يظهر العجل فيعبده مع جملة العابدين. وسبب وقوعهم تحت تأثير صورة العجل هو تنزيههم لربهم بأنفسهم؛ ولما كان العجل الذهبي صورة تنزيه للعجول في نظرهم، فقد تطابق الاعتقادان في عقولهم وأعطيا صورة واحدة. فيقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ [طه: ٨٩]؟

لأن مقام الألوهية مجيب للمألوه، فإن لم تحصل الإجابة التي هي إرجاع القول، فما هو الله! ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٩]؟ لأن الرب يملك ضر عبده ونفعه؛ فإن كان صورة جامدة لا نفع منها ولا ضر، فما هو الله! نعني بالله هنا المرتبة لا الذات، فافهم!

ويحكي الله عن هارون ما كان من أمره مع هذه الفتنة العظيمة، فيقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ [طه: ٩٠]، أي بالعجل؛ وأنتم لا تميزون بين هذه المراتب الخلقية، التي هي الخلق الإلهي، وإحياء الصور الخيالية في الحس، وقبل ذلك خلق الصور في الوهم بالسحر. ومن لا يميز الأمور، هو الذي يسهل إضلاله من قبل الشياطين. فلا منجي إلا العلم: فإما أن يكون المرء نفسه على علم، وإما أن يكون مع رباني صحيح العلم. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ [طه: ٩٠]، يذكرهم بربهم الذي هو الحق، الذي من رحمته أقامه بينهم يحميهم من شرور أنفسهم. ﴿ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ ﴾ [طه: ٩٠]، فإن اتباعي مع الطاعة التي هي التسليم، أسلم لكم من اتباع استنتاجات عقولكم في ما تشهدون؛ فإن ذلك من وراء إحاطتها. ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه: ٩١]، فيؤكد لنا ما نحن عليه، أو يبيّن لنا ما غاب عنا. وما علموا أن هارون صورة من موسى. فهم يتبعون أنفسهم، وإن كانوا يزعمون أنهم يتبعون الرسول. وهذا حال أغلب من يظن أنه من المؤمنين. فلما رجع موسى: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ ﴾ [طه: ٩٢]، أي ضلوا عن الله، بصورة العجل؛ ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه: ٩٣]، أي: تلحق بي في مذهب التحقيق، وتأخذ بيدهم فتهديهم من ضلالهم (أي فيه)، ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾ [طه: ٩٣]؟ أي، بعدم فعل ذلك، مما هو من لوازم خلافتك؟ ﴿ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ ﴾ [طه: ٩٤]، التي هي الحقيقة المحمدية الجامعة لنا معا. يسأله بالرحم الإلهية التي بينهما. ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ [طه: ٩٤]، وهو

شعر وجهه من أعلى ومن أسفل؛ أي لا تبحث في بواعثي الوجدانية العلوية الحقانية أو السفلية النفسانية، فأنا أقول لك: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٩٤]، لأني لو قاطعت الضالين منهم (المصرّين)، لانقسموا؛ وعلاج الأمر بعد الانقسام أصعب بسبب العصبية التي تدخل على الفريقين لعقائدهم. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤]، أي: خشيت أن أكون سبب تفرقتهم، من دون أن أرجع إليك وأنتظر حكمك فيهم؛ فإنك أنت صاحب أمرهم، ولا أعلم أي مسلك تسلك بهم في التعريف. فلما علم موسى حرص هارون عليهما السلام على الرسالة وحسن تبليغها، مع حفظ الأدب في كل ذلك، اطمأن وهدأ؛ وانقلب إلى السامري، يستطلع أمره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ٩٥]؟ لعله يكون له من الجواب ما يثلج صدره، كما كان شأن هارون. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦]، وهو مشاهدة الملك. وهذا يدل على أنه كان ذا روحانية، وليس مثل غيره ممن يغلب عليه الطبع. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، أي: من أثر جبريل عليه السلام، كما مر. ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه: ٩٦]، أي: فألقيتها على الحلي. ولما أقرّ أن ذلك كان من تسويل النفس، علمنا أنه كان على وحي شيطاني، يدله على الطريق دون أن يكون له علم بما يدله عليه؛ لأنه أوصله في النهاية إلى غضب الله الذي أعلن عنه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]، فكان بلاؤه في الحياة نفسها التي دخل فيها بنفسه لا بربه؛ فهو جزاء من جنس العمل. وقوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾: يدل على أن البلاء أصاب صورته رغم تحقق حياته الحيوانية؛ فكانت صورته قابلة للتأثر بمن يمسها كالصورة الوهمية. فكما أنه أحيا من غير إذن صورة وهمية، فإن الله جعل صورته وهمية مع تحقق حياته؛ آية منه سبحانه وتعالى على أنه وحده الخالق المحيي المميت. ذلك أنه

من نزل بصورة وهمية إلى الحس، فقد أحياها؛ ومن أخرج صورة حسية إلى الوهم فقد أماتها في مرتبتها. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه: ٩٧]، بعد انقضاء مدة العقاب، فتعود إلى أصل سلامة فطرتك، سواء أكان ذلك في الدنيا أم في جهنم بعد أن يحصل التطهير. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، أي: انظر إلى الصورة الإلهية التي قيدت الحق بها. ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [طه: ٩٧]، فنُفني الصورة منه، ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: ٩٧]، أي: ثم لنذيبنه في الماء، حتى لا يبقى في توهمك وتوهم غيرك مظنة تصور مقيّد؛ لأن العقول بعد أن تشهد الإحراق والإذابة، تقطع بذهاب ما كانت تتوهمه إلها من دون الله. فهذا علاج ناجع، من رباني حكيم، حتى يعود بقومه إلى سواء السبيل. ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [طه: ٩٨]: الذي دعوتكم إليه في كل الصور، مطلقا عنها؛ ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٩٨]، فيما تتخيلون أنه هو، وفيما تنزهونه عنه من الصور. ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، أي ما وسعه علما مما خرج إلى الحس أو مما كان في الوهم، أو مما بقي في العلم على أصل ثبوته، قد وسعه وجودا؛ فهو الوجود المعلوم، والوجود المتخيل والمحسوس.

وانظر الآن إلى ما أثمرته رحمة هارون لموسى عليهما السلام، لقومه، وحتى للسامري ومن تبعه؛ وانظر بعد ذلك إلى أصل هذه الرحمة الذي هو أصلها، تسعد بإذن الله.

الفصل الواحد والثلاثون

الوجه المحمدي الداودي

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦]، فصرح سبحانه بالخلافة مما يجعل مدلولها متعلقا بالظاهر وبالباطن معا. الخلافة بالمعنى الباطن، هي المسمى صاحبها آدم الزمان؛ والخلافة بالمعنى الظاهر، هي الحكم المعهود، الذي يكون للملوك بأنواعهم. فكان داود عليه السلام يجمع بين النوعين. والخلافة بالمعنى الباطن، تكون للأنبياء في أزمانهم، أو للورثة في أزماننا؛ أما الأخرى فقد تكون للبر كما قد تكون للفاجر.

والخلافة في الأرض تقتضي معاملة العالم بما تطلبه الأسماء الإلهية؛ لذلك أمر الله داود بقوله تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ص: ٢٦]. وخص الناس بالذكر لأنهم محل الحكم الظاهر والباطن معا، بخلاف باقي أجزاء العالم التي هي محل الحكم الباطن فحسب. والحق المأمور به، هو ما سميناه مقتضيات الأسماء المختلفة، والعدل بينها بإعطاء كلٍّ منها حظه في الظهور بحكمه الخاص. ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [ص: ٢٦]، أي: ولا تتبع هوى المَحالّ، فتراعي مصلحتها الخاصة، ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص: ٢٦]، التي هي صلاح العالم بجمعيته المقتضية لفساد بعضه. وجاء بالاسم "الله" لبيان هذه الجمعية من كونه جامعا للأسماء كلها. فسبيل الله، هي غير سبيل الأسماء من حيث معانيها الخاصة. والأمر لداود عليه السلام، بعدم اتباع الهوى، هو من قبيل قول الحق تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾

[المؤمنون: ٧١]، ومعناه: لو أن الله آتى كل واحد من الناس ما يهوى (أي يميل إليه بحسب إدراكه)، لفسد العالم؛ لأن اتباع الهوى مخل بالصلاح العام كما قلنا. والأمر لداود، كان تذكيرا من الله له أنه قائم به، حتى لا يغلب ما تقتضيه الخلافة الظاهرة على متطلبات الخلافة الباطنة؛ لأن لكل منهما مجالا خاصا بها، وأحكاما خاصة؛ وذلك، لأن حكم الظاهر وحكم الباطن، قد يتنازعان المحل. وإذا لم يُراع الخليفة الحكمة في مراد الله، فإنه سيكون مغلبا لحكم الظاهر، مما يُعد اتباعا للهوى في حقه لا في حق غيره. وذلك أن حكم الشريعة حق، وحكم الحقيقة حق؛ لكن اعتبار مراد الله، هو المرجِّح لظهور حكم دون آخر. بل لا يخلو المحل من ظهور الحُكمين معا على الدوام، لكن فرقنا في القول اعتبارا للشرع فحسب. وهذا الأمر الخاص بعدم اتباع الهوى، هو للخلفاء دون غيرهم ممن هم أقل مرتبة منهم.

والأمر هنا، ليس لاحتمال ظهور غير المراد من الخليفة حتى يُنبه إليه، وإنما هو تعليم وإعلام من الله للخليفة بمرتبته. والقائم بالحق، لا يُتصور منه غير الحكم بالحق؛ فافهم. ولقد رأينا في بعض تفاسير أهل الظاهر، أخذ معنى النهي عن اتباع الهوى في حق داود عليه السلام، بالمعنى العام المشترك بين جميع المؤمنين. وهو تقصير في اعتبار مكانته عليه السلام. كيف لا وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[١]؛ فإذا كان هذا في حق الأتباع كاملي الإيمان، فكيف بالمتبوع الذي هو داود عليه السلام؟! ومعلوم أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، ما جاء إلا بالحق، حقيقة وشريعة. فالحقيقة هي الأحكام العائدة للحق من حيث أسماؤه تعالى، والشريعة هي الأحكام العائدة للخلق من كونهم مَحالّ لتجليات معاني تلك الأسماء. وكل هذا لأن الحقيقة المحمدية كانت مزدوجة في الاعتبار. والخليفة مأمور من كونه مظهرا للاسم "الله"، أن يعطي الحق

[١] . السنن لابن أبي عاصم.

حقه، وأن يعطي الخلق حقه. فهذا من العدل الخاص به؛ وهو المسمى بعدل المرتبة. وهذا العدل، هو الذي يظهر للعموم في أعم مظهر يوم الحساب. وقد ذكره الله بعد ذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]. فعمت هذه الآية عدل المرتبة في أحكام الحقائق وأحكام الشرائع.

يقول الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ [ص: ٢١ – ٢٢]. بعث الله إلى داود جماعة من الملائكة دخلوا عليه محل عبادته على غير عادة، ففزع منهم لعدم إلفه إياهم، وخشية من المجهول. ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ [ص: ٢٢]، حتى يطمئن وينتبه إلى ما سيُلقى إليه؛ لأن الخائف يُذهل عما يجري أمامه ولا يعقله. كل هذا من حيث ظاهر الخليفة وطبعه، أما من حيث الحقيقة فما جاءت الأملاك إلا منها. ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٢]؛ القضية لها طرفان، يختصمان في حضرة الخليفة؛ وليسا إلا الحق والخلق في صورة تمثيلية ملكية. وقد أقرّا ببغي بعضهما على بعض؛ وما ذلك إلا طغيان الخلق في شهود البعض، حتى أنكر وجود الحق؛ وطغيان الحق في شهود البعض الآخر، حتى ما عاد يرى الخلق. فهذا بغي من الجانبين. ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ [ص: ٢٢]؛ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، أي: بالعدل، الذي تعطيه الحقائق. ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾، أي: ولا تجعل الواحد منا يعتدي على حق الآخر. ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ص: ٢٢]، الذي هو البرزخ الجامع، حتى يكون حكمه لأحدنا هو حكمه لنفسه. ولا أضمن للعدل من أن يكون الحاكم إذا ظلم، يقع ظلمه على نفسه. وما هذا البرزخ الناظر في هذه القضية الإلهية إلا الحقيقة المحمدية الجامعة بين الحق والخلق. ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ [ص: ٢٣]، الكلام لجهة الخلق، تشكو غلبة الحق بتحقق نسبة الأسماء الإلهية إليه؛ والتسعة والتسعون اسما المذكورة في الحديث هي أئمتها. فقد جاء عن أبي هريرة رضي

الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا؛ من أحصاها دخل الجنة»[1]. وقد جاء ذكر الأسماء في صورة النعجات، لأن الخليفة يرعاها؛ فهو يطلقها أو يمسكها. والتأنيث في النعجات، هو للدلالة على توالد الأسماء عن بعضها. ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [ص: ٢٣]؛ أي: والخلق لهم نسبة واحدة، هي النسبة الذاتية من وراء العدم؛ أو هي الثبوت في العلم، من حيث باطن الذات. والخلق هاهنا، الذين هم باطن الذات بهذا المعنى، الذاتُ ظاهرهم؛ لكن لعزتها لا تُشهد إلا من وراء آثار الصفات. وهذه النسبة الذاتية التي للخلق، هي نفسها ثابتة للحق؛ فهما أخوان في الذات من حيث الأحكام. فإذا كان للحق الأسماء التي هو متفرد بها، وزاد عليها النسبة الذاتية المشتركة، فقد ضمها إليه هي الأخرى. وهو ما عبر عنه الله بقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ [ص: ٢٣]. ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص: ٢٣]، أي: ظهر علي وغلبني إن أنا أردت أن أستبقي النسبة علي. وهذا الأمر واضح، فإن الحق لا يُقارن بالخلق عقلا ونقلا. ونعني بالنقل ظاهره، وإلا فما نتكلم فيه هنا، فهو من باطن النقل. ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ [ص: ٢٤]، هذا من حيث ظاهر الأمر، وإذا نظرنا إليه نظرة غير متأنية. ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٤]؛ الخلطاء، هم من اختلطت أحكامهم، فصار ما كان من صفات البعض، صفات للبعض الآخر. وما ظهر هذا مثل ما ظهر في أحكام الحق والخلق. ألا ترى أن الممكن قد اتصف من وجه بالوجود، فصار الناس يقطعون بوجود العالم تبعا له، مع أنه ما خرج عن إمكانه؟! ثم ألا ترى كيف اتصف الحق بصفات الخلق من ضحك وتعجب وتردد...مما ورد به الشرع الحكيم؟! ثم ألا ترى كيف ظهر العالم بصفات الحق، من غنى وكبر وعزة؛ مع ظهور الحق

[1]. متفق عليه.

بصفات الخلق التي هي الفقر والعجز والذل وغيرها؟! فإن استعظمت هذا، فانظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عن ابن عباس رضي الله عنه: «رأيت ربي في صورة شاب أمرد»[1]؛ فهل يكون الحق إذا ظهر في صورة خلق إلا بصفاته، مما ذكرنا سابقا، ومما لم نذكر؟! فإن غلب عليك التنزيه، كما غلب على قوم أنكروا هذا الحديث وأمثاله، فاعلم أن كل صورة في العالم إنما هي صورة للحق عند أهل الحق. وكل هذا الذي ذكرناه، هو من اختلاط الأحكام الذي نحن بصدده. وإذا ثبت الاختلاط، فقد ثبت البغي؛ إن غلب في الشهود الحق على الخلق، أو غلب الخلق على الحق. والعدل في هذا الباب، الذي هو شهود ما للحق للحق، وشهود ما للخلق للخلق، لا يكاد يوجد لسوى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إلا مرة بعد أخرى، وببركته. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤]، أي: إلا لمن كان حقا وآمن (أي جعله آمنا) خلقَه من أن يطغى عليه؛ أو كان خلقا وآمن حقَّه أن يطغى عليه. وعملوا ما يُصلح خلقهم إن كانوا حقا، أو عملوا ما يُصلح حقهم إن كانوا خلقا. فإنه لا بد في الوجود لكل موجود إما أن يكون حقا، وإما أن يكون خلقا؛ في كل زمن. وهذا يعود إلى حالي الفناء والبقاء المتعاقبين على المَحالّ. أما إن قلت، فلمَ جعلت الحق كثيرا وهو واحد؟ قلنا، لا يكون ذلك إلا إذا تجلى الحق في الصور، أما أحدية الحق فمعقولة غير مشهودة.﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]؛ هذا ما سبق أن بيّنّاه في الأسطر السابقة.

وقد كانت هذه المناظرة، في حضرة الخليفة التي هي عينه الإمكانية، بين حقه وخلقه، حتى يعلم أحكام ظهوراته في صور العالم وأرواحها. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤]، أي: علم أنما فتنّاه، كما يُفتن الذهب والفضة بالنار لتمييز المعدن من الشوائب؛ ليُميّز عليه السلام

[1] . إبطال التأويلات لأخبار الصفات، لأبي يعلى الحنبلي.

أحكام حقه من أحكام خلقه في أحدية عينه. ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ ﴾ [ص: ٢٤]، حتى يدخل في هذا التمييز بربه لا بنفسه؛ فإنه لا يقدر على العدل في هذا المستوى، إلا الحَكَم العدل سبحانه. ﴿ وَخَرَّ رَاكِعٗا ﴾ [ص: ٢٤]، بحقيقته الخلقية، في عدمه الأصلي؛ ﴿ وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤]، فكان حقا محضا في صورة داودية، له فيها كل الحكم. ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ ﴾ [ص: ٢٥]، أي: غفرنا له ما كان من اختلاط قبل أن يقع التمييز فيه بالحق. ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ ﴾ [ص: ٢٥]، أي: فقد أدرك من هذه الحضرة الحُكمية مرتبة قريبة بين إخوانه من الخلفاء. ﴿ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص: ٢٥]، لرجوعه إلى الحقيقة المحمدية في كل ذلك، حتى يكون هو هي من مرتبته، لا من مرتبتها.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ ﴾ [ص: ١٧]، جمع يد، وهي الإحسان. وهذه من صفات الخليفة، الموصل إلى كل جزء من أجزاء العالم رزقه الحسي والمعنوي الذي تقوم به حياته، في أي مرتبة كان. ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص: ١٧]، أي: رجاع إلينا من كل شيء، فهو منا وإلينا في خلافته عنا على العالم. ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ ﴾ [ص: ١٨]، الجبال هي ما ارتفع من الأرض، وليست إلا صور العالم البارزة في الوجود الحق، أو قل هي صور النفوس المترائية في مرايا العقول؛ ﴿ مَعَهُۥ ﴾ : بصحبته لها بحقيقته، فصارت معيته لها معية الحق نفسها، كمثل ما أخبر هو عن نفسه سبحانه لما قال: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾ [الحديد: ٤]. وقد جعل الله الجبال تابعة لداود في معيته، بخلاف تبعية هوية الحق لنا في تلك المعية، حتى يكون العالم بين الحق والخليفة في التدبير، فتثبت الخلافة بالعالم؛ فإنه لولا العالم ما صحت الخلافة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الخليفة إمام في العبودية؛ فكان العالم تابعا له من هذا الوجه. أما اتباع هوية الحق لأعيان العالم حيثما كانت فلقيامها به؛ فهو يحفظها بمعيته من اللحوق بالعدم في الزمن الأول؛ أما لحوقها به في الزمن الثاني فلا بد منه، فيتجلى عليها الحق مرة أخرى

وهكذا...فهذا هو الخلق الجديد المذكور في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: ١٨]، أي من كونهن (نعني أعيان العالم) آيات دالة على معارف إلهية، فهذا تسبيحهن. ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩]، كناية عن أرواح الجبال المذكورة سابقا؛ وكثيرا ما تظهر الأرواح في صور الطير بسبب المناسبة التي بينها وبين السماء، بخلاف الأجسام التي هي أرضية. والخليفة له نظر إلى صور العالم وأرواحها، ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٩]؛ فأوبة العالم أجسادا وأرواحا إلى الخليفة، لأنه صورة الحق فيهم. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠]، فنسبَ الملك له من كونه وجها حقّانيا، مختصا بزمنه؛ مع أنه (أي الملك) بالأصالة لله في كل الدهر. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ [ص: ٢٠]، وهي تمييز الحقائق واعتبارها، ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، حتى يُخاطب كل العالم بما يُناسب أشخاصه، وبكل لسان مناسب لكل شخص، في أي مرتبة كان، ومن أي حضرة كانت المخاطبة، ومن أي نوع كانت.

ويقول الله في موضع آخر: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، والحديد أكثر المعادن قوة. فإن كان أُلين له القوي من المعادن، فهذا دليل على أن القوة الحقيقية له. والقوة المعتبرة عند أهل الله، هي قوة التحقق لا غير. ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، وهي الدروع الواقية المفصلة على مقاس اللابسين من الأعيان؛ وليست إلا الحق الذي قامت به. فوقاية التعينات بالحق، لا تكون إلا على قدر تعينها؛ فهذا هو التقدير. وهذا من علم التقوى الخاص. وهو من خصائص الخلافة الحافظة للعالم؛ فلولا هذا الحفظ، ما كان يبقى من العالم شيء. والوقاية، تكون من الحق وبالحق، لأنه لولا قيام الخليفة بين العالم والحق، لتلاشى العالم؛ ولولا أنه وقاه بالحق ما صحت له الوقاية.

الفصل الثاني والثلاثون

الوجه المحمدي السليماني

يقول الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٦]، فكان سليمان خليفة مثل أبيه عليهما السلام. وكان له الحكم في الظاهر وفي الباطن، فعرَّف عليه السلام بمقامه: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [النمل: ١٦]، الخطاب لأهل زمانه من الناس على الخصوص؛ ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦]، وقد خص الله بالذكر الطير لمناسبتها للأرواح كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق، من حيث أنها لا تحجبها المسافات القاهرة للأجسام في العادة. ألا ترى إلى المتروحنين من الأبدال، كيف يسافرون من بلد إلى بلد بالطيران؟! فهذا من المناسبة. وقوله: ﴿ عُلِّمْنَا ﴾، يدل على أن هذا العلم من الوهب لا من الكسب، حتى لا يتطلع أحد إلى تحصيله من حيث لا يُحصّل. وهو اختصاص للخليفة، أراد أن يظهره الله هنا لحكمة؛ وإلا فإن كل خليفة له هذا العلم وغيره، مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ١٦]. فالخليفة لا بد له من أن يؤتى من كل شيء، حتى يُدبر كل جزء من العالم بما يناسبه؛ وإلا فليس هو بخليفة. ولك أن تعلم سعة المعنى في "كل شيء"، حتى تعلم شيئا من قدر من يتولى هذا المنصب الإلهي. لذلك يعقب الله بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل: ١٦]، لأنه لا فضل بعد العبودية لله، أكبر من هذا الفضل. ومن عُلم منطق الأرواح، فقد علم منطق كل شيء؛ لأنه ما من شيء إلا هو ناطق، وروحه هو المخبر عن نطقه بما هو الأمر عليه؛ لا كما قد يبدو

في الظاهر. ومن هذا الباب، قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فما استثنى سبحانه شيئا من شيء؛ وإنما عمّ وأطلق. فعلمنا أن كل موجود ناطق، ونطقه تسبيحه؛ ولا يكون هذا إلا عن ذي روح، وإن كان في العادة مما لا يُنسب له روح. من هنا كان للخليفة علم بكل شيء، لأن كل شيء يُخبره عما عنده، بحسب أمره وطلبه. فانظر ما أعظم هذا التسخير!

وإذا كان كل شيء مصدرا للعلم، فقد صار كل شيء أجنادا لصاحب هذا المقام، يخدمونه فيما يريد من أغراض: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ ﴾ [النمل: ١٧]. ﴿ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [النمل: ١٧]، وهو ما بطن من المخلوقات، ومنها النفوس الناطقة؛ ﴿ وَٱلْإِنسِ ﴾ [النمل: ١٧]، وهو ما ظهر منها، ومنها الأجسام؛ ﴿ وَٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٧]، وهي الأرواح. ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل: ١٧]، أي: يُحبسون عن التصرف في شؤونهم بأنفسهم (كما يتوهم ذلك كثير من الناس)؛ بل لا يتصرفون إلا بإذن من الخليفة، وإن كان الأمر لا يعلمه كل أحد. والعبرة بالواقع، لا بما يعطيه الوهم. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ [النمل: ١٨]، سُمي النمل نملا لعدم استقراره وسرعة حركته. وإتيان وادي النمل، هو الوقوف على حقيقة الخلق؛ لأن الخلق لا استقرار لهم. فالله يتجلى على الأعيان الثابتة باسمه "النور"، فتدخل حيّز الشهود؛ وفي الزمن الثاني، تعود إلى أصلها العدمي، ثم يتجلى الله عليها مرة أخرى، وهكذا...فلا قرار للخلق من هذا الوجه، ولا أسرع حركة منهم. ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ [النمل: ١٨]، المقصود صنف من المخلوقات المدبرة المفكرة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ ﴾ [النمل: ١٨]، وهي محل السكون الذي هو ضد الحركة. ودخول المساكن، هو طلب القرار في العدم الأصلي. وبما أن السبيل إلى العدم من حيث التجلي منقطع بإرادة الله الخلق لما خلقهم، فلم يبق لهم إلا العودة إليه بالعلم؛ فيكونوا

معدومين عند أنفسهم في عين ظهور أعيانهم. وهذا لا يكون إلا لأهل الله. ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ ﴾ [النمل: ١٨]، لأن سليمان الذي هو مظهر الحق، لا يقبل المزاحمة في الوجود؛ وكل من ادعى ذلك، حطمه (سحقه) بحقيقته، وأفناه عن نفسه؛ فألحقه بالعدم من حيث الوجدان؛ أما من حيث الوجود، فيبقى صورة سليمانية من ضمن صور الجنود: ﴿ وَجُنُودُهُۥ ﴾ [النمل: ١٨]. ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل: ١٨]، أي: لا يبالون، أفنيتم أم بقيتم. والجمع هنا إشارة لكثرة المظاهر الحقانية، وإن كان الحق واحدا من حيث الحقيقة. ومن هذه الحضرة قول الله في الحديث القدسي: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»[1]. ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩]، لأنها من جنوده وهي لا تعلم، فرجع وصفها لسليمان وجنوده بعدم الشعور، إليها. ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ [النمل: ١٩]، أي استعملني بتوفيقك ولا تتركني إلى نفسي في ذلك. ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [النمل: ١٩]، بشهودك فيها، وشهودها منك وإليك؛ مما خصصتني به دون عبادك. ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩]، اللذَين هما علة وجودي، وهما الحق والصورة العلمية، فنعمة الله عليهما بظهور أحكام أحدهما في مقابل الآخر في العين الواحدة. ومعنى الولادة التي نسبناها للحق هنا، ليست هي ما نفاه الله في كتابه بقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾ [الإخلاص: ٣]، لأن هذه متعلقة بأحدية الذات؛ وإنما هي صدور الخلق عن الحق من غير مباينة وجودية. وهي المشار إليها عن بعد، بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف: ٨١]، فجعل هذه الولادة الشهودية، كاحتمال وقوع أمر لا سبيل إلى وقوعه. فانظر ما أدق هذا التعبير! ومن هنا قال المحققون من أهل الله إن

[1] . أخرجه أحمد في مسنده.

الخلق ما ذاقوا الوجود حقيقة، وإنما هم باقون في عدمهم الأصلي؛ لكن هذا التجلي أعطاهم ما هم عليه من اختلاف في الشهود. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩]، برعاية حق الحق، وحق الصورة؛ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩]، الذين ثبتت لهم صفة الرسوخ في العلم، والحكمة في المعاملة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠]، من مقام الخلافة المحيط بالعالم؛ ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠]، والهدهد في الظاهر معروف، ومن حيث الباطن هو الكشف؛ من الهدّ الذي هو الهدم القوي. والكشف يهد الأوهام هدا، كما هو غير خاف. ونحن خلال هذا الكتاب، سيرُنا بين ظاهر نؤمن به كما هو عند أهل العربية ومفسري الظاهر، وباطن نستكشف فيه المعاني الموجودة خلف الصور. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٠]، في هذه الواقعة، من بين أسباب العلم الأخرى. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١]، بأسباب الفكر والاستنباط؛ ﴿أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١]، بانتظار ما سيظهر في الحس، فيكون حاسما له؛ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢١]: أو ليُطلعنني على الحكمة من غيابه عنا، فأطمئن. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، لاقتضاء اللطافة، لأن القرب للحس. ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، أي: عندي من العلم، ما ليس عندك من حسّك. ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٢]، وهو البلد المعروف من اليمن؛ والسبأ في اللغة من أسماء الخمر. فيكون مجيئه مما يشتبه على العقل من الصور المتخيلة. ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢]، أي: بعلم صحيح، غير متوهَّم. ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً﴾ [النمل: ٢٣]، فنكّر لعموم النوع، وإن كانت بلقيس في خصوصها. ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣]، أي: تحكمهم، وأبهم

جماعة المحكومين لمرتبتهم منها. ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣]، أي: من الصفات اللازمة للحكم. ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل: ٢٣]، لأنه عرش الله وهي لا تشعر. ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ [النمل: ٢٤]، وهي صورة للاسم "النور". وسجودهم لهذا المظهر النوري، بسبب رؤية أنه علة ظهور أعيانهم؛ فلولاه ما عرفوا أنفسهم، ولا عرف بعضهم بعضا. ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٢٤]، فبقوا مع اسم تفصيلي، دون اسم المرتبة الجامع؛ فكان هذا شركا منهم. ولو أنهم علموا أن الشمس صورة لله وسجدوا له فيها، ما كان الهدهد اعترض على حالهم؛ وإن كان السجود في الظاهر لا يقترن بصورة دون أخرى، إبقاء لأصل إطلاق الألوهية عن الصورة. ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النمل: ٢٤]؛ والشيطان من شَطَنَ، أي: بَعُدَ. زين لهم أعمالهم المبعِدة لهم عن إدراك الحقيقة كما هي. ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النمل: ٢٤]، صدهم بتزيينه، عن السبيل الموصلة إلى الله في كل أمر وفي كل صورة. ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٤]، أي: إليه سبحانه. ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ [النمل: ٢٥]، أي: إن صورة الهداية هي سجودهم لله، لا لما يتوهمونه غيره؛ ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ ﴾ [النمل: ٢٥]، وهي أعيانهم الثابتة، كالبذور تكون باطنة في العلم. فهو يُخرجها سبحانه من وجود علمي، إلى وجود عيني. ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥]، في المظاهر العلوية، والمظاهر السفلية. ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل: ٢٥]، أي: ما تُخفون من الحق ومن أنفسكم، وما تُعلنون من الحق ومنها؛ فإن الأمر أحكام تظهر أو تخفى؛ أما الوجود فلا شيء يتغير عليه؛ والذي هو: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [النمل: ٢٦] ، فلا شيء معه سبحانه حتى يختلط الأمر على الناظر؛ ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦] ، المستوي على كل صورة بحقيقة الرحمانية؛ فالعرش الكلي هو

مجموع العروش الجزئية. فافهم. ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾ [النمل: ٢٧]، من باب المشاهدة. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: ٢٧]، هل ستقع المطابقة فتكون صادقا؛ أم لا، فتكون من الكاذبين. ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا﴾ [النمل: ٢٨]، فكان كتاب سليمان عليه السلام، صورة للوحي الإلهي المنزل على الناس، وكان الهدهد صورة للرسول. فانظر مقدار تحقق سليمان بالحق! ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]، وهذا من قبيل قول الله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٨]، وهذا من قبيل قول الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل: ٢٩]، عرفت بلقيس قدر الكتاب من القرائن، ومن مُضمّنه. ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٠]، مظهر الحق؛ ﴿وَإِنَّهُ﴾ [النمل: ٣٠]، أي : الكتاب؛ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٣٠]، أي: إن الكتاب من الله، وإن كان المُرسِل له سليمان. ولولا أن بلقيس كانت على علم كبير، ما كانت تدرك هذه الجمعية. وكان معنى الكتاب: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٣١]؛ أي اعلموا مكانتكم مني، واعملوا عليها. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: ٣٢]، فاستشارت قواها لتقطع في أمرها. ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٣٢]، لعلمها بقيمة الشورى وآثارها. ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٣]، فضمنت وحدة العزم، وعدم انقسام كلمة قومها؛ لأنه لا أخطر عليهم من انقسام كلمتهم أمام أي خصم محتمل. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]، تبصرهم بحقيقة الأمر وتبعاته؛ وهذا من الحكمة التي يقتضيها المُلك. والإفساد الذي تقصده هنا، هو تغيير نظام الأمور في مملكتها؛ لأن الملوك

يُمضون ما يرون، ولا يأبهون بما كان قبل مجيئهم. ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ ﴾ [النمل: ٣٤] ، لأنهم لا يقبلون المزاحمة، حقيقةً إلهية؛ وهو معنى قولها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ ﴾ [النمل: ٣٤] ، لأنه لا تبديل لسنة الله. ﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥ ﴾ [النمل: ٣٥] ، لتعلم من الرد مراد سليمان؛ فإن كان المراد تحصيل الجبايات، فالمال يدفع عنهم الغزو؛ وإن كان المراد شيئا آخر تبيّنته من طريق آخر. ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾ [النمل: ٣٦] ، أي: الرسول (الهدهد). ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ [النمل: ٣٦] ، فظهر أن سليمان غني عنهم بما آتاه الله من الغنى الحقيقي، الذي ما الملك الظاهر إلا رشح منه. ﴿ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ﴾ [النمل: ٣٦] ، يُنكر عليهم تعظيم المال، والنظر إليه أنه أعلى ما يُطلب؛ وهذه صفة النفوس الأرضية المقيدة بطبائعها. فاستحقوا أن يدخل عليهم سليمان بلدهم ليحررهم مما هم فيه. وذلك قوله: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ [النمل: ٣٧] ، لأنها جنود الله؛ ﴿ وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ ﴾ [النمل: ٣٧] ، المقصود: الإخراج من القيود التي هم بها محصورون في الأرضيات. ﴿ أَذِلَّةٗ ﴾ [النمل: ٣٧] ، لله؛ ﴿ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ ﴾ [النمل: ٣٧] ، بما يليق للعبد أن يقف به بين يدي ربه. لكن ما لجأ سليمان إلى الجيش المعهود لقهر القوم، وإنما سيسخر جندا من صنف آخر، لم يألفوا مواجهته. ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا ﴾ [النمل: ٣٨] ، لأنه رمز ملكها النفساني؛ فإنه إن اختفى العرش من عندها، جاءوه مقرين بقوته عليهم: ﴿ قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ ﴾ [النمل: ٣٨] . ﴿ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ [النمل: ٣٩] ، وهو من جنوده، والمقصود به القوى الروحانية. ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ ﴾ [النمل: ٣٩] ، أي: في وقت قليل، وبسرعة كبيرة؛ ﴿ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ ﴾ [النمل: ٣٩] ، أي: من دون أن يتضرر العرش، لأن

نقله بهذه السرعة يمكن أن يكون على حساب حفظ صورته؛ فنفى هذه المظنة. ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [النمل: ٤٠] ، المقصود بالكتاب: الوجود؛ فكان هذا الشخص الإنسي من المحققين. ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ [النمل: ٤٠] ، أي: في زمن فرد واحد. فدل على أنه كان مظهرا لإرادة سليمان وقدرته. وهؤلاء هم أصحاب "كن" من أهل الله. ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ [النمل: ٤٠] ، نُقل العرش من مكانه إلى مقام سليمان في اللحظة. فكان إعداما له في مكانه الأول، وإيجادا في المكان الثاني. ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ ﴾ [النمل: ٤٠] ، حتى لا ينسى أن التصرف في الأشياء هو لله لا لسواه، فإذا أظهره الله على بعض عباده فهو من باب الكرامة التي تستدعي الشكر؛ وإلا انقلبت بلاء شديدا قد يكون سببا إلى العذاب. لذلك قال: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ ﴾ [النمل: ٤٠] ، أي: إن ثمرة شكره عائدة عليه بتجنيبه الغضب الإلهي؛ ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [النمل: ٤٠] ، بانحجابه عن الحق بنفسه في هذا الأمر، ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠] ، لا ينقص كفر الكافرين من ملكه شيئا، سبحانه؛ ولا يمنع الكرم العام الذي يستجيب لدعاء الحال منهم. ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا ﴾ [النمل: ٤١] ، أي: غيروا صورته، حتى يضرب لها مثلا إلى معرفة الله؛ ﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ ﴾ [النمل: ٤١] ، ننظر هل تكون ممن يفقه المعاني، ﴿ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل: ٤١] ، ممن غلبت كثافتهم على نفوسهم، فهم لا يُدركون إلا المحسوسات. وهذا من حكمة الداعي إلى الله، يستقرئ الاستعدادات حتى يخاطبها بما يليق بها؛ ولا يُتعب نفسه في غير مأمل. هذا في الدعوة الخاصة خصوصا، أما الدعوة العامة فتتطلب التبليغ للجميع من غير نظر للاستعداد. ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ ﴾ [النمل: ٤٢] ، إما من تلقاء نفسها، وهو الأكمل؛ وإما بعد استدعائها؛ ﴿ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾

[النمل: ٤٢] ؟ لتنبيهها إلى محل النظر والامتحان. ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] ، فكانت حكيمة في الرد بقولها هذا. والإتيان بحرف التشبيه، إشارة إلى مشاهدة التنزيه في التشبيه؛ من باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه»[1]. فلما أخبرت عن كمال استعدادها، ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ [النمل: ٤٢] ، أي: إن الله تعالى تفضل علينا بهذا العلم (والقول لسليمان) من قبلها؛ ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل: ٤٢] ، فهو (أي العلم) روح إسلامنا؛ ولولاه كان إسلامنا مجازا لا حقيقة له. ومرتبة الإسلام الحقيقي لا تكون إلا للعارفين المحققين. هكذا هو الأمر. ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣] ، أي: في وقت إسلامنا، ووقوعها تحت حكم وهمها. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣] ، يشهدون صور المخلوقات ويقفون معها في العلم والمعاملة؛ ولا خبر لهم عن الحق وتجلياته. وهذا من باب تأثر المرء بمن يحيطون به، وهو باب عظيم من علم الصحبة. ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤] ، الصرح هو القصر، وصَرُح الشيء: خَلُصَ. فكان هذا إدخالا لها إلى حضرة العلم من باب التمثيل الخيالي. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل: ٤٤] ، فصارت تعبر من الصور إلى معانيها، بما يدل على علو استعدادها. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل: ٤٤] ، تحققا بهذه القوة التي آتاها الله، ببركة سليمان عليه السلام. والذوق حيثما حصل يعطي الوجدان. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤] ، أي: من زجاج مملس؛ حتى تفصل بين الصورة في نفسها، وبين المعنى الذي خلفها؛ لأن اللطيف لا ينقلب كثيفا، وإنما الكثيف يدل عليه نوع دلالة. لذلك يسمى علم استخلاص المعاني من الصور علم التعبير؛ لا علم التحويل أو الإقلاب. فافهم. فلما تحققت بلقيس بهذا العلم، وعلمت مرمى سليمان، عرفت أن سليمان ومسمى بلقيس،

[1] . متفق عليه.

ليسا إلا مظهرين من مظاهر الحق. وعرفت لسليمان السبق والإمامة في هذا العلم الأنفس، فتأدبت مع ربها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [النمل: ٤٤] ، بجهل حقيقتها، وبخسها قدرها؛ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل: ٤٤] ، أي: مؤتمّة به عليه السلام، ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤] ، الذي لا يخرج عن إحاطته الوجودية شيء من الموجودات في العوالم كلها. فنالت بلقيس المعرفة بربها، وفازت بأخص السعادة وكبرى النعم، وكانت حسنة من حسنات سليمان عليه السلام.

ثم يقول الله في موضع آخر: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص: ٣٤]، وقد ذكر أهل التفسير أقوالا مختلفة في هذه الفتنة، مدارها على استيلاء شيطانٍ ظهر بصورة سليمان عليه السلام، على ملكه؛ حتى أن سليمان كان يعرّف الناس بنفسه، وما كان يُصدقه أحد. وربطوا ضياع المُلك من سليمان بضياع خاتمه في البحر. ولما شاء الله بعد مدة أربعين يوما على أحد الأقوال، أن يعود المُلك إلى صاحبه، وجد سليمان الخاتم في بطن حوت ما كان يُتوقع أن يكون فيه. وهذه القصة، تفيد تحقق سليمان عليه السلام بالحق في تجل مخصوص، وهو كون الخلق لما شاهدوا أعيانهم في الحق، فإن أغلبهم اعتبروا أن الوجود لهم بالأصالة، فإما كفروا، وإما آمنوا وأشركوا. وصار الحق في نظرهم، كأنه ليس صاحب المُلك، حتى إن هم أقروا بألسنتهم؛ لأنهم لو كانوا يرون أن الله هو الملك الحق، لكانوا يتوجهون إليه وحده عند نزول المصائب بهم، من كونه سبحانه وحده المتحكم في كل شيء. فلما رأينا العكس، علمنا أن هؤلاء الناس، يتوهمون المُلك إما لأنفسهم، إن كانوا من أصحاب السلطان؛ وإما لغيرهم من أمثالهم، إن كانوا من غيرهم. فذاق سليمان هذا الشأن الإلهي في مدة إنكار الناس له؛ ولما رجع إليه المُلك بعد انتهاء الفتنة، علمنا أن الخلق سيرجعون إلى

الحق في عقائدهم، إما في الدنيا فيما يتعلق بمن سيُختم له بالإيمان، وإما في الآخرة في النار، فيما يعود إلى من سيموت على الكفر. وبعد انقضاء زمن الغضب الإلهي، لا بد أن يعتبر الله ذلك الرجوع إليه، فإنه سبحانه الحكيم العليم.

وهذا الذي حدث في العالم، من نسبة المُلك في زمن ما لغير صاحبه الحق، جاء من كون العالم خرج من شرك في مستوى الحقائق. وما كان له أصل في الحقائق، لا بد له من ظهور في الشهود في زمن ما.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ [ص: ٣٥]، شهودَ وجود نفسي في أزماني، قبل شهود وجودك الحق؛ ونسبة الأمور إلى نفسي، قبل نسبتها إليك؛ فاغفر لي، أي: غط توهم وجودي بشهود وجودك، وامح نسبة الأمور إلي بتحققي بنسبتها إليك. ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا ﴾ [ص: ٣٥]، وهب لي بك ومنك وإليك ملكا حقيقيا؛ ﴿ لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص: ٣٥]، أن يظهر به في الدنيا، كما أظهر به؛ حتى يكون لي ميزة فيك، وأنت قد خصصت كل من شئت بما شئت. ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص: ٣٥]، فلا فضل لنا إن نحن ظهرنا بفضلك علينا، وإنما الفضل لك؛ لأنك أنت وهاب كل فضل وأهله. فاستجاب الله له دعاءه، ووهب له ما لم يظهر به أحد من التسخير اللازم لمرتبة الملك. ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص: ٣٦]، فكان يأمرها بما يشاء فتأتمر، من وجه خاص لا من الوجوه المشتركة مع أصحاب الهمم والتصاريف؛ وإلا ما تحقق التمايز. ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ص: ٣٧]، سُخّروا أيضا بالأمر إن أطاعوا؛ فإن عصوا فكان تسخيرهم بوقوعهم تحت قهره، ممن قال الله فيهم: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص: ٣٨]. ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا ﴾ [ص: ٣٩]، من عين المنة والوهب. ﴿ فَٱمْنُنْ ﴾ [ص: ٣٩]، فأعط أنت من رعيتك من تشاء؛ ﴿ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص: ٣٩]،

أو امنع من تشاء، من غير أن تُحاسب عما تفعل؛ لأن الملِك الذي لا يتصرف في ملكه بما يشاء، فما هو ملك حقيقة. من أجل هذا قال الله تعالى، عن نفسه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]؛ حتى يمتاز الملِك من الرعية. ثم يقول بعد ذلك الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص: ٤٠]، حتى لا يظن ظان أن الملك الذي آتاه الله سليمان سينقص من أجره في الآخرة، بل هو زيادة فضل، ومزيد اختصاص. هذا من جهة الظاهر، وأما من جهة الباطن، فإن تحقق سليمان بالحق، أفضل عنده من تصرفه في الخلق. ومقام المرء حيث نظره.

وقد راعى سيد الأدباء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وامتنع أن يظهر منه مثل ما ظهر من سليمان عليه السلام، من هذا الوجه، لما أمكنه الله من العفريت. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:«إن عفريتا من الجن تفلّتَ عَلَيَّ البارحة (أو كلمة نحوها) ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه؛ فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كُلُّكُمْ. فذكرتُ قول أخي سليمان: ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ، فرده الله خاسئا»[1]. فاتضح أن ما اختص به سليمان عليه السلام هو ظهور مخصوص بالملك، لا عين الملك؛ لأن الملك لكل خليفة ثابت من غير شك. فكان امتناع محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إلى جانب كونه أدبا مع سليمان عليه السلام، جبرا لخاطر كل خليفة، بالدلالة على أصل الأمر. وإياك أن تغفل عن كون سليمان وجها محمديا فحسب، حتى تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما تأدب إلا مع نفسه، ليعطي كل ظهوراته حقها.

---

[1] . أخرجه البخاري.

الفصل الثالث والثلاثون

الوجه المحمدي الإلياسي

بما أن إلياس عليه السلام هو إدريس الذي رفعه الله، فهو صورة إدريسية محمدية. أنزله الله بعد رفعه، وبعثه إلى قوم من بني إسرائيل، تحولوا إلى عبادة صنم يقال له بعل. وهو في الأنبياء عليهم السلام، نظير الخضر في الأولياء.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٢٣]، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٢٤]، في مقام الأفعال: ألا تتقون بالطاعة من العذاب؟! وفي مقام الصفات: ألا تتقون بالعبودية لله من غضبه تعالى؟! وفي مقام الذات: ألا تتقون بالحق من العدم الأصلي الذي لكم؟! واعلم أن التقوى في مقام الذات، لا تكون إلا بتحقق العلم الصحيح؛ لأنه قد ثبت لجميع الخلق معنى التقوى من حيث الوجود، بمجرد خلقهم. فالخلق قسمان لا ثالث لهما: قسم عالم، وقسم لا علم له بالأمر؛ أما من حيث الواقع (الوجود) فهم سواء. يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]. فبعث الله إلياس لأهل بعلبك يردهم إلى العلم بعد الجهل. وكان بحقيقته وصورتَيْه دالا لهم على العلم، حتى لا يُقيّدوا الحق بصورة مخصوصة؛ ويكفروا به فيما عداها. يقول لهم عليه السلام: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ [الصافات: ١٢٥]؟ وهو صورة عدمية تجلى الحق فيها، ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٢٥]؛ فنسب الله الخلق إلى الكثرة، وامتاز عنهم بالمجموع. فهو سبحانه أحسن

الخالقين، من كونه الخالق في جميع الصور التي يظهر عنها الخلق، بالإضافة إلى المعنى الأصلي الذي للخلق. ومن هذه الصور، صانع التمثال إذا صنعه؛ فهو يدلهم من مرتبة الأفعال على الله الواحد، ولو أنه خاطبهم من مرتبة أعلى، ما علموا ما يقول. فهذا من مخاطبة الناس على قدر عقولهم. فإن فهموا عنه، سيعلمون أن الحق ليس مخلوقا، فيميزون مرتبته، فيسعدون. ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٢٦]، الذي خلقكم، وخلق آباءكم الأولين أجمعين؛ فهو من هذا الوجه أحسن الخالقين، لأنه انفرد بخلق كل الناس، بل كل شيء، وحده؛ سبحانه. ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ [الصافات: ١٢٧]، وتمسكوا بعبادتهم للصنم، وما صدقوا ما دعاهم إليه من السّعة؛ لأن بعض النفوس تأنس بالضيق أكثر من السعة، من كونها تتوهم الأمان في الضيق. فدل هذا على ضعف استعدادهم، المستوجب للعلاج والتقويم. ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٧]، فهؤلاء لا ينفع معهم الكلام عن غيب؛ وإنما لا بد لهم من الحضور حتى تحصل لهم المعاينة؛ فيصلون بالنظر إلى ما دعاهم إلياس إليه. والترقي من الإيمان إلى الإيقان، يكون إما بالتربية المعهودة عند أهلها، وإما بالعذاب الذي هو تربية إلهية تتدارك من لم يكن له نصيب من تربية الرسل عليهم السلام. لذلك، فإن العذاب يُثمر لأهله ما تثمره التزكية لأهلها. بل هما عذابان: عذاب نار المخالفات والمجاهدات للسالكين، وهو حظهم، وهو أصغر؛ وعذاب الأخذ أو نار الجحيم للكافرين، وهو حظهم، بسبب قصور استعداداتهم؛ وهو أكبر. ولذلك أيضا، لا تجد من أهل الآخرة من يبقى على كفره، ولو عنادا؛ من جهة، لأنه مُحضر؛ ومن جهة أخرى لأن العذاب، لن يترك له داعيا إلى الكفر. فيكون المعذب بعد انقضاء عذابه، مكمَّلا من حيث الاستعداد؛ فيكمل إيمانه، ويصح عرفانه.

فيصير من لا علم له، بعد حين، صاحب علم؛ ويلتحق الفريق بالفريق، من حيث العلم لا من حيث الدار.

وإذا نظرنا إلى الجنة وجدناها مشتقة من جَنَّ: أي حجب وستر؛ وإذا عدنا لأهل النار، وجدنا الله يقول عنهم: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين: ١٥]، فعلمنا أن أهل الجنة وأهل النار معا في مقام الحجاب؛ إلا أن أصحاب الجنة حجابهم نعيم لنفوسهم، وأصحاب النار حجابهم عذاب لنفوسهم. وهذا لأن الفريقين معا، مع الصفات؛ فإن هم رجعوا إلى الذات، من وراء الصفات؛ وهو وقت انتهاء اليوم المخصوص، المعبر عنه بـ"يومئذ"، ارتفع الحجاب العلمي، وتجاوز الوجد العذاب والنعيم. وقد ذكرنا أن الرجوع إلى الذات، يكون من وراء الصفات، لأن العلم بالذات من غير هذا الباب لا يصح مطلقا. فالذات الصرف لا يتعلق بها علم، لكن إذا جاء المرء من باب الصفات، فإنه ينال علما بها يليق بالمقام. لذلك جاء التعبير عن هذا العلم في الوحي باسمه تعالى "هو"، لكونه ينال من وراء تجليات الصفات؛ فيكون "الهو"، هو عين ما غاب شهودا، وحصل العلم به. أما الذات الصرف، فلا يُسمى هو، ولا يقبل اسما مطلقا. وقد استشكل العلم بالذات أناس، فظنوا أنه ممتنع من جميع الوجوه؛ وهذا جهل بمدلولات الوحي، لو أنهم كانوا يؤمنون؛ أي يأخذونه بالتسليم عن الله، حتى يمن عليهم بفهم مراده فيه.

ثم استثنى الله من قوم إلياس المحضَرين، فقال سبحانه: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٢٨]، فهم غير محتاجين لعلاج ولا تقويم، بسبب كونهم صاروا بتزكية رسولهم لهم مُخلَصين لله؛ أي لم تبق فيهم بقية لغيره سبحانه، فهم حق محض. كل هذا من حيث العلم.

ولما سأل إلياس ربه اللحوق به، جعل له موعدا في مكان وزمان مخصوصين، وكان في صحبته اليسع عليه السلام تلميذه؛ فرفعه الله إليه. فصار الموت الطبيعي مؤخرا له مع

الآخِرين: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٢٩]؛ فهو حي اليوم حياة طبيعية روحية، بين حياة الملك وحياة البشر، حتى يأذن الله. ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٠]، من السلامة الجسدية والروحية؛ حتى لا تذهب الظنون فيه إلى تأويلات قاصرة. فمن لم يكن ذا علم بأمره عليه السلام، فلا يمنعْه أن يكون ذا إيمان بما أخبر الله عنه. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الصافات: ١٣١]؛ المحسنين: الذين يُحسنون العلم والمعاملة؛ فيراعون المراتب والمواطن، ويدورون مع الأحكام حيث دارت. جزاؤهم من الله السلامة في المقام، فيكونون أهلا لثنائه عليهم. وهو أعلى أنواع الثناء. وصاحب لواء هذا الصنف من الثناء بالأصالة، هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقد جاء عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»[1]. فكان إلياس، بما أخبر الله عنه ورسوله، تحت لواء الحمد المحمدي.

ثم يقول الله عنه: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٢]؛ والإيمان في مقام إلياس عليه السلام، لا يكون إلا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا بالغيب، وإن كان مع شهود صورة؛ فتكون المشاهدة للصورة، والإيمان للمتصوّر فيها. ومقام إلياس يقتضي أنه كان من خواص أهل الحق، لكن يبقى أمامه في العلم به ما اختص به محمد صلى الله عليه وآله وسلم دونه؛ وليس له حيال هذا الصنف من العلم إلا الإيمان، لا غير. وما يقال عن إلياس عليه السلام، يصح في حق جميع الأنبياء، كما دل الحديث المذكور. فامتاز محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بكون علمه الشهودي، يسبق شهود غيره بمرتبة،

[1] . أخرجه الترمذي في جامعه.

وليس له هو من متعلّق للإيمان، إلا الغيب الذاتي، الذي هو وراء الهو؛ ذلك لأن الـ "هو"، في حق غيره، شهود في حقه. أو إن شئت قلت: الـ "هو" عنده غير الـ "هو" عند من عداه؛ وإن شئت قلت: إيمانه عليه وآله الصلاة والسلام، من وراء الـ "هو".

الفصل الرابع والثلاثون

الوجه المحمدي العزيري

يقول الله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ أرسل الله عزيرا عليه السلام إلى قرية يجدد فيها التوراة، ويذكّر أهلها بها؛ لأن كل الأنبياء الذين بُعثوا بعد موسى عليه السلام، لم ينسخوا التوراة، وإن كان بعضهم قد زاد عليها بما اختص به؛ كما اختص داود بالزبور وعيسى بالإنجيل؛ على الجميع السلام. فلما وصل عزير إلى القرية وجد أطلالا: ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؟ وهو سؤال استفساري كما يليق بمقامه عليه السلام؛ لأنه كي يعلمهم، لا بد أن يكونوا أحياء في زمنه. وهذا مما يؤكد أن التربية لا بد فيها من أن يعاصر التلميذ أستاذه. هذا هو الأصل.

فلما وجد عزير القرية خاوية، تعجب كيف سيكون الاجتماع بينه وبين أهلها. وتنبه إلى شق الأمر، ولم يتنبه إلى الشق الآخر. فسأل عن حياة القرية كيف تكون؟ حتى يلتحق به أهلها في الزمان؛ وما فطن أن اللقاء سيتم بعد إماتته هو. ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ حتى إذا بُعث وجد القرية تدب بالحياة، فتم اللقاء في الزمان. وبعث الله ملكا إلى عزير يسأله بعد بَعثه: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؟ وهو ما شعر إلا أنه كان نائما؛ ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وهو الزمن الذي يستغرقه النوم على أقصى تقدير، في العادة. هذا يدل على أن النوم موت أصغر، كما أخبر الله بقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢]. وفرق الله بين الوفاة والموت، فجعل الوفاة مشتركة بين النوم والموت، وجعل الموت غير النوم باعتبار الإرسال والإمساك. فكان عزير متوفى من حيث هو نائم، وميت من حيث إمساك نفسه مائة عام. وكان استيقاظه من النوم، بعثا من الموت أيضا. فجمع الله له بين النوم والموت في حياته الدنيا. ﴿ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فعلم عزير عليه السلام، أن نومه كان موتا؛ وأن يومه كان قرنا. وعلمنا نحن من هذا، أن الزمان أحدي الحقيقة، وهي الدهرية. والدهرية على التحقيق انتفاء الزمان، بشهود التعينات دفعة واحدة من غير ترتيب. وهذا لا يكون إلا لله من حيث هو الدهر سبحانه. وقد جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، يقول: يا خيبة الدهر! فلا يقولَنَّ أحدُكم: يا خيبة الدهر؛ فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره؛ فإذا شئت قبضتهما »[1]. وانظر إلى قول الله: "فإذا شئت قبضتهما"، يدلك على فناء الزمان في أصله، المعقول بليله ونهاره.

والزمان من حيث كونه معقولا غير موجود، كانت النفوس تدركه كلٌّ على حسبها. فاليوم يختلف فيما بينها، والعمر يختلف، رغم أحديتهما. فمن الناس من يعيش عشرات السنين، ومنهم من يعيش يوما واحدا أو أقل؛ والعمر هو العمر. ومن المخلوقات من يعيش قرونا، ومنهم من يعيش لحظات؛ والزمن هو الزمن. فعلمنا أن وجدان الزمن يختلف من واحد لآخر، بل من وقت لآخر عند نفس الشخص؛ كما يحدث عند البلاء والنعم. فمن المعلوم، أن المرء يجد الدقيقة مع الألم كالسنة، ويجد السنة في النعيم كالدقيقة. كل هذا والزمن لا يتغير في نفسه. ومن هذا الباب طي الزمان لأهل الله، حتى يعيشوا في الساعة، عشرات السنين؛

[1] . أخرجه مسلم في صحيحه.

ويصلون إلى البلاد البعيدة، في الحين، ويوسع لهم في أعمارهم، فيعملون ما لا يطيق أحد أن يأتي به إلا في عدة أعمار. وهكذا...فآية عزير عليه السلام كانت من هذا القبيل.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، أي: لم تصبه العفونة التي تؤدي إلى الفساد في العادة. فكان الزمن بالنسبة إلى الطعام والشراب، يوما أو بعض يوم. وهذا من النسبية التي ذكرنا. ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، وكان عظاما منثورة؛ فكان الزمن بالنسبة إلى الحمار مائة عام. وهذا أيضا من النسبية. ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، تعرّفهم بحقيقة الزمان الدالة على الدهر سبحانه. فإن الآيات لا تدل إلا على الله، من مختلف وجوهه؛ وإلا فما هي آيات. ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، أي: نجمعها ونركبها بعضها على بعض. ﴿ ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ؛ فعاين عزير كيفية الإحياء، مثل ما عاينها إبراهيم؛ لكن مشهد إبراهيم كان أعلى ولا شك، لأن التحقق أعلى من المشاهدة. فكان هذا إجابة من الله لسؤاله الأول: ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ؟ ثم يقول الله بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، أي: كيفية إحياء الموتى، ﴿ قَالَ أَعۡلَمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، عن معاينة بعد إيمان؛ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، أي أن القدرة تعمّ كل شيء من حيث احتمال التعلق، وهذا ينفي العجز في حق الله جملة وتفصيلا. وقلنا باحتمال تعلق القدرة، لأن تعلقها يكون بعد تعلق الإرادة؛ وعليه، فإن ما لا تعلق للإرادة به، لا تعلق للقدرة به.

ولما استيقظ عزير من نومته، ووجد القرية بأهلها كما تكون على عادتها، أخبرهم عن نفسه، وأنه عزير وقد كانوا سمعوا به؛ فأنكروه حتى سألوا امرأة عجوزا كانت تعلم أوصافه، فلما أخبرتهم صدقوه، وبدأوا يأخذون عنه ويستمدون منه. ولكنهم بعد طول العهد، ودخول

التأويلات الفكرية، نسبوه بالبنوة إلى الله، تعالى الله عن ذلك. وهو ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]. والسبب في ذلك أن العقول الضعيفة، إذا رأت من صورة خلقية، ما هو عندها من خصائص الألوهية، مع علمها أن الله ليس هو الصورة من باب التنزيه الذي تكون عليه عقائدهم، فإنها لا تجد تفسيرا أقرب إلى إدراكها، إلا أن تقول عن الشخص: هو ابن الله. فهو ليس الله من باب التنزيه؛ وهو ابن الله من باب تنزيه الشخص المعني، عن أن يكون كغيره من الناس. فأنتج لهم هذا التنزيه المزدوج تشبيها متجاوزا للحد. وذلك لأنهم نسبوا الأبوة لله الذي ينزهونه، بينما غيرهم من أهل التشبيه الشرعي، تشبيههم متعلق بالصورة فحسب. كل هذا، وهم لم يشعروا بما وقعوا فيه؛ بسبب ضعف الإدراك.

ولما جعل الله الأمة المحمدية على أعلى استعداد، فإنها رغم علو مكانة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم، لم تقل فيه ما قالته الأمم الضالة. وهو صلى الله عليه وآله وسلم، قد جاءها بالتجلي الإلهي في أكمل صورة، وأتم علم؛ فكان علمها، حافظا لها من الوقوع في الزلات، بسبب كونه يغطي جميع الوجوه من كل المسائل. هذا على العموم، وإلا فإنك تجد من حيث التفصيل كل العقائد السابقة موجودة في صورة من الصور عند هذه الأمة. وهذا أيضا بسبب إحاطته صلى الله عليه وآله وسلم بكل الوجوه الرسالية التي ذكرنا جملة منها في هذا الكتاب.

الفصل الخامس والثلاثون

الوجه المحمدي الزكريَّوي

لما وضعت امرأة عمران مريم عليها السلام، وكان أبوها قد توُفِّي؛ وكانت الأم قد نذرتها للعبادة وخدمة بيت الله؛ ولما كان الله قد تقبلها قبل أن تولد، وأنبتها نباتا حسنا بعد ذلك، كفلها ليتم عنايته بها؛ فكان زكريا هو كفالة الله لها: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧]. ولا شك أن الكفالة هي عين الرحمة، للأنثى اليتيمة؛ فكان عليه السلام على هذا رحمة لها. فذوق زكريا كان الرحمة، ومن كان ذوقه الرحمة، وجد نسبة منه إلى كل شيء؛ بسبب أن كل شيء مرحوم. لا يقدح في هذا، تميّز رحمة الاختصاص من الرحمة الأصلية. لذلك ورد في التنزيل: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ لأنه كما وسع الله كل شيء وجودا وعلما، وسعه الرحمن رحمة. وهو قوله تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى أيضا: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر: ٧]. وأسبقَ سبحانه ذكر الرحمة على ذكر العلم، لأنها أعم منه، من حيث كون العلم مرحوما بها أيضا، ومن حيث كون المعلوم إنما بالرحمة عُلم. فلا أعم من الرحمة.

ومن كانت صفته الرحمة، فلا أوسع منه استيعابا للخلق؛ فهو يعتني بالقريب وبالبعيد، ولا يُهمل صديقا ولا عدوا؛ وإن كانت رحمته تخفى عن إدراك الناظر، إن كانت متعلقة

بالمخالفين؛ وذلك لأن من الرحمة العقوبة. وقد جهل أغلب الناس هذا النوع من الرحمة، لعدم ملاءمته الأغراض، فظنوه ليس منها؛ وأدى جهلهم بها إلى عدم معرفة الرحماء بينهم.

وقد تجلت رحمة الله من زكريا لمريم في إتيانها رزقها من الغيب، حتى لا يُحوجها إلى الحركة في طلبه. مع العلم أن أكثر ما يهم الناس ويتعبهم في العادة طلب الرزق؛ فمن ضمن له رزقه من غير سبب ظاهر، فقد نال حظا من الرحمة وافرا. وقد بلغ الأمر بمريم، أنها كانت تأتيها الفاكهة في غير أوانها.

ولما كانت الرحمة أول ما تنال صاحبها، وإليه تعود من كونه إذا رحم غيره فما يرحم إلا نفسه، كما جاء في الحديث: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]؛ فإن رحمة زكريا عليه السلام لمريم، عادت عليه. وقد كان عليه السلام يتمنى أن يهبه الله ولدا يرث النبوة منه، ويكون خليفة على بني إسرائيل من بعده؛ لكنه كان قد تقدم به السن هو وزوجه. وفي العادة يكون الإنجاب في سن أصغر من سنه. فلما رأى الفاكهة عند مريم في غير إبانها، أفهمه الله أن الولد يُمكن أن يأتي مع الشيخوخة، من وجه كون الولد ثمرة والديه. ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ [آل عمران: ٣٨]، لما علم أن الله فتح له باب الدعاء. ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨]؛ فدعا بالرحمة لنفسه، ولمن يأتي من ذريته عليه السلام. ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩]. فاستجاب الله دعاء زكريا على ما خصص في سؤال قالِه وحاله. فأما إجابة سؤال القال، فهي النبوة وتوابعها؛ وأما إجابة دعاء الحال، فهي كون يحيى عليه السلام حصورا لا يتزوج النساء، وذلك بسبب تأثره بصورة مريم البتول وإعجابه

[1] . متفق عليه.

بحالها. فجاء يحيى على صورة مريم، عليهما السلام. ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠]؟ السؤال من زكريا هنا، ليس شكا في موعود الله كما قد يتوهم المتوهمون، وإنما هو استزادة من رحمة الله بذكر مواطن الضعف عنده، المذكورة بعدُ: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ [آل عمران: ٤٠]، ثم: ﴿ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠]؛ فلا ألذ من التذلل بين يدي الرحمن الرحيم، عند من يعقل. ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٠]، برحمته. ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ [آل عمران: ٤١]، رحمة بحالي. ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤١]، فجعل الله آيته أن لا يستطيع النطق ثلاثة أيام. وكانت الثلاثة أيام، صورة لعدم توافر الأسباب المؤدية للحمل، وهي:

١. عدم سؤال الولد من زكريا لربه، بالحال والمقال فيما سبق. وسؤال الحال مجاب على كل حال.

٢. عدم صلاحه للإنجاب من كونه عليه السلام كبيرا في السن.

٣. عدم صلاح زوجه للحمل، بسبب كبر السن أيضا.

فكانت الثلاثة أيام عدمية، لا يتكلم فيها زكريا إلا رمزا، أي: إشارة؛ وهو ما بقي له من دعاء ربه. ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ [آل عمران: ٤١]، أي: انس نفسك، وما يعود إليها من مثل قولك: هل أنا أصلح أم لا أصلح؟ فهذا لا يليق بمن قصد الله في حاجة، لأن المسؤول سبحانه على كل شيء قدير. ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤١]، أي: ونزه ربك أن يتأثر في عطائه بشيء مما يعود إليك. فأنت تأخذ منه على قدره، لا على قدرك. وهذا الباب في الأدب من أنفع ما يدخل به المريدون على ربهم، وهو مجهول عند

أغلبهم. فهذا كله من رحمة الله عبده زكريا، كما قال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾ [مريم: ٢].

وهذا الوجه الزكريَّوي، آية على الرحمة المحمدية الأصلية، التي رحم بها الخلقَ أجمعين، ورحم بها الحضرتين الحقية والخلقية، بجمعهما إلى بعضهما، حتى يمتاز الراحم والمرحوم. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينادي: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»[1]؛ تعريفا بنفسه رحمةً بالناس، حتى يلجأوا إليه ويحتموا به من أنفسهم ومن كل الخلق. ويقصد صلى الله عليه وآله وسلم بـ"المهداة" رحمة الامتنان والوهب؛ التي هي نائلة كل الموجودات، والتي هي الأصل حتى في رحمة الاستحقاق؛ لأنه لولا رحمة المنة، ما ظهر من العبد ما يستوجب الرحمة.

وله صلى الله عليه وآله وسلم رحمتان: ظاهرة وباطنة؛ فالظاهرة هي المعلومة من سيرته الشريفة وظاهر الوحي. فإما يعلمها منه صلى الله عليه وسلم من ذاقها، أو يؤمن بها العبد، مِن ضمن ما يؤمن به. أما رحمته الباطنة، فإنه لا يعلم متعلقها إلا العارفون. والرحمتان معا، هما المقصودتان من قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

[1] . أخرجه الدارمي في سننه.

الفصل السادس والثلاثون

الوجه المحمدي اليحيوي

يقول الله تعالى، لزكريا عليه السلام: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ ﴾ [مريم: ٧]. فكان أولَ شخص تسمى بهذا الاسم، ولم يكن معروفا من قبل عند بني إسرائيل. وهو بالعبرية يوحانون، ومعناه: حنان الله. وهو ما ذكره الله من صفته عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم: ١٣]. وكما كان الخضر عليه السلام مظهرا لعلم الله حيث قال عنه تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكهف: ٦٥]، فقد كان يحيى عليه السلام مظهرا لحنان الله. والحنان هو خلاصة الرحمة، وهو العطف. فأول ما كان حنانا في حقه، أبواه الشيخان. فكان يحيى عليه السلام مظهرا لحنان الله لهما.

ولما كان يحيى استجابة لدعاء والده، عليهما السلام، فقد نشأ كما تمنى منزها عن الشوائب التي تصيب الصبيان. يقول الله عنه: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾ [مريم: ١٢]، فكان منذ صغره دارسا لشريعة موسى عليه السلام، واقفا عند أحكامها بقوة؛ وهذا مقام لا يكون إلا لأفراد من أهل الله. ومن إتقانه عليه السلام للأحكام، جعله الله مفتيا لبني إسرائيل، يهديهم إلى الحلال والحرام. وهو ما ذكره الله في قوله سبحانه: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ ﴾ [مريم: ١٢]. ثم يقول تعالى: ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ ﴾ [مريم: ١٣]؛ فكان محبوبا من الجميع لحنانه،

وكان منزها لا يشرب الخمر ولا يأتي منكرا. ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [مريم: ١٣]؛ فكان عليه السلام من شدة تقواه، يعيش في البراري، يلبس الوبر ويتزر بالجلد، ويأكل مما يجد. فكان آية في الزهد عليه السلام. ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ [مريم: ١٤]، لأنه كان حنانا لهما من الله، كما مر. ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم: ١٤]، وكان خلقه مع جميع المخلوقات التواضع، والموافقة في غير إثم؛ من أجل هذا ازدادت محبتهم له. ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم: ١٥]، أي براءة له من ظلمة النفس، وشهادة من الله على امتلائه من روح القدس، وهو المسمى السر عند أهل الله. ﴿ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ [مريم: ١٥]، وهو اختصاص من الله لبعض عباده دون بعض. وهذه الصفة، وإن كانت مشتركة بين الأنبياء عليهم السلام، إلا أن شهادة الله بها لبعض دون البعض الآخر، لا شك تدل على مزيد اختصاص. ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ [مريم: ١٥]، حتى لا يظن ظان أن ميتته كانت عن غضب إلهي منه عليه السلام؛ بل مات على الطهارة والزكاة اللائقتين به. ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١٥]، فتأكدت نزاهته عليه السلام في كل أطوار حياته المقدسة.

أما موته عليه السلام، فكان في زمن الطاغية هيرودس، الذي أراد من يحيى أن يُحل له ما حرم الله في فتواه بزواجه من امرأة أخيه. فلما لم يقبل عليه السلام، سلطت المرأة ابنتها على الملك في ساعة لهو لتطلب منه رأس يحيى عليه السلام هدية لها. ففعل لشقائه ذلك، ومات يحيى عليه السلام شهيدا. فتحقق من اسمه يحيى بحياة الحق، في جميع أطواره كما مر؛ لكن هذه المرة في مستوى الذات. وذلك أنه لما كان رأس يحيى لا يُقدّم إلا لمن هو أهل لمكانته السامية؛ ولما كانت من قُدّم إليها امرأة بغيا؛ علمنا أن المناسبة لا تأتي من حيث الظاهر، وإنما من حيث الباطن. فكانت المرأة إشارة إلى الذات، والبغاء إشارة إلى بغي الذات على من سواها بإفنائها لكل الاعتبارات الحقية والخلقية في حضرتها. فموت يحيى عليه السلام كان

موتا أبديا، لا بقاء لذكره معه. وهذا أقصى ما يطمح إليه أهل التحقيق. وهذا الموت لا بعث منه حتى يُنتظر.

أما الفرق بين السلام على يحيى والسلام على عيسى عليهما السلام، واللذين ذكرهما الله في قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾ [مريم: ١٥]، فيما يعود إلى يحيى عليه السلام؛ وفي قوله أيضا: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ﴾ [مريم: ٣٣]، فيما يعود إلى عيسى عليه السلام؛ ؛ فالأمر واضح:

- فأما الأول فهو أعلى من حيث المرتبة، لأن الله هو الشاهد فيه بالسلام.

- والثاني، أعلى من حيث التحقيق؛ لأن الشاهدَ اللهُ، على لسان عيسى نفسه. والسلام في الآية الأولى منكّر للإبهام، وأما في الثانية فهو معرّف لمعنى العهد والاستغراق. وقد كان يحيى يبشر بعيسى عليهما السلام، ويتواضع له. وهذا من معاملة الوجوه لبعضها، بحسب الأسرار المتجلية في كلٍّ منها. نعني بهذا أنها معاملة محمدية ذاتية، كما يعامل الشخص نفسه، فيما يتعلق بخصوصها.

الفصل السابع والثلاثون

الوجه المحمدي العيسوي

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فكان أصلا وحده من جهة عدم وجود أب بشري له، وكان فرعا بمقدار بنوته لمريم عليها السلام فحسب. هذا من حيث الظاهر، أما من حيث الباطن، فهو أب لجميع أهل الله من حيث الروح، كما كان آدم لهم أبا من جهة الجسد. فهما أبوان عامان باعتبارين مختلفين. وهذا المعنى الذي نذكره هو معنى الختمية لديه عليه السلام. أما إن اختلط عليك الأمر، وتساءلت عن مكانة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بعد هذا، فاعلم أنه بمثابة أب الآباء والأمهات، وليس أبا للأبناء فحسب. وهذا مما عناه الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الكوثر: ١] ؛ أي: من كان أبا للآباء، بحيث يكون كل الأبناء له أبناء، كيف يُعيّر بانقطاع الخَلف؟ هذا لما عيّره المشركون بذلك صلى الله عليه وآله وسلم. وانظر إلى كلمة "الكوثر" كيف تدل على معنى الكثرة في صيغة جمعية مفردة. فلو قال الله مثلا: إنا أعطيناك الكثرة، لكانت الدلالة على الكثرة من غير زيادة ما قلناه. فسبحان العليم الحكيم. ويقول الله تعالى عن مريم: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم: ١٦]، لاستمداد النور واجتناب مخالطة أهل الظلمة، لعدم المجانسة. ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ [مريم: ١٧]، حتى تحفظ قلبها من آثار الغافلين. ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا

بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم: ١٧]، أي: حسن الصورة حتى تنفعل لرؤيته. وهذا مثل قول الله في موضع آخر: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩]. فكان الروح المرسل في صفة بشر لتقع المناسبة، ويتم الحمل. ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم: ١٨]؛ لما وجدته في خلوتها، خافت على نفسها منه أن يعصي الله فيها، فذكّرته بالله. ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم: ١٩] ، أي: جبريل عليه السلام. ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم: ١٩] ، لأن الحكم للصورة. ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم: ٢٠] ، تريد أن تعلم الكيفية، مع كونها لم يمسسها بشر بحلال ولا حرام. ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢١] ، بما أن الحمل سيكون من غير سبيل العادة، فإنه راجع إلى مطلق القدرة، والقدرة لا يُعجزها شيء. ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١] ، من جهة خلقه وظاهره، ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [مريم: ٢١] ، من جهة إرساله عليه السلام وباطنه. ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم: ٢١] ، لا رأي لمريم فيه، ولا اختيار.

فخرج عيسى عليه السلام من جهة يشبه أمه في الصفات، ومن جهة يشبه الروح الذي وهبه وانطبعت صورته في عين أمه. فكان روحا متشكلا، ذا صفات انفعالية. فما دعا إلى جهاد ولا قيام ضد ظالم، وإنما كان يقول: «من صفعك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر». ومن جهة روحانيته عليه السلام، فإنه كان يقنع بالقليل من الدنيا، ولا يملك منها شيئا مما يملكه الناس، وليس له امرأة.

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠] ، روح القدس، هو الروح الإلهي الذي جبريل مظهر له؛ لكن الفرق

بين روح القدس وجبريل، هو أن جبريل مخلوق، وروح القدس غير مخلوق، فهو مقدس (منزه) عن الحدوث؛ وهو ما يسمى أيضا النفخة الأصلية؛ وهو أيضا الروح المحمدي، من جهة الحقيقة. فبه تكلم عيسى في المهد: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠] . ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، فزاد الإنجيل على التوراة؛ وكان الإنجيل معتنيا بالنظر إلى روح الشريعة، لا إلى صورتها فحسب؛ كما كان بنو إسرائيل قد ألفوا. وصار عيسى عليه السلام يدل على الحق الواحد في الصور المختلفة أو المتقابلة. من ذلك قوله عليه السلام: «أحبوا أعداءكم». وهذه الدعوة الباطنية، هي ما جعل اليهود يرفضونه ويكذبونه؛ ونعني باليهود المنحرفين من قوم موسى عليه السلام لا الموسويين. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، فنسب الله إليه الخلق، خلق أجسام تشبه الطير بإذنه سبحانه، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، أي فتنفخ فيها الحياة من كونك روحا لي، فتكون طيرا. وهذا هو الخلق في شقيه: تصوير الأجسام، ونفخ الروح. فكان لعيسى الذوق الأعلى في هذا الأمر. وقد قال الله في موضع آخر عنه عليه السلام: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]؛ فمن كونه روحا، كان يهب الحياة، لأنه بالروح تحيى الأجسام. ثم يقول الله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] ؛ وهذا إحياء جزئي: فإبراء الأكمه، إحياء لبصره؛ وإبراء الأبرص، إحياء لجلده وإتمام لصورته. وهذا من جهة أخرى تعديل للاستعدادات، وليس تكميلا لها بالتقوية فحسب. وهو أيضا خلق في مرتبة المشيئة. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] ، وهو إعادة الحياة إلى الأجساد المفارقة لها، وهو أيضا خلق في مرتبة البعث. كل هذا يدل على روحانيته عليه السلام. وهو في الحقيقة من

هذا الوجه، مظهر لحياة العالم التي هي الروح المحمدي. فالعالم جسم من حيث الطبيعة، حي بالروح. وبهذه الازدواجية، كان صورة للحق. نعني هنا صورة المجموع، لا الصور الجزئية؛ وإن كانت الصور الجزئية، صورا للحق هي أيضا، لكن من حيث الأسماء المختلفة، بمعانيها الخاصة، لا بالمعنى الجامع.

وحتى يفهم القارئ حقيقة الشرك الذي يتوهمه المتوهمون في العالم، نورد مثالا بسيطا: خذ تمثالا صنعه صانع من طين، وصوره على هيئة طائر مثلا؛ فإنك ستجد مسمى الطائر، هو مسمى الطين نفسه؛ أما صورة الطائر، فهي شيء معقول لا وجود له في الحس. والصورة نفسها من وجه، هي الطين لا غير؛ لكن هيئة الطين المخصوصة، هي التي تعطي معقولية الصورة. كل هذا، ولا شيء زائد على الطين من حيث الوجود الحسي. فهكذا هي صور العالم مع الحق. لذلك تجد من يقول: ما في الوجود إلا الحق؛ أما الصور، فهي اعتبارات معقولة فيه. فكان عيسى عليه السلام، يقيم صورا في الحق بالحق. وهذا هو معنى الخلق.

فلما رأى الجاهلون من عيسى هذه الآيات، ولم يكونوا يعلمون متعلَّقها وأصلها، نسبوا إليه الألوهية من دون الله. فرد الله على هؤلاء، بسؤال عيسى نفسه؛ حتى يظهر الأمر منه على ما هو عليه، فيكون أبلغ في تقويم اعوجاج المستمعين؛ فقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]؟ وهذا عرض للموضوع بأوضح عبارة. فإن كان عيسى حسب الزعم إلها، فإنه سيكون داعيا إلى عبادة نفسه؛ لأن الإله لا يُنكر ألوهية نفسه. ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦]، لأنه حق الإله، وهو ليس إلها؛ لذلك سبح ربه أن يُقال في حضرته ما لا يليق. ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة: ١١٦]، لأني بك أقول، وأنت تعلم ما تقول. ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ [المائدة:

١١٦]، من كوني مظهرا لك، فنفسي ليست إلا نفسك؛ ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦]، من كونك هويتي. فالأمر بين إطلاق في تقييد، وإطلاق في إطلاق. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: ١١٦]، وليست إلا أعيان الخلق التي أنا واحد منها. وعلم الله يمتاز عن علم المخلوق، من وجه أن الإحاطة الكلية بالصور، لا تكون إلا له سبحانه. وعجز المخلوق، يكون من وجهين: من وجه عدم الإحاطة بالمجموع، ومن وجه عدم الإحاطة بنفسه من كل وجه. ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧]، فهو لا يتجاوز عليه السلام ما يؤمر به، فما هو إلا رسول. ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ الذي هو الحق الواحد المشترك بين صورتي وصوركم. ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ أي: ما دمت واحدا منهم، أي صورة عيسوية؛ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧]، بإفنائي فيك؛ وغيبتني عن تعيني بإشهادي إياك فيّ؛ ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧]، من حيث أنا أنت، لا أنا. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: ١١٧]، لا يغيب عنك شيء، لإحاطتك. ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٨]، أي: هؤلاء الذين ادعوا فيّ الألوهية، ﴿فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي: فيّ وإن جهلوا النسبة، وأنت تفعل ما تشاء بهم؛ ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٨]، فتكون أنت القائل عند نفسك منهم، والعابد منهم؛ أي: تعتبر ذلك عندك؛ ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]، العزيز: الذي لا تخلو صورة منه، ولا يُعرف فيها إلا بإذنه سبحانه. والحُكم يتبع العلم. الحكيم: الذي يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، لما يشاء؛ أي يعتبر ما يشاء من الأحكام، لأنه ربها كلها.

ويقول الله أيضا: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٧]؛ لما كفر بنو إسرائيل، وضاقوا بالحق الذي جاءهم به عيسى، سعوا في قتله، واتخذوا الوسائل إلى ذلك. وحُكم عليه في النهاية بالموت صلبا. فرد الله عليهم قولهم، لما زعموا أنهم قد قتلوه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ [النساء: ١٥٧]، فنفى الله عنه القتل والصلب. فكان هذا كقول الله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٧]، لكن في تلك نفى، وفي هذه نفى وأثبت؛ بل على الأصح، فرّق بين النفي والإثبات في الأولى، وسيأتي الإثبات فيما بعد. وقوله سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٧]، كما شبه للرامي أنه رمى وهو ما رمى إذ رمى. والتشبيه لا يكون إلا بين حكمين، فيشك الناظر في الأمر: هل هو على هذا الحكم، أم على الحكم الآخر؟ وهو قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٧]: اختلفوا هل قتلوه أم لا، فهم في شك من ذلك. ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [النساء: ١٥٧]، أي: لم يعلموا حقيقة عيسى، حتى يحكموا بعد ذلك: هل قتلوه أم لا؟ ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٧]، من قال قُتل فهو على ظن، ومن قال لا، هو أيضا على ظن. والظن تخمين، وتفسير نفسي يُقنع الجاهل به نفسه حتى تهدأ حيرتها. ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٨]، فيقطع الله برفعه إليه سبحانه، وهذا هو الإثبات الذي تأخر عن النفي السابق ذكره. والرفع رفعان: رفع بجسده الشريف إلى السماء كالأملاك، ورفع إلى حقيقته فيلتحق حكم صورته بحكم الحق المطلق عن الصور. فيكون مستقره عليه السلام باطن الحقيقة المحمدية. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ١٥٨]، عزيزا حتى لا يُعلم في كل تجلياته؛ حكيما، في إطلاع من يشاء من عباده على ما يشاء، وحجب من يشاء عما يشاء؛ سبحانه. وقد جعل الله شبهة قتل عيسى

حجة على النصارى القائلين بألوهيته: فكيف يقع الإله في زعمهم تحت قهر المخلوقين حتى يقتلوه؟! وفي الآن نفسه رفعَ الله إليه عيسى، بحسب ما تقتضيه مكانته، حتى يمتاز عن سائر الناس بذلك؛ إذ كيف يكون موت من تحقق إحياؤه للموتى وخلقه للخلق، مشابها لموت العامة؟! لذلك جعل الله موت عيسى بعد البعثة المحمدية، فيموت وسط الأمة المحمدية التي أعلمها الله بحقيقته، والتي هي أشرف من أمته؛ كالملك الذي يدفن وسط الملوك حفظا لمكانته. فهذا كله من التعليم الإلهي، الذي ما يعقله إلا العالمون. ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ النساء: ١٥٩ فأوضح الله أن عيسى لم يمت، وأنه سينزل في آخر الزمان وليا محمديا لا رسولا، فيصحح لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) عقائدهم فيه؛ وأما المسلمون فهم على إيمان، إن لم يكونوا على علم في ذلك. أما أهل الله فيعلمون ما أخبرهم الله عنه، عليه السلام. ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [النساء: ١٥٩] ، أي على أهل الكتاب، فيما قالوا. لأنه لا يدلك على حقيقة الحال، إلا صاحبها.

وقد تجلى الشك المتعلق بعيسى عند النصارى خصوصا، في اعتقاداتهم المختلفة فيه: فمن قائل بأنه الله، ومن قائل بأنه الابن، ومن قائل بأنه ثلاثة؛ يعنون بذلك التكثر في الذات، فنهاهم الله عن قولهم هذا: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾ [النساء: ١٧١]. وهذا يدل على أنهم لم يُميّزوا بين الذات والصفات، وخلطوا في المراتب، فاختلط عليهم الأمر. ﴿ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١]، أي: آمنوا بأن الله واحد، وإن لم يكن لكم علم به. ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النساء: ١٧١]، وإن تكثرت صوره الراجعة إلى كثرة أسمائه. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ [النساء: ١٧١]، أي: تعالى جَده، ﴿ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [النساء: ١٧١]، لأن هذا يقتضي انفصال الذات عن الذات، وهذا محال. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء: ١٧١]، من حيث أن كل شيء صور له، لا

وجود لها معه. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]، ينبههم سبحانه إلى توكيله في العلم بهذه المسألة وغيرها، حتى يكون علمهم بالله، صحيحا ونافيا للظن. ثم يُميّز الله بين المراتب، فيقول تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، وهؤلاء هم المعظَّمون من الخلق؛ لا يستنكفون ولا يستكبرون أن يقروا بعبوديتهم لله؛ لأن كل ما سوى الله هو عبد له. لا فرق في ذلك بين جليل وحقير. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ [النساء: ١٧٢]، أي: جهلا وتوهما، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]، سيجمعهم ليحاسبهم على ما بدر منهم، وسيعلمون أنهم في استنكافهم واستكبارهم كانوا له عابدين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ١٧٣]، فذكر الإيمان والعمل بمقتضاه، لأن العلم لا يتوافر لكل أحد؛ ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، وهو ما يستحقونه من جزاء، وليس إلا الأجر؛ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، منة منه سبحانه، زيادة على الأجر؛ فيعرفهم بالحقيقة على قدر ما يشاء. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ١٧٣]، ممن جهلوا حقيقتهم، ولم يؤمنوا، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧٣]، يُعذبهم عذابا يجدون له ألما، كما آذوا الله بأقوالهم؛ فيُطفئ العذاب عنهم الغضب عند نيل المنتقم حظه منهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٣]، أي: ولا يجدون إلا الله وليا لهم ونصيرا في النهاية، لأنه أصلهم وأصل ما بهم. وهذه بشارة بالرحمة التي سبقت الغضب.

ولما كان الإنسان في العادة بين جسد عن والدين، وروح إلهي منفوخ، وكان عيسى عليه السلام من جهة الوالدين، عن أم وروح، فقد صارت روحانيته أقوى من المعتاد؛ وكان

أقرب بالمجموع إلى الملائكة منه إلى البشر. ومن هذا الوجه الروحاني، كان عليه السلام ختما للولاية العامة. فهو الواسطة بحقيقته بين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وجميع الأنبياء ممن دونه عليهم السلام، من حيث ولايتهم لا من حيث رسالاتهم. وبهذا تكون له الإحاطة عليهم ذوقا؛ بحيث لا يذوق نبي من الأنبياء شيئا من الأسرار الإلهية، إلا ويكون أصله لعيسى عليه السلام. ومن هذه الجمعية، والنيابة العامة عن الأنبياء والأولياء الذين قبل البعثة المحمدية وبعدها، حكى الله عنه قوله عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الصف: ٦] ، حيث كان انتهاء الوحي قبله؛ ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] ، وهو الأصل الذي يأخذ عنه هو من حيث الحقيقة. لأن الوجود من حيث مرتبة الخلافة، كان يشير إلى الكمال فيها، بكل من سبق من الوجوه. وليس ذلك الكمال إلا البعثة المحمدية خاصة. والدلالة من الأنبياء عليهم السلام، على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، دلالة بالحال؛ كما يدل نور النهار على الشمس؛ ودلالة بالمقال، كما ذكر الله عن عيسى عليه السلام.

ومن أجل تعلق الحقيقة العيسوية بالباطن أكثر من الظاهر؛ ومن كون الضلال لا يكون عادة إلا فيما يتعلق بالعقائد التي هي صور الشيء المعقولة في الباطن؛ فإن الشيطان اتخذ صورة مسيحية دجالية من حيث كونه مظهرا للاسم "المضل"، تكون له ختما لصوره التي تقل عنها في المرتبة. فيظهر في آخر الزمان فيها بالخوارق التي تذهب بعقل كل مخذول. فإذا شاء الله تخليص العالم منه، نزل المسيح عليه السلام، فقتله. ولا يقتله إلا هو. وقد ورد عن

أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «لم يسلَّط على قتل الدجال، إلا عيسى ابن مريم عليه السّلام»[1].

وقد عنينا بتعلق الضلال بالباطن، كون الناس لا يختلفون، في كون الشجرة شجرة، ولا في كون الحجر حجرا، من حيث الظاهر والحس؛ وإنما يختلفون فيها من حيث الباطن والمرتبة المعقولة: فهذا يقول إله، وهذا يقول ليس بإله. من أجل هذا، لما زعم قومٌ الألوهية للمخلوقات، دعاهم الله إلى اعتبار الظاهر منها، فقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣]. فإذا سمَّوهم، ما سموهم إلا بما لا يختلفون عليه منهم، من كونهم شجرا أو حجرا، أو غير ذلك. ولما كان عيسى عليه السلام الختم من حيث الباطن، كان أولى بقتل الدجال الذي يفتن الناس. فهو كان يعمل ضمن سلطانه ومجال تصرفه، وهو من جهة ثانية الند المقابل له في المرتبة.

[1] . مسند أبي داود الطيالسي.

الفصل الثامن والثلاثون

الوجه المحمدي

لما كان الوجود قائما على التوحيد، كان لا بد أن تنتهي الوجوه الإلهية التعرفية إلى وجه واحد جامع لكل ما تفرق فيها، وزائد عليها بما يميّزه عنها من تمام الكمال.

وإذا مثلنا الحقيقة الوجودية المسماة الحقيقة المحمدية بالشمس، فإن مثل الوجه المحمدي منها مثَل البدر في تمامه؛ فلا أدل عليها منه. وعلى هذا تكون بقية الوجوه أهلة، تتفاوت فيما بينها بحسب قربها من تمام الاستدارة، قربا بحسب المكانة، وليس بالضرورة قربا زمانيا.

وهذا المعنى عبر عنه ابن الفارض رضي الله عنه في خمريته حيث قال:

لها البدر كأس وهي شمس يديرها هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

وقد عبر عن البدر بالكأس، لاستيعابه إياها ومطابقته لها، كما تستوعب الكأس المادة السائلة فيها. أما أصل هذه الحقيقة فهي شمس، سطعت بأشعتها على الوجود الإمكاني، فظهرت أجزاؤه بها. والهلال المدير لها، هو الوجه الإلهي المختص بكل زمان؛ ونعني به الخليفة. وإذا مزجت هذه الخمرة الأصلية، حتى تطيقها الاستعدادات التي دون استعداد الخليفة، فإنها تُعطي ظهور نجوم الهداية، الدالين على الله بالتربية والإسلاك. والمزج يكون بخروجها عن الصرافة الأصلية كما هو واضح.

ولما كانت المطابقة بين البدر والشمس هي المقصودة في كل الزمان، فإن زمان وجود هذا البدر الذي هو الشخص المحمدي، يكون غرة الزمان كله، وأفضل القرون على الإطلاق؛ كما ورد في الخبر: «خير القرون قرني»[1].

رسم توضيحي:

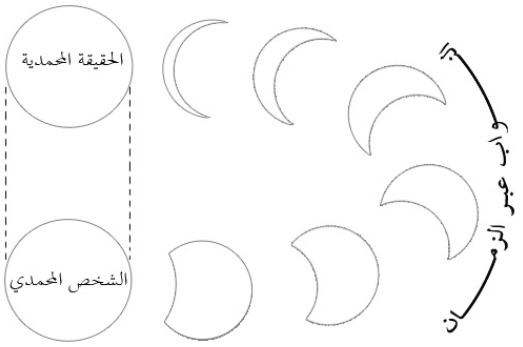

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ [آل عمران: ٣١]، الأمر من الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالقول، حتى يكون الكلام جمعيا: من الله بلسان الرسول؛ فيكون من جهة مبلغا، ومن جهة متكلما. وليس هذا بالأصالة، إلا له عليه الصلاة والسلام. وخَص بالكلام من كان يحب الله؛ وليس من الناس إلا من هو يُحب الله، سواء أكان ذلك مع الهدى، أم مع الضلال؛ وسواء أكان ذلك حقيقة، أم دعوى. وحتى من يزعم أنه لا يُحب الله من الأشقياء، فهو لا يخلو من محبة شيء من الموجودات؛ وبمحبته تلك، يكون محبا لله من وجه خفي. فكل الناس محب لله، سواء أكانوا مؤمنين، أم كانوا كافرين. فعلى هذا فالخطاب المحمدي، متوجه إلى الخلق من أولهم إلى آخرهم؛ عموما من الأمم كلها، وخصوصا من أمته الشريفة. ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران: ٣١]، والتوجيه بالاتباع من الله؛ أي: كونوا موافقين بظواهركم، لما في

[1] . أخرجه ابن حبان في صحيحه.

بواطنكم من محبة الله؛ ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، باتباعكم لي، تصيرون محبوبين بعد كونكم مُحبين. فإن كانت المحبوبيّة تُنال باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، فما ظنّك بمحبوبيته هو عند الله؟! من هنا نعلم، أنه إن كانت بعض الوجوه النبوية اختُصّت بالخُلّة أو بالكلام أو بغيرهما، فإن الوجه المحمدي اختُص بكونه حبيب الله. وقد ذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: «إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجيّ الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك؛ ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيُدْخِلُنِيهَا ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[1]. هذا مع كون الأنبياء الآخرين عليهم السلام، قد اختصوا بما اختصوا به منه صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإليه الإشارة بلواء الحمد. ولو نظرت إلى المحبة، لوجدتها أصل كل الخلال. ومن خصائص المحبة، أن المحب يسعى في مرضاة محبوبه. وقد تنبهت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى هذه الخصيصة لما قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[2]!

وقد نال محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه المحبة الإلهية من كونه مظهرا للصورة الإلهية؛ فلما شاهد الحق نفسه فيه أحبه. ولا تسأل هنا، عما يكون بين المحِب والمحبوب؛ مما لا يُعلم إلا لمن خبر المحبة على قدره؛ فكيف إن كان المُحبّ الله؟!

---

[1] . أخرجه الترمذي في جامعه، والدارمي في سننه.
[2] . متفق عليه.

والمحبة الإلهية، هي علة وجود الخلق، كما هو معلوم؛ وهي باطن الإرادة. ألا ترى أن بعض الأقوام، تعبر عن المحبة بلفظ الإرادة؛ وهو مشهور؟! وهي (أي المحبة) باطنة وظاهرة. فالمحبة الباطنة هي الكامنة في الذات، وهي التي كانت –كما قلنا– علة لوجود الخلق؛ أما المحبة الظاهرة، فمُتعلَّقها الصورة. ألا ترى إلى المُحبّ، كيف لا تفارقه صورة المحبوب؟! فهذا من هذه الحقيقة.

ثم إن من خصائص المحبة أيضا، أن تشمل كل ما يتصل بالمحبوب. ولما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم محبوب الله، فقد نال المحبة من الله كل من انتسب إليه. ولا شيء إلا وهو منتسب إليه! فالنسبة العامة الوجودية ثابتة لكل موجود، والنسبة الإيمانية فثابتة لعموم أمته، والنسبة التحققية ثابتة للأنبياء والأولياء. فتكون المحبة على درجات: منها الظاهرة، وتكون للخواص؛ ومن هذا الصنف ما ورد ذكره في حديث: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب؛ وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه؛ وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[1]. فهذه المحبة عائدة على الولي المذكور في مستهل الحديث. ومؤاذنة الله بالحرب لمن عادى الولي، هي من آثار تلك المحبة؛ وهي الغيرة. فافهم. أما محبة الله لعامة المؤمنين، فهي من وراء حجاب التكليف؛ لأنهم لا يطيقون الصنف السابق من المحبة، والله سبحانه حكيم. وأما محبة الله لغير المؤمنين، فهي من وراء العذاب. بل ما كان العذاب إلا من الغيرة التي هي من توابع المحبة. وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الأصل من الغيرة فيما رواه المغيرة رضي الله عنه، قال: قال سعد بن عبادة: "لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَحٍ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، واللهُ أغير مني؛ ومن أجل غيرة الله حرم

[1] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[1]. وانظر كيف جعل علامة غيرة الله تحريم الفواحش، الذي هو التكليف؛ وتنبه للوعيد المخبوء في التحريم، لتعلم أصل العذاب. أما قول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وأمثاله، فإنما يختص بالوجه المذكور (أي بمحبة الاتباع) لا بكل الوجوه. وكل الصفات المذكورة في القرآن مما لا يحبه الله، كالكفر والظلم والإفساد والاختيال، فإنها مفارقة للإنسان في وقت ما؛ مما ينفي تعلق عدم المحبة به في ذلك الوقت. وعلى كل حال، فإن فرقت بين أصناف المحبة، فإنك ستتبيّن ما ننبهك إليه. والمُتّبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نائل محبة الله على قدر اتباعه.

ويقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، والذنوب بالنسبة إلى العامة هي السيئات، والذنب عند الخواص هو الوجود المتوهم. وهو عين الوجود الحق، لكن العلم هو المعيار. ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، في الواقع أثناء ارتكاب الذنوب وبعدها، ولكن العبرة بالعلم كما قلنا؛ لذلك لا يعتبر الناس المغفرة إلا بعد الذنب. وأنت وظنك بربك!

واعلم أنّا لو تكلمنا على محبوبيته صلى الله عليه وآله وسلم بأكثر من هذا، لخرجنا عن الأدب؛ ولكننا أرشدناك إلى الطريق، إن كنت تريد زيادة معرفة بها.

واعلم أنه من كان على الصورة، لا بد له أن يتصف بالمحبة لله، حتى تعود المحبة إلى أصلها باستدارتها. لذلك يقول الله تعالى في كتابه، في حق قوم مخصوصين: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]. ولولا هذا التجاذب من الطرفين، ما كان بقاء الوجود المخلوق متحققا ولا مستمرا. ولما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يرجع إليه أمر الخلق أجمعين، كان لا بد أن يكون

[1]. أخرجه البخاري.

أكبر مجلى للمحبة والمحبوبية، من جانبي الحق والخلق، حتى تتماسك مراتب الوجود به وتقوم.

ولما كان صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المكانة، كان أحرص الخلق على الخلق وأرحمهم بالخلق. وقد ذكر الله ذلك عنه في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. فبالإضافة إلى المعاني الظاهرة المذكورة في التفاسير، فإن الخطاب في الحقيقة متوجه إلى الخلق أجمعين، من كون وجودهم هو عين وجوده صلى الله عليه وآله وسلم. فرسالته إلى كل أمة هي من نفسها، أي من ذاتها. ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: المشقة التي تجدونها، في تغربكم عن أصلكم؛ ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والخطاب لجميع الخلق، ومنه حرصه صلى الله عليه وآله وسلم، على إسلام الكافرين، حتى رأف الله به وقال له: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨]. كل هذا من أثر المحبة، التي عنده للخلق؛ كما يحب الآباء الأبناء. ويقول الله بعد ذلك: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وهذا من محبة الاختصاص. فأمته صلى الله عليه وآله وسلم على التحقيق هي كل الخلق، لكن انتسابهم إليه متفاوت بحسب ما قسم الله لكل أحد.

أما الأمة الشريفة، فقد نالت ما لم ينله أحد؛ فكانت بهذه النسبة الخاصة، خير أمة أخرجت للناس، كما أخبر الله عنها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقد نالت من العلم بالله، قسطا ما ناله غيرها؛ حتى تمنى الأنبياء عليهم السلام أن يكونوا من أفرادها؛ بل هم من أفرادها. ويكفي في هذا أن ينزل عيسى عليه السلام واحدا من أتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويشير إلى منزلة هذه الأمة، ما ورد في الصلاة الإبراهيمية من مقابلة بين خواصها والأنبياء من آل إبراهيم. وبهذا يكون العلماء بالله من الأمة بمنزلة أنبياء بني إسرائيل، حيث أنه لا نبي بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء، فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك؛ فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم؛ فسلم، وقال: «أبشر بنورين أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهُمَا نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيتَهُ»[1]. فكانت الفاتحة ذكرا لحقيقته الجامعة للحضرتين، وكانت خواتيم البقرة ذكرا لتفصيل وجوهه، ودلالة على عموم نوره صلى الله عليه وآله وسلم وشموله. وقد ذكرنا الكلام في معاني الفاتحة، في كتابنا "تحقيق معنى الصلاة"، فلن نكرره هنا؛ أما خواتيم سورة البقرة، فسنتناول ما تيسر من معانيها، حتى يظهر ما يؤكد ما أسلفنا.

يقول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، "الرسول": للعهد والحصر، فإنه لا رسول إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة، وكل من عداه من الرسل عليهم السلام، فنوابه ووجوهه في الأمم. وقد جاء ذكر إيمان الرسول في مستهل هذه الآية، لأنه أول من عليه الإيمان بنفسه صلى الله عليه وآله وسلم، من جهة أنه مُرسل من قِبل الله إلى نفسه، قبل أن يكون مرسلا إلى غيره. وهذا الصنف من الإيمان (أي الإيمان بالنفس) لا يذوقه إلا المرسلون، ومن نصبه الله لتربية الخلق من الوارثين. وهذا الذوق، يقتضي أن يكون المرء أجنبيا عن نفسه، قائما بالحق عليها؛ فمن هذه الازدواجية، يكون هذا الأصل. ومن هذا الباب قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ

[1] . أخرجه مسلم في الصحيح.

إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] . ﴿ كُلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أي: الرسول والمؤمنون؛ ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وإيمان الرسول بهذا يكون إيمانا من ظاهر قلبه، بما في باطنه وحقيقته. هذا على الخصوص فيما يتعلق بالله وملائكته. ولهذا الإيمانِ ذوقٌ عند العارفين، في أوان تحققهم. أما إيمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بالكتب كلها والرسل، فلأن الكتب تحت هيمنة كتابه؛ فهو ما آمن إلا بكتابه من حيث إجماله وتفصيله؛ ولأن الرسل عليهم السلام، ما هم إلا أهلة بدره، ووجوه حقيقته، فهو ما آمن فيهم إلا بنفسه. ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، هذا قول المؤمنين من أمته صلى الله عليه وآله وسلم؛ وإيمانهم بجميع الرسل من دون تفريق، هو إيمان بتفصيل رسولهم وإن كانوا لا يعلمون كلهم ذلك. وتوفيق الله لجميع الأمة إلى عدم التفريق بين الرسل، هو من عناية الله بها؛ حتى لا يكون إيمانها برسولها مخروما من حيث لا تدري. أما العالمون منها، فإنهم يعلمون أنهم ما آمنوا إلا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أصلا وفروعا. ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، لأن السمع والطاعة مقتضى الإيمان، حتى ينالوا من الفضل ما هو فوق إدراكهم، ويجتنبوا المهالك والمزالق. والمؤمن على هذا سائر على خطى متبوعه؛ وإلا أنى له أن يعلم موضع قدمه في الوجود؟! ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذا دعاء من المؤمنين، لجبر التقصير في الاتباع؛ فإن الاتباع على درجات، وما كل أحد يأتي به على الوجه المطلوب. وفي باطنه دعاء بظهور (غلبة) حقيقتهم على وهمهم. ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إيمانا عند المؤمنين، ومعرفة عند العارفين. ذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية، قال جبريل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عزّ وجلّ قد أحسن الثناء عليك، وعلى أمتك؛ فسل تعطه»! فسأل. فكان ما جاء بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا

﴿ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهو ما يعني أن التكليف غير مشترك على التمام. فيكون التكليف على قدر وُسع كل نفس. وهذا أصل العمل بالرخص والعزائم. فيعطي هذا مرونة للتشريع لا شك هي من الرحمة الخاصة بهذه الأمة؛ لأن التكليف إذا كان واحدا (أي بدرجة واحدة) فإنه سيناسب فئة مخصوصة من الأمة، وتقصر عنه فئات أخرى. هذا في كل مسألة من مفرداته. ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]: فلا تؤاخذ إلا بما خرج عندها إلى حيّز الفعل، سواء أكان لها أم عليها؛ أما ما تُحدث به نفسها وتنويه من غير أن يظهر، فقد رفع الله عنها المؤاخذة به. وهذا من أخص العناية أيضا. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «تجاوز الله لأمتي ما حدثت به نفسها، ما لم تَكَلَّمْ به، أو تعمل به»[1]. ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد أجاب الله هذا كما أجاب غيره. وعدم المؤاخذة بالنسيان يعني عدم المؤاخذة بما لم يأته العبد من التكليف، مع دخوله في طاقته. أما عدم المؤاخذة بالخطإ، فهو يعني أن المرء إن ظن غير الحق في أمر ما وأتاه، فإنه لا يؤاخذ به. والنية هنا غالبة على العمل نفسه؛ وليس فوق هذا من العناية شيء، لأنه لا يؤاخذ بهذه الاعتبارات، إلا من قصد السيئات قصدا، من غير شبهة. ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وهو العهد الثقيل؛ ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، من الأمم السابقة، التي ما حصل لها شرف الاستمداد المباشر منه صلى الله عليه وآله وسلم؛ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، من التكاليف؛ ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، أي: امح أثر الذنب منا حتى لا تحاسبنا عليه، منة منك؛ أو إن كنت شئت أن تحاسب فاغفر لنا: ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، أي غط أثر الذنب واستره عنا،

[1] . مختصر الأحكام المستخرج على جامع الترمذي.

حتى لا يلحق بنا جزاؤه؛ لأن الأعمال تطلب جزاءها. ﴿ وَٱرۡحَمۡنَآۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، كما يليق بنا من حيث كوننا أمة حبيبك. ﴿ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، كنت وكيلنا من عنايتك بعبدك الأخص، فتوليت أمورنا من جهتنا حيث كنا محل صدورها عنك، ومن جهتك، حيث كنت محاسبنا عنها. ﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، الذين يحسدوننا على ما أنعمت علينا واختصصتنا به، وهم يريدون أذيتنا فلا تمكنهم منا. فأجاب الله كل هذه الدعوات كما سبق أن ذكرنا. فهل ترى إجابتها، وجعلها اختصاصا لهذه الأمة، إلا من محبته تعالى؟! لا نرى بعد هذه الرحمة الخاصة، إلا أن الله أراد أن يتجاوز عن كل مسيء منا؛ فجعل له من المخارج من التبعات، ما لا يكاد يثبت معه ذنب. ألا ترى، أن المحب، يقبل من محبوبه حتى سيئاته؛ فيتغافل عنها كأنها غير موجودة؟! ألا ترى أن المحب يبحث لمحبوبه عن كل الأعذار، حتى يؤوّل أفعاله على أحسن التأويلات؟!

فإن كنت تتساءل عن علة ذلك، فاعلم أن المحب بتجاوزه عن محبوبه في كل ما يستدعي العقوبة، فإنما يفعل ذلك رحمة بنفسه، من كونه لا يطيق أن يرى محبوبه واقعا في شدة. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرات عديدة إلى خصوصية هذه الأمة وقربها من رحمة الله، حتى جعل بعض الصحابة يخشون عليها الإدلال؛ كما حدث لعمر بن الخطاب مع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، حين أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جابرا فقال: «ناد في الناس: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، فخرج فلقيه عمر (من كونه ناصحا للأمة) في الطريق، فقال: أين تريد؟ قلت (يحكي جابر عن نفسه): بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا. قال: ارجع! فأبيت. فلهزني لهزة في صدري ألمها، فرجعت ولم أجد بُدا. قال (أي عمر): يا رسول الله، بعثت هذا بكذا وكذا؟ قال: نعم! قال: يا رسول الله، إن

الناس (أي العامة)، قد طمعوا وخشوا (يعني اتركهم على حالهم، فإنه أنفع لهم مع الحجاب). فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اقعد»[1]. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»؛ يعني لمكانته عند ربه؛ قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[2]. مفهوم الحديث، أن الجنة تطلب هذه الأمة طلبا، إلا من كان هو من لا يريدها. وعلى كل حال، فاستقصاء مثل هذا من الكتاب والسنة يخرج عن استطاعتنا، وإنما أردنا أن ننبه إلى هذا الأصل، حتى يتتبع المرء منه ما يكون في متناوله.

ومن جهة كون الشخص المحمدي هو أكمل مظهر لحقيقته، كان ختمه للنبوة؛ فامتنع أن يأتي بعده نبي صلى الله عليه وآله وسلم. وما بقيت في ورثته إلا نبوة التعريف التي هي إشعاع من نبوته التشريعية التعريفية. فكانت بعثته صلى الله عليه وآله وسلم، إيذانا باستدارة الزمان وانقلاب الأمر إلى ربه، بفناء الدنيا وبدء حكم الآخرة. وهذا عينه ما قصده صلى الله عليه وآله وسلم بقوله فيما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه: «بإصبعيه هكذا: بالوسطى والتي تلي الإبهام؛ بُعثت والساعة كهاتين»[3]. يعني أنه لا نبي بينه وبين الساعة، ولا ينبغي أن يكون؛ كما أنه إذا حضر المُنيب ارتفع حكم النواب، فصار وجودهم كعدمه. أما الخلافة، فلها الحكم مع وجود المستخلف؛ فافهم. لذلك كان الزمن المخصوص بالبعثة المحمدية، ممتدا من أول نزول الوحي عليه -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى قيام الساعة. وإذا كان الأمر هكذا، فلا فرق بين أول الأمة وآخرها، فيما يتعلق بالاستمداد ومتعلقات التشريع؛ بخلاف ما صارت تظنه العامة من كون الأمر يختلف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما قبلها. وما

---

[1] . أخرجه ابن حبان في صحيحه.
[2] . أخرجه البخاري.
[3] . أخرجه البخاري.

يعلمون (ونخص من ينتسب إلى العلم من العامة هنا)، أنهم بهذا يُخالفون الحق، ويهدمون الشرع عند المتأخرين من أساسه؛ لأنهم بهذا المنطق، كأنهم يقولون: " لا يمكن أن نبلغ الكمالات الفردية والجماعية التي دل عليها الوحي، إلا ببعثة نبي جديد في زماننا؛ وإلا فنحن في زمن فترة من الرسل كما كان يحدث عند الأمم السابقة. وكل هذا باطل، وجهل عظيم. ولقد عشنا حتى رأينا من يقول بهذا المعنى، وإن كان لا يُصرح به. وما دفعهم إلى هذا القول، إلا رؤيتهم للأزمة السياسية التي تعرفها الأمة، على الخصوص. نسأل الله العافية لنا ولإخواننا المسلمين. ولعلنا –إن أذن الله– نتكلم في هذا الجانب بما يرفع هذا اللبس، في كتاب مستقل.

ثم لتعلم أن الكلام عن شخص محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يخرج عن طور البشر أجمعين؛ وما أردنا بهذا الفصل إلا التنبيه إلى مرتبته الشريفة، حتى يميزها العبد على قدر ما يطيق؛ فإن الشمس لا تقوى الأبصار على النظر إليها مواجهة إلا من وراء حجاب، أو تخطف خطفة من غير ثبات، أو تستدل عليها بنور النهار. غير ذلك لا يكون!

الفصل التاسع والثلاثون

الخلافة في الأمة

عرفنا أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، لا يغيب بحقيقته عن العالم، لأنه روحه وأصله؛ وعرفنا أنه ما كان يخلو زمان من وجه من وجوهه، يكون مشهود أهل الشهود من أهل ذلك الزمان، وآيتهم التي يعرفون بها ربهم، على حسب ما قُسم لهم من المعرفة. وعرفنا أنه لما جاء زمان البعثة المحمدية، حصل للعالم ما لم يسبق له من كمال التجلي وتمام التعرف؛ فما حكم الأزمنة التي تأتي بعد انتقال شخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا، بالوفاة التي كتب الله عليه؟

إذا عرفنا أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، هو صاحب الصورة الأصلية، المستغرقة للزمان كله؛ وعرفنا أن الأنبياء عليهم السلام، كانوا نوابا عنه كلٌّ في زمانه؛ فسيسهل علينا أن نعلم أن الله هيأ له بعد انتقاله، خلفاء من أمته يقومون بنفس وظيفة الأنبياء الذين سبقوه في الزمان، غير أنه لا تشريع.

وقد انقطع التشريع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه لا أكمل من الشريعة المحمدية؛ أما الشرائع التي كانت قبلها في الزمان، فإنما كانت تمهيدا لها فحسب. وإذا انقطع التشريع في هذه الأزمنة، فإنه قد بقي التعريف. فهذا هو الذي بقي للخلفاء اليوم.

وكما أن زمن ما قبل البعثة المحمدية، كان فيه الإمداد الولائي بواسطة ختم الولاية العامة الذي هو عيسى عليه السلام، فإن زمن الأمة المحمدية الخاصة، يكون الإمداد فيه بواسطة

الختم المحمدي الخاص، الذي هو الشيخ الأكبر ابن العربي الحاتمي قُدّس سره. وقد أخبر عن نفسه في "الفتوحات المكية"، بما يؤكد ذلك، كإجابته عن أسئلة الترمذي الخاصة بالختم، وذكره للواقعة التي أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها عيسى عليه السلام، عن الشيخ الأكبر بأنه عديله.

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلى هذه المرحلة من الزمان، ونعني التي تأتي بعد انتقاله عن الدنيا، وتمتد إلى قيام الساعة، بما رواه أبو بكرة رضي الله عنه، أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»[1]؛ فعرفنا أن زمن بعثته الشريفة مميز لقوسَي دائرة الزمان كلها: قوس (وهو ما قبل البعثة) صدور أو مجيء، وقوس (وهو ما بعد البعثة) رجوع؛ أو قل: قوس بطون، وقوس ظهور. وعلى هذا سيكون زمن ما بعد بعثته صلى الله عليه وآله وسلم، على هذا الشكل:

رسم توضيحي:

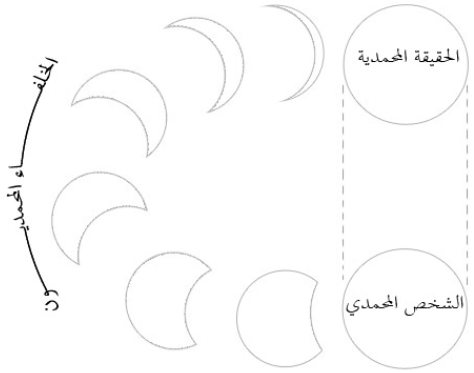

وسيكون إمداده صلى الله عليه وآله وسلم لشقّي الدائرة على هذا الشكل:

رسم توضيحي:

[1] . متفق عليه.

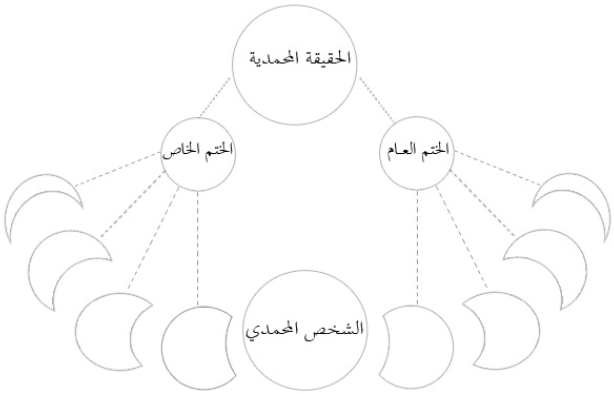

وهذا الذي ذكرناه عن ختم الولاية الخاصة، هو ما يعنيه الشيخ الأكبر في قوله المكتوب على مدخل ضريحه رضي الله عنه:

ولكل عصر واحد يسمو به وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

يعني رضي الله عنه، أن كل زمان لا بد له من خليفة آدمي، يكون هو وجه الحق لذلك الزمان؛ فلا يكون شيء من ظاهر أو باطن في العالم، إلا عن طريق ذاك القطب. وذكر رضي الله عن نفسه، أنه لباقي العصر أي لزمن الاستدارة هو الواحد؛ أي فوق الأقطاب، مما يجعله قطبهم؛ وليس هذا إلا معنى الختمية كما قلنا قبل هذا.

والختمان: ختم الولاية العامة، الذي هو عيسى عليه السلام، وختم الولاية الخاصة الذي هو الشيخ الأكبر، هما كالإمامين اللذين للقطب، بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ واحد عن يمينه (القوس الأيمن)، وواحد عن يساره (القوس الأيسر).

وانظر إلى ما ذُكر عن التقاء عيسى عليه السلام بالمهدي، فيما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم؟»[1]. وفي حديث آخر، عن جابر رضي الله عنه: «لا تزال أمتي ظاهرين على الحق، حتى ينزل عيسى بن مريم،

[1] . متفق عليه.

فيقول إمامهم: تقدم. فيقول: أنتم أحق؛ بعضكم أمراء بعض. أمر أكرم الله به هذه الأمة»[1].

يعني بقوله: تقدم، أي: تقدم للصلاة. والمهدي لا شك هو خليفة محمدي تحت إحاطة الختم، فكأن الختم العام، قد تأدب مع الختم الخاص ها هنا، عليهما السلام. والأمر الذي أكرم به الله هذه الأمة خاصة، هو جعلها في مقابل الأمم السابقة كلها، وجعل خلفائها في مقابل الأنبياء عليهم السلام، واختصاصها بختم لها من دون العموم. فتأمل يرحمك الله هذه العناية! ومن هنا أيضا كانت شهادة هذه الأمة على غيرها من الأمم فيما ذكره الله تعالى من كتابه العزيز في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وفي قوله تعالى أيضا: ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٨] . فنحن بحمد الله ما من أحد شهيد علينا إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! فانظر إلى هذه المنزلة، في مقابل أن الأفراد منا يشهدون على الأمم الأخرى مع أنبيائهم. نعني أننا نشهد مع الأنبياء على أممهم. فالحمد لله الذي يختص برحمته من يشاء.

وهذا الختم الولائي، قد يُطلع الله عليه بعض أوليائه، فيعرفونه ويعلمون أن مددهم منه عليه السلام؛ وقد لا يُطلع الله عليه البعض الآخر (نعني على مرتبته)، فيرونه واحدا من الأقطاب الذين مروا في الزمن الماضي وحسب. ونحن بحمد الله قد عرّفنا الله إياه، ورأينا عنايته بنا وبأصحابنا، حتى كانوا يشاهدونه كثيرا في جلسات الذكر. فلله الحمد والمنة.

وقد صحت تلمذة كثير من الشيوخ للشيخ الأكبر عبر الزمان، فصاروا يعتنون بشرح كتبه عليه السلام وبتقريبها إلى أفهام أهل زمانهم. فكان من أمثال هؤلاء الشيخ عبد الغني النابلسي، والشيخ عبد القادر الجزائري، رضي الله عنهما.

---

[1] . مسند أبي يعلى الموصلي.

أما المعنى الذي التبس على بعض الناس، فصار كلٌّ منهم ينسب الختمية إلى شيخ بعينه وينفيها عن غيره؛ مما جعل السامعين لهم يحتارون، مع علمهم بصدق أهل الله إن أخبروا بذلك عن أنفسهم؛ فلأن الختم ختمان: ختم عام (نعني هنا النسبة لعموم الأمة)، وهو من كنا نتكلم عنه؛ وختم في الزمان، فهو تحت إحاطة الأول. وسمي هو أيضا ختما، لكونه يختم الولاية في زمانه؛ فإحاطته مقيدة بزمانه، وليست شاملة. وقد يكون هذا الختم في الزمان قطب ذلك الزمان، كما قد يكون غيره؛ بسبب تمايز المعنيين: معنى القطبية ومعنى الختمية.

وعلى كل حال، فالختم وجه غيبي لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، إلا في زمنه خصوصا إن كانت ولايته ظاهرة للعموم. وفي اعتبار هذه المرتبة والتأدب مع صاحبها، خير كثير لمن نزع الله عنه حجب العوائد والعصبيات. وما ذكرناه هنا إلا لنكمل ترتيب الدائرة المحمدية، فتظهر لك المقابلة التي بين قوسيها؛ فإنه ما كل أحد يظفر بهذه الصورة الكاملة.

أما الخلافة التي نعنيها هنا، فهي خلافة القطب المحمدي على العالم، والتي لا بد فيها من تعاقب شخص بعد آخر من وقت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيام الساعة؛ من دون أن يتخلل ذلك التعاقب فارق زماني مهما بلغ في الصِّغر. وقد جهل هذه الحقيقة أقوام، فصاروا ينتظرون ظهور القطب حتى يتبعوه. ومتى غاب القطب حتى يُنتظر؟ وإنما الأمر بين معرفة وجهل، هذا فحسب.

وقد جهل قوم آخرون مرتبة القطب، فصاروا يظنون أنه المختص وحده بتربية المريدين؛ وهذا قول في غاية الجهل، إذ التربية لها شيوخ مخصوصون في كل زمن؛ قد يكون القطب من بينهم في الظاهر وقد لا يكون؛ أما من حيث الباطن، فلا يخرج عن دائرة القطب إلا الأفراد كما هو معلوم.

الفصل الأربعون

الوجوه المحمدية الأربعة

١. الوجه المحمدي البكري:

ندخل في هذه المرحلة إلى ما بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا؛ وهي مرحلة الخلفاء كما سبق أن نبهنا. وبما أن الخلفاء (الأقطاب)، ليسوا ظاهرين للعموم في كل زمن حتى يُعرفوا بمرتبتهم، فإنا سنقصر الكلام على الخلفاء الراشدين تبركا، ونترك من عداهم لِما يُيسر الله لخواص عباده من معرفة هذه الوجوه المحمدية في أزمنتهم الخاصة.

وأول خليفة كما هو معلوم، أبو بكر رضي الله عنه؛ لكن الذي يعنينا منه هنا، هو ما كان عليه زمن خلافته رضي الله عنه حصرا؛ أي زمن كونه وجها محمديا، لا زمن كونه صحابيا. وإن العامة، لا يفرقون بين هاتين المرتبتين، بسبب خروج هذه المعاني عن إدراكهم. فلا حاجة إلى التأكيد على ما نحن بصدده من تفصيل.

ومما يدل على هذه الخلافة البكرية، ما قاله رضي الله عنه في خطبته عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد تكلمنا عنها في كتابنا "المنهاج القويم"، فلن نعيد الكلام عنها هنا. وسنذكر ما تنطوي عليه أحداث أخرى من الأسرار بحسب ما يتيسر؛ لأن الإحاطة بهذا الوجه المحمدي وغيره، لا تتيسر إلا للختم كما قلنا.

فمن ذلك، ما حدث عقب وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من حركات الردة؛ وكيف أن الصدّيق رضي الله عنه، واجهها بحزم قائلا: "والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها"[1]. يظن كثير من الناس أن الأمر هنا اجتهاد فقهي، أو هو حنكة سياسية؛ وهو غير ذلك. ولو كان اجتهادا فقهيا لما تعدى رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المسألة لما أراد أن يُثني الصديق عن قتال مانعي الزكاة، قائلا: "يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه؛ وحسابه على الله»[2]". فأجابه الصديق رضي الله عنه: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق". فهذا، ليس اجتهادا فقهيا ظاهريا فحسب، وإنما هو اقتضاء مرتبة الخلافة. ألا ترى إلى قوله رضي الله عنه: "والله...كانوا يؤدونها إلى رسول الله..."، فهذه المطابقة لا تصح إلا للخليفة الذي هو وجه محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأمة. فكأنه قال: " ما كان يؤدى إلى رسول الله، لا بد أن يستمر أداؤه إليه في مظهري". وإذا علمت هذا، فقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما غاب عن الوجود منذ خلق آدم، وإلى قيام الساعة.

يقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ هذا يعني أن نُصرة الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ليست متوقفة على كل مُخاطب مأمور بنصرته؛ ولا هي متوقفة على كثرة العدد؛ وإنما يكفيه أن الله ناصره. وقد تجلت هذه النصرة في هذه الحادثة التي يحكيها لنا الله في كتابه. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [التوبة: ٤٠] ، ولا حاجة للعبد ولا

[1] . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
[2] . الحديث السابق نفسه.

اضطرار كما يكون في حال إخراجه من بلده؛ فإن إجماع القوم على إخراج المرء من أشد الآلام على النفس، بسبب كونها في نظر من أخرجها من حيث الظاهر، شرَّ من في البلد. والظاهر معتبر عند العباد الربانيين كالباطن سواء. ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ [التوبة: ٤٠] ، أي أحد اثنين؛ فالأول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والثاني أبو بكر رضي الله عنه. يعني الله أنه عوّض نبيّه بصاحبه عن كل من سواه. وهذه منقبة للصديق رضي الله عنه لا تعدلها منقبة. نعني أن الصديق كان مظهرا لنُصرة الله نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة: ٤٠] ، ذكر الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم مع صاحبه رضي الله عنه في ضمير واحد، إشارة إلى وحدة الحقيقة عند الناصر والمنصور؛ أما الغار الذي هو في الظاهر غار ثور المعروف، فهو إشارة إلى العندية الإلهية والعناية الأخص. ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ [التوبة: ٤٠] ؛ القائل بحسب أهل التفسير هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جاء في الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه قال: "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا؛ قال: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟»[1]. فالتثبيت في الظاهر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر؛ أما من حيث الباطن، فأبو بكر هو قائل: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]. وذلك لأن الرباني على قدر علمه بربه تكون خشيته. ومن أثر الخشية عدم الجزم في الأمور، فلا يعلم ما ستؤول إليه ما دامت المشيئة الإلهية مطلقة. ومن هذا الباب أمرُ الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقول: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩]. فجعل الله كلام أبي بكر في هذا الموطن إيناسا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم. وهو معنى من معاني النصرة المذكورة في

[1] . متفق عليه.

صدر الآية. ومعنى معية الله هنا، هو معية النصرة لا غيرها؛ لأن الله مع كل أحد حيث كان بالقيومية العامة. ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ [التوبة: ٤٠]، أي: على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه أول الاثنين مرتبة. كما تكون السكينة أيضا من نصيب أبي بكر بعد أن خاطبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما سكن روعه. ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، المؤيَّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن تخلى عنه قومه؛ كما يكون المؤيد أبو بكر من كون الله أيده بجنوده الغيبية التي تثبت قلبه في هذا المشهد العصيب. وكون هذه المعاني تنصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه، كما تنصرف إلى أبي بكر رضي الله عنه مع الفارق، هو بسبب انصراف اسم الصاحب إلى الصاحب والمصحوب معا. ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعاء السفر: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»[1]، وهو بمعنى المصحوب؛ ومنه أيضا قول أبي بكر لما قرئت عليه آية الصحبة السابقة: "أنا والله صاحبه"[2]، بمعنى الصاحب.

ولما كانت آية أبي بكر هي الصحبة، فقد أثمرت له من الجهتين: من جهة كونه صاحبا، ومن جهة كونه مصحوبا. فمن جهة كونه صاحبا، فقد كان أعلى الصحابة مرتبة، رضي الله عنه؛ ونال من هذا الوجه ما لم ينله أحد قبله ولا بعده. ومن جهة كونه مصحوبا، فقد كان الوجه الإلهي المصاحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الناصر له، والحامل له، والحامي له. وهذا الجمع في الصحبة، ما كان في هذه الدرجة إلا له، رضي الله عنه؛ وإن كان لا يخلو صحابي من المعنيين. لكن لا بد لكل مقام من قطب يدور عليه أمره. فكان أبو بكر قطب الصحبة رضي الله عنه. وإن صح حديث المعراج الوارد بسماع صوت أبي بكر من قِبَل رسول

---

[1] . أخرجه مسلم.
[2] . جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحضرة الإلهية، فهو من هذا الباب ومؤكد لما ذكرناه. وقد ورد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:«أما صاحبكم فقد غامر؛ فسلَّم، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه، ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ، فأقبلت إليك. فقال:«يغفر الله لك يا أبا بكر» ثَلاَثًا. ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا؛ فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسلم فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أَظْلَمَ مرتين. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت؛ وقال أبو بكر: صدق. وواساني بنفسه وماله. فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ (مرتين)، فما أوذي بعدها»[1]. فمن لم يعرف لأبي بكر فضله في الصحبة من الأمة، فما عرف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضله.

ومعنى الصحبة عند أهل الله، لا ينقطع بانتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا؛ وإنما هو مستمر إلى يوم القيامة، باستمرار إمكان التحقق بالصحبة عند من أهّله الله لها. وإذا شاء الله لعبد أن يذوق المصحوبية، جعله وجها محمديا ربانيا، يصحبه الناس من أجل أن يوصلهم إلى ربهم.

٢. الوجه المحمدي العمري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر» . ومن هذا التحديث الإلهي، كانت

[1] . أخرجه البخاري.

موافقته للحق رضي الله عنه، حتى قال عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[1] .

وعن أنس رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال: "وافقت ربي في ثلاث، فقلتُ: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: البقرة: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] ؛ وآية الحجاب، قلتُ: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب؛ واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة عليه، فقلت لهن: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ، أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، فنزلت هذه الآية"[2] . فهذا كله من أثر التحديث. ولا يكون هذا، حتى يكون قلب عمر متوجها توجها تاما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن ما نطق به عمر قبل أن ينزل به الوحي، كان مستقرا في باطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فمن هناك أخذه. وأما نسبة هذا الحديث إلى الله، فصحيحة من كون "الله" هو باطن رسوله. والأمر كله نِسب في عين واحدة. فإذا علمت هذا، فلن تُحجب بكلام أهل الفرق، ممن ينتسبون إلى العلم.

وإذا صح توجه المؤمن إلى المظهر الرباني في زمنه، فإنه يجد مثل هذا التحديث في قلبه، ويعلم منه ما شاء الله له من باطن ذلك المظهر، حتى يرى العجب! وقد ترك الله هذا الباب مفتوحا لأهل التوجه، أصحاب الجمع القلبي، إلى يوم القيامة. وقد أرانا الله بمنه من أصحابنا من هذا الوجه ما تحار فيه العقول.

---

[1] . أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان، والحاكم في المستدرك على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذا السياق.
[2] . أخرجه البخاري.

وبسبب هذا التوجه القلبي، يحصل المريدون من أشياخهم العلوم التي هي فوق مرتبتهم، ولا تبلغها هممهم. وقلّما رأينا من يدل على هذا الباب من تحصيل العلم، مع أنه من أكبرها وأصحها.

ومن هذا الباب أيضا، السؤال القلبي عما يُجهل، فيأتي الجواب من باطن المظهر الرباني إلى قلب السائل وفق ما في علم الله. وقد قيل: "من لم يجبه شيخه عن كل ما يعرض له، مع بعد المسافة بينه وبينه، فليتهم نفسه"؛ هذا، إن كان الشيخ ربانيا؛ لا كما نرى اليوم من احتراف للمشيخة وتلاعب بعقول الناس.

ولقد كان عمر رضي الله عنه إجابةً لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» ؛ وسماه صلى الله عليه وآله وسلم "الفاروق"، لما كان إسلامه فارقا بين الحق والباطل، وفارقا بين زمني الدعوة السرية والدعوة الجهرية. وبهذا، كان عمر مظهرا للقوة المحمدية والعزة على قدر استعداده. فأعز الله به الإسلام لا رسوله، وأظهر به الحق وهزم الباطل. فكان سندا للمسلمين المستضعفين، بما أبلى في عمره الشريف رضي الله عنه، وبما أبقى من سنته إلى يوم الدين.

وقد عُرف هذا الوجه المحمدي بالعدل، حتى كان فيه إماما وحجة يقاس إليه كل من ولي أمرا من أمور الحكم والسلطان. فكان رضي الله عنه حقا، على اسمه، عمارا للإسلام، خرابا على الباطل وأهله.

ومما اختص به الله عمر رضي الله عنه، أن جعله مظهرا لغيرته على أسراره: ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه، حيث قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ناد في الناس: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة»، فخرج فلقيه عمر في الطريق، فقال: أين تريد؟ قلت: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا.. قال: ارجع! فأبيت؛

فلَهَزَنِي لَهْزَةً، في صدري ألَمُهَا؛ فرجعت ولم أجد بدا. قال (أي عمر): يا رسول الله، بعثتَ هذا بكذا وكذا؟ قال: « نعم»، قال: يا رسول الله، إن الناس قد طمعوا وخشُوا. فقال صلى الله عليه وسلم: « اقعد»"[1] . فعمر رضي الله عنه كان مظهرا لغيرة باطن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يعلم كل أحد أثر قول لا إله إلا الله، فتغتر العامة من الصحابة، فينقص حالهم. وهذا يحدث من الربانيين، عندما تتجاذبهم الأسماء الإلهية؛ فيصدر عنهم ما يُظن أنه تعارض أو تردد؛ بل يصدر من جميع الناس، ولكنهم لا يشعرون. والفرق بين الرباني وغيره، هو أن الرباني يتأثر العالم بباطنه، فيظهر الأثر بالفعل بإذن الله. لذلك قلنا إن عمر رضي الله عنه كان مظهرا للغيرة المحمدية. ومثله ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: "لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه، قال: «ائتوني بكتاب أكتبْ لكم كتابا لا تضلوا بعده» قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبُنا. فاختلفوا وكثر اللغط. قال: «قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع» فخرج ابن عباس، يقول: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه"[2] فهنا أيضا، كان عمر مظهرا للغيرة المحمدية، على ما كان سيبديه من أسرار شفقة على أمته أن تضل بعده، وهو في موطن فراقها، صلى الله عليه وآله وسلم. فهذا مما اختُص به عمر رضي الله عنه دون غيره؛ وهو أيضا من لواحق التحديث الذي جاء ذكره في أول الفصل.

٣. الوجه المحمدي العثماني:

---

[1] . أخرجه ابن حبان.
[2] . أخرجه البخاري.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشد أمتي حياء عثمان»[1]. والحياء على حسب المقام، فيكون حياء الخليفة عثمان رضي الله عنه –على هذا– أعلى ما يكون للمحققين؛ وليس إلا الحياء من أن يُذكر مع الله.

ولا يكون هذا الحياء إلا لمن عرف الله المعرفة الذوقية التامة، وتحقق بأن الوجود في جميع مراتبه هو لله. فإذا تحقق بهذا، وجد نسبة الوجود إليه نسبة مجازية؛ فصار يستحيي أن يسمع لنفسه ذكرا، وإن كان الشرع مقرا لهذا الذكر. وهذا الحال لا يُعرف إلا لأهله، وليس هو الحياء المعروف لدى عامة المؤمنين.

وقد جاء ذكر هذا المعنى في القرآن العزيز عند قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]. فدلت الآية على أن الأصل هو عدم ذكر الإنسان، والعارف راجع في كل أموره إلى الأصل، فلم يبق إلا أنه لا ذكر له في نظره. فإذا سمع ربه ينسب إليه وجوده في خطابه، أو صفة من صفاته، أو فعلا من أفعاله، استحيى أشد الحياء وتمنى –من جهة الحال لا من جهة العلم– أن تنشق الأرض وتبتلعه.

ولما شهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعثمان رضي الله عنه بكونه أشد الأمة حياء، علمنا أنه قطب هذا المقام العام. وما أشرفه من مقام!

ومن أثر هذا الحال العرفاني، أن لا يرى صاحبه لنفسه شيئا من علم أو عمل أو متاع، مع شدة قيامه بأمر الله والقيام للحق؛ فيكون مع جلالة مقامه مغمورا إلا إذا اشتدت الخطوب، فإنه يخرج لها بربه فيظهر مقامه عند من لم يكن يعرفه. ويكون صاحب هذا المقام أشد الناس كرما، فيبذل من ماله ما لا يطيقه غيره. وكل هذا ظهر من عثمان رضي الله عنه.

---

[1] . السنة لابن أبي عاصم.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال (مخاطبا رجلا من مصر سأله): "وأما تغيبه عن بيعة الرضوان (يعني تغيب عثمان عنها) فلو كان أحدٌ أَعَزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه (أي النبي صلى الله عليه وسلم) مكانَه. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة (نائبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: «هذه يد عثمانَ، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمانَ» فقال له (أي للسائل) ابن عمر: اذهب بها الآن معك"[1] . وانظر كيف أنه لما ناب عثمان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مخاطبة أهل مكة، ناب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه في البيعة، بعد أن كان قد بلغ المسلمين نبأُ مقتله رضي الله عنه. فهذا مما ذكرناه من كون صاحب هذا الحياء من أشجع الناس وأصلبهم في الحق إذا جد الجد.

وأما ما ذكرناه من كرمه، فما جاء عنه رضي الله عنه من شراء بئر أرومة وتجهيز جيش العسرة. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "« من يحفرْ بئر رُومَةَ فله الجنة» فحفرها عثمان؛ وقال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة» فجهزه عثمان"[2].

٤. الوجه المحمدي العلوي:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أرادَ المدينة فليأت الباب»[3]. هذا الحديث جعله بعض أهل الحديث في الموضوعات، من أمثال ابن الجوزي والذهبي؛ واستشكل معناه بعضٌ من أمثال ابن تيمية الذي قال عنه: "فإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان مدينة العلم، ولم يكن لها

---

[1] . أخرجه البخاري.
[2] . أخرجه البخاري في مناقب عثمان رضي الله عنه.
[3] . أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح، وأخرجه الطبراني في الكبير، وقال عنه ابن حجر هو حديث حسن.

باب إلا باب واحد، ولم يبلّغ عنه العلم إلا واحدٌ فَسَدَ"[1]. أما من حيث المتن، فإن من فهم من لفظ الباب أنه الباب الأوحد فقد جانَب الحق؛ وإنما المراد انتهاء الرئاسة في العلم إلى الإمام علي عليه السلام، لا حصر العلم فيه؛ وبين المعنيين فرقان لمن عقل. وهذا يشبه انتهاء الرئاسة في الحياء إلى عثمان، وانتهاء الرئاسة في الصحبة إلى أبي بكر، وانتهاء الرئاسة في قول الحق إلى عمر وانتهاء الرئاسة في القراءة إلى أبيّ. رضي الله عن الجميع.

أما العلم الذي انفرد الإمام علي بالعلو فيه، فهو علم الأذواق. ولو علم العلماء هذا المعنى لاستراحوا من مشقة فهم الحديث على وجهه؛ لأن علم الأذواق خاص، لا خبر للفقهاء عنه إلا من جمع منهم بين العلم المجرد والعلم الذي يُحصّل بصحبة أئمة الطريق علماء السلوك. ويُعضد ما نذهب إليه كون جل طرائق التربية –إن لم تكن كلها– تنتهي إلى علي رضي الله عنه.

وعلم الذوق بالمقارنة إلى علم العلماء، كالمعاينة بالنسبة إلى الخبر؛ بل هو أكثر من ذلك، إذا علمنا أن الذوق هو اختبار الشيء في النفس. ولئن كان أهل العلوم التجريبية يثقون في علومهم إلى حد التمام، مع كون تجاربهم تقع خارج نفوسهم، فإن أهل الأذواق لا مرتبة فوق مرتبة علومهم لمن أحسن النظر.

ونعني بعلم الذوق –على الخصوص– بالنسبة إلى علي رضي الله عنه، علم ذوق القرآن الذي اختص الله به كبار ورثة هذه الأمة الشريفة. وفي هذا الذوق، يتفاوت أهل الله؛ فتجد منهم من كمُل له ذوق القرآن، ومنهم من حصّل بعضه. وعلى معنى ذوق القرآن يتنزل معنى الحديث المروي عن عبد الله بن عمرو: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقْرَأْ وَارْقَ ورتل

[1] . ابن تيمية في منهاج السنة.

كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها»[1]. ودليلنا على هذا المعنى، أن المنزلة المترتبة على آخر آية يقرأها المرء، لا تتعلق بالقراءة المعهودة من وجهين:

أولا: قد تكون آخر قراءة المكثر أول آية من القرآن، وقد تكون آخر آية المقل آخر آية منه؛ فهل تكون منزلة المكثر من قراءة القرآن أعلى من المقل لمجرد انتهائهما إلى هذه الآية أو تلك؟!

ثانيا: معنى القراءة في الحديث لا يستقيم إلا إذا كانت قراءة القرآن واحدة، وهذا لا يكون إلا في القراءة الذوقية. فافهم!

وقد ذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال: " لو تكلمت لكم في تفسير الفاتحة لحملت لكم منها سبعين وقراً". ولعمري لا يكون هذا إلا لمن ختم ذوق القرآن، لأن الفاتحة جمعت كل ما تفرق في غيرها، مع زيادة خصوصية لها، يعلمها أهلها.

وقد ذكر ابن عبد البر في "الاستيعاب" عن سعيد بن المسيب قال : "ما كان أحد من الناس يقول : "سلوني" غير علي بن أبي طالب عليه السلام"[2].

وإذا عرفنا هذه المرتبة لهذا الإمام، وجب بعد ذلك الإقرار بقصور العقول عن معرفته حق المعرفة؛ بل علمنا أن الإنكار إلى عموم الناس كان أقرب في حقه، إن لم يتسلحوا بالإيمان؛ كل ذلك بسبب علو مرتبته –عليه السلام– في العلم. ومن يتأمل كلامه –عليه السلام– لا يشك أنه عن مشكاة النبوة يصدر، وعن غيب الله يُخبر، في أوجز عبارة، وأتم إشارة.

واعلم أن ما ذكرناه عن هذه الوجوه المحمدية الأربعة، إنما هو غَرفة من بحر، ولو شاء المرء الاستقصاء لكان حاله إلى الغرق أقرب، وأمره من العجب أعجب. كيف لا، والنبوة مستمرة

---

[1] . أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه.

[2] . وذكره ابن الأثير في أسد الغابة : ٤ / ٢٢ ، وابن حجر في صواعقه : ص ٧٦ وقال أخرجه ابن سعد ، والمحب الطبري في الرياض النضرة : ٢ / ١٩٨ (٣) .

بهم في الأمة؟ إذ مقام الخليفة لا بد مشير إلى مقام المخلوف، ودلالة الوجه على المواجِه أمر في العوائد مألوف.

وصل في الخلافة والوجه

لقد استشكل أمر الخلافة على كثير من الناس، فأكثروا فيها القول من غير تحقيق، فالتبس أمرها على الناظر حتى كاد ييأس من الظفر منها بشيء؛ غير أننا سنبين –إن شاء الله– معيارها حتى نرفع اللبس عنها.

وأول ما ينبغي أن نعلم، هو كون الخلافة تطلق على معنيين:

– الأول: هو الخلافة الباطنة، التي بها يكون الخليفة وجها محمديا، كما أوضحنا من خلال هذا الكتاب. وإذا كان الخليفة خليفة بهذا المعنى، فالأغلب فيه أن يكون مجهولا عند العموم، وإن عُرف عند بعض الخصوص؛ نعني أن تصرفه يكون باطنيا.

– الثاني: هو الخلافة الظاهرة، التي يكون بها الخليفة حاكما للمسلمين ذا تصرف ظاهر. وهذه الخلافة قد يتلبس بها البر والفاجر، ومن كان على تقوى والفاسق.

أما الخلافة التي ورد ذكرها في حديث جابر بن سمرة، والذي جاء فيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» قال (أي جابر): ثم تكلم بكلام خَفِيَ عَلَيَّ. قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش»[1]، فالمراد منها الجمع بين المعنيين المذكورين سالفا. وعلى هذا يكون من الخلفاء، الأربعةُ المعلومون المعروفون، والحسن بن علي رضي الله عنهما، وعمر بن عبد العزيز، وبعضٌ من آل العباس وآل عثمان، ومهدي آخر الزمان.

[1] . أخرجه مسلم.

أما الوجه المحمدي الذي قصدنا به الخليفة من حيث الباطن، فإنه لا يخلو منه زمان كما هو معروف عند أهله؛ وهو المنعوت بصاحب الزمان. وأغلب الناس لا يميّزون بين المعنيين، فتدخل عليهم الحيرة في تنزيل معاني الوحي (الحديث). وقد تأول الحديث السابق فقهاء الشيعة فأخرجوه على معنى الإمامة بحسب اعتقادهم، فأصابوا بعضا وأخطأوا بعضا. أما بعض أهل السنة فقد أخذوه على الظاهر، فأدخلوا في الخلفاء الاثني عشر من ليس منهم، كبعض ملوك بني أمية؛ فكانوا هم أيضا ممن أصاب بعضا وأخطأ بعضا.

ولقد افترقت خلافة الظاهر عن خلافة الباطن في عهد الحسن عليه السلام، لما تنازل عن خلافة الحكم لمعاوية رضي الله عنه. وقد كان ذلك بإرادة الله، حتى تدخل الأمة في مرحلتي الملك العاض والملك الجبري، بحسب ما جرى به القضاء. ثم ذهبت خلافة الباطن من الحسن إلى الحسين عليهما السلام، وهكذا...وكلما التقت الخلافتان في الشخص نفسه بعد ذلك، فإنه يكون من الخلفاء الاثني عشر المخصوصين. هذا هو ما هو عليه الأمر.

أما في زمن انقسام بلاد الإسلام، وظهور الدول القطرية، فإن الخلافة الظاهرة قد انتفت هي الأخرى، بانتفاء شروطها؛ فلم يبق إلا خلافة الباطن، ومعنى جزئي من خلافة الظاهر. ولن تعود الخلافتان إلى الاجتماع إلا في زمن مهديّ آخر الزمان. وهو مُجمع عليه عند الشيعة وأهل السنة، مع اختلاف في الشخص.

ولعل القارئ قد تبين أن عدم العلم بحقيقة الخلافة قد أسهم في ظهور العقائد المختلفة، التي كانت سببا في افتراق الأمة مذاهب وطوائف.

وقد انقسمت الخلافة من حيث المعنى إلى ظاهرة وباطنة لاقتضاء الاسم "الظاهر" والاسم "الباطن" ذلك، بسبب تمايز حقيقتيهما. أما الخليفة الجامع، فمرتبته تشير إلى حقيقة المسمى، المخالفة لحقيقة الأسماء من حيث العلم. وعلى هذا يكون الخليفة الباطن وجها محمديا،

ويكون الخليفة الظاهر وجها للوجه عند الناظر العالم بحقيقة الأمر، ويكون الخليفة الجامع واحدي الحقيقة محمديا، موافقا لما هو عليه الأصل. لذلك كان عدد هذا الصنف من الخلفاء اثني عشر، على عدد مراتب بسائط العدد، حتى يكمل بهم التجلي الخلافي في الزمن الخاص بالأمة المحمدية. وهؤلاء الخلفاء هم في مقابل الخلفاء من الرسل عليهم السلام في الزمن الأول، وبالجميع تكتمل دائرة الوجود.

وإن الوجوه التي مررنا بها في الكتاب وسميناها وجوها محمدية، هي الوجوه النيابية والخلافية مضافة إلى الوجه المحمدي الأكبر؛ لكن معنى الوجه لا يقتصر عليها من حيث التفصيل، وإلا ظلت المظاهر المتبقية خارج الإحاطة المحمدية؛ وهذا محال!

ومعنى الوجه من حيث الدلالة اللغوية هو ما به يُعرف الشيء، أو ما يُعرف منه بداهة ودون حاجة إلى استعمال فكر أو غيره. وعلى هذا يكون المراد من قول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: جالس من يريدون معرفة ربهم، فإنه لا يدلهم عليّ إلا أنت. من هنا نعلم أن وجه الله العام التام، هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكل ما عداه فهي إما وجوه نيابية أو خلافية كما بيّنّا، وإما هي وجوه تفصيلية بمثابة وجوه للوجه الأصلي؛ لذلك جاء في التنزيل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]؛ أي: حيثما وليت وجهك حسا ومعنى، غيبا وشهادة، فأنت مواجه لوجه الله من حيث التفصيل. هذا يفيد أن لا شيء على الإطلاق يخرج عن الإحاطة المحمدية التي ذكرناها سابقا. وإذا كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم محض رحمة، فلا شيء خارج عن هذه الرحمة البتة. وهذه الرحمة الأصلية، هي نفسها رحمة المآل؛ وهي رحمة الامتنان. أما رحمة الجزاء فرحمة فرعية تصيب قوما وتخطئ آخرين.

وقد جاءت الإشارة إلى كون التعينات وجها لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في قول الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وفي قوله سبحانه أيضا: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٧]. أي: هو حقيقتكم، وأنتم وجوهه. ولا تُحجب بما قد يعرض لك هنا من استثناءات دل عليها الشرع، فإن الكلام هنا عيني لا حُكمي؛ فلا تخلط!

وعلى هذا، فما في الوجود إلا محمد من حيث هو وجه الله؛ وما في الوجود إلا الله من حيثما هو الغاية المعرفية وراء كل مظهر.

أما من حيث الاصطلاح، فلا يُطلق الوجه المحمدي إلا على الصورة المحمدية المختصة بكل زمان. وإذا شئت أن تتبيّن الأمر أكثر، فاعلم أن الوجوه المحمدية بدرية كلها؛ وما عداها من الوجوه فهي هلالية أو سرارية. ونعني بالسرارية منها، ما أبى الشرع أن تنال النسبة المحمدية في الظاهر. أما من حيث الباطن، فإن خفاء وجه القمر في ليالي السرار، لا يعني فقدانه. فافهم!

ويقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، في إشارة إلى الحقيقة المشتركة للأنفس الجزئية؛ ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يراعي هذه النسبة إن لم يتفطن إليها كل أحد؛ ولا عنتَ إلا الانحجاب من قِبل الأنفس عن حقيقة النسبة المحمدية، التي هي التحقق بالرحمة الإلهية. ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والخطاب لجميع الأنفس؛ والمراد أنه صلى الله عليه وآله وسلم حريص على نفسه فيكم، أن يعود الظاعن إلى أهله. وهذا الخطاب بلسان الباطن. ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وهو اختصاص لوجه الإيمان من كل نفس،

لأن الإيمان منها هو سبب تحققها إما عاجلا فيما يعود إلى خواص المؤمنين، وإما آجلا فيما يعود إلى عامتهم. والرأفة والرحمة هما من مقتضيات الحرص، وآثاره الظاهرة. نعني أنهما من باب خروج الصفة إلى الفعل. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وعرض لغالبية الأنفس الحجاب عن هذه النسبة الشريفة، ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، الذي هو حقيقتي، والذي به قوام مظهريتي؛ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، غيبا وشهادة، إجمالا وتفصيلا. فهو أولى بنا منا كلنا. ونسبته سبحانه وتعالى أقوى في الظهور، وأولى في الاعتبار. وهذه هي الرحمة الواسعة التي لا يخرج عنها شيء، والمذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ومن هذا الباب كانت شفاعة الرحمن تأتي عقب شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، في عودة المنسوب إلى المنسوب إليه؛ وظفَرِ كل شخص بالكنز الذي بين جنبيه. فإنه سبحانه مبدئ الأشياء ومعيدها. ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، المستوي على مظاهر العالم بحقيقة ربوبيته. فعاد الأمر منه إليه، إذ لا وجود لشيء معه سبحانه، حتى يحول دون الوصول إليه، أو يكون حجابا عليه. وإنما هي تجليات الحق لنفسه، وآثارها في نفسه؛ ليس للخلق منها، إلا ما خرج عن صريح العلم وتلبس بالوهم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد في كل وجه، وعلى آله المنتسبين إلى كل وجوهه، وصحابته المتوجهين لها من كل وجه؛ والحمد لله رب العالمين من كل وجه إلى كل وجه في الوجه.

فهرس

مقدمة ٣

تمهيد ٦

الفصل الأول ٩

الفصل الثاني ١٥

الفصل الثالث ١٩

الفصل الرابع ٢٣

الفصل الخامس ٢٥

الفصل السادس ٢٩

الفصل السابع ٣٤

الفصل الثامن ٣٧

الفصل التاسع ٤١

الفصل العاشر ٤٥

الفصل الحادي عشر ٤٨

الفصل الثاني عشر ٥٠

الفصل الثالث عشر ٥٣

الفصل الرابع عشر ٥٦

الفصل الخامس عشر: الوجه المحمدي الآدمي ٦٠

الفصل السادس عشر: الوجه المحمدي الإدريسي ٦٥

الفصل السابع عشر: الوجه المحمدي النوحي ٦٧

الفصل الثامن عشر: الوجه المحمدي الهودي ٧٢

الفصل التاسع عشر: الوجه المحمدي الصالحي ٧٨

الفصل العشرون: الوجه المحمدي الإبراهيمي ٨٣

الفصل الواحد والعشرون: الوجه المحمدي اللوطي ٨٨

الفصل الثاني والعشرون: الوجه المحمدي الإسماعيلي ٩٢

الفصل الثالث والعشرون: الوجه المحمدي الإسحاقي ٩٦

الفصل الرابع والعشرون: الوجه المحمدي اليعقوبي ١٠٠

الفصل الخامس والعشرون:الوجه المحمدي اليوسفي ١٠٤

الفصل السادس والعشرون: الوجه المحمدي الأيوبي..... ١٠٩

الفصل السابع والعشرون: الوجه المحمدي اليونسي..... ١١٤

الفصل الثامن والعشرون: الوجه المحمدي الشعيبي..... ١١٨

الفصل التاسع والعشرون: الوجه المحمدي الموسوي..... ١٢٣

الفصل الثلاثون: الوجه المحمدي الهاروني ١٣٣

الفصل الواحد والثلاثون: الوجه المحمدي الداودي ١٤٠

الفصل الثاني والثلاثون: الوجه المحمدي السيلماني ١٤٧

الفصل الثالث والثلاثون: الوجه المحمدي الإلياسي ١٥٩

الفصل الرابع والثلاثون: الوجه المحمدي العزيري..... ١٦٤

الفصل الخامس والثلاثون: الوجه المحمدي الزكريَّوي ١٦٨

الفصل السادس والثلاثون: الوجه المحمدي اليحيوي..... ١٧٢

الفصل السابع والثلاثون: الوجه المحمدي العيسوي ١٧٥

الفصل الثامن والثلاثون: الوجه المحمدي ١٨٥

الفصل التاسع والثلاثون: الخلافة في الأمة..... ١٩٧

الفصل الأربعون: الوجوه المحمدية الأربعة ٢٠٢

وصل في الخلافة والوجه ٢١٥